الثاني عشر من سبتمبر

محمد بن عبد الله الشهري





العبيكان
obeikan

المقدمة

بسم الله والحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله وعلى آله وصحبهِ. اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع وعين لا تدمع.

في بداية تدويني لبعض أحداث هذا الكتاب مما لم يكن مقرراً لها أن تنشر، ولكنها كانت مجرد هموم وخواطر كتبتها لأخفف بها ما حدث، وفي نفس الوقت لأوثّقَ تلك الأحداث التي وقعت لي أو لبعض الأشخاص ممن أعرفهم أو يهمني أمرهم، وفي إحدى المناقشات مع رفيقة دربي قالت: ألاحظك تكتب دائماً وتحاول أن تتذكر معنا بعض الأحداث والذكريات التي وقعت لنا خلال بعثتي (إيفادي) للولايات المتحدة الأمريكية، فهل لكتاباتك علاقة بذلك؟

قلت لها: الأمر لا يخلو من ذلك، قالت: إذن أنت تفكر في كتابة تلك الأحداث وتدوينها ومن ثم نشرها في كتاب، فأجبتها بأنني في الواقع لم أفكر في نشر تلك الوقائع؛ فأغلبها أحداث شخصية وعائلية، ولكن لعلها فكرة يجب أن أدرسها بجدية، وأفكر فيها ملياً. وهنا تبلورت الفكرة، وقلت في نفسي: لعلي أقوم بسرد أحداث وقصص محزنة ومفرحة حصلت لي ولعائلتي خلال بعثتي التي صاحبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكذلك أطروحات لكتّاب شرقيين وغربيين ومقتطفات من أقوال بعض الصحفيين وما قدمته وسائل الإعلام (عربية أم غربية) من صحف ومجلات ودوريات ونشرات.

ففي هذا الكتاب جمعت تجارب وخبرات وتحليلات تلك الوقائع، فإن أصبت فيها فذلك من الله وتوفيقه، وإن أخطأت فذلك بسوء تقديري وقلة خبرتي، وما توفيقي إلا بالله.

محمد بن عبدالله القيسي الشهري

الظهران: ٣١٢٦١ ص. ب: ١٠٥٤
Mashehri @ Yahoo. Com
Mashehri @ Kfupm. edu.sa



الإصرار على النجاح

إن من أهم عوامل نجاح الإنسان في الحياة والوصول إلى المراتب العليا والدرجات القصوى منه اتسامه بصفة الطموح؛ الطموح الذي عرفه العظماء وسعوا إليه.. الطموح الذي يرتقي بصاحبه ويدفعه إلى الأمام.. الطموح الذي تتمناه الأمم لأبنائها.. الطموح الذي لا يستوعبه الصغار... نعم، فإن الإنسان الذي ليس لديه طموحات يسعى إلى تحقيقها؛ إنما هو إنسان فارغ من المعاني الحقيقية التي خُلِقَ لأجلها.

كيف لا يكون كذلك، والله قد ألقى على عاتقه مسؤولية الخلافة في الأرض التي عبَّر عنها بالأمانة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾**﴾ (الأحزاب: 72).

فأنى له أن يؤديها إذا لم يكن مليئاً بالطموحات الصادقة؟ فلا بد للإنسان من أن يكون طموحاً إلى الخيرات، وإلى الارتقاء بنفسه إلى معالي الأمور، ففي مجال العلم والمعرفة عليه أن يبني له قاعدة واسعة في أغلب الفنون والمجالات، كعلوم الشريعة واللغة والتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية، وفي السياسة وغيرها مما يمكن أن نسميها الثقافة العامة. وفي مجال العمل عليه أن يطمح إلى الحصول على أعلى المناصب وأفضلها، ليكون شخصية قيادية في أمته، لا أن يكون تابعاً لغيره، فإن الإنسان القائد هو الذي يملي على الناس آراءه وأفكاره، فينفع بذلك نفسه وغيره.

وفي مجال التعامل مع غيره عليه أن يطمح إلى تكوين علاقات حميمية وطيبة مع الجميع قدر الإمكان. وفي حدود الشرع، فإن جسور المحبة تيسر الوصول إلى الغايات إن كانت الوسائل مباحة. وهكذا في مجالات شتى.. فإذا اقتنع الإنسان بمثل هذه الطموحات وجعلها يقيناً راسخاً في نفسه، مدركاً أهمية تطبيقها في الحياة، انتقل إلى المرحلة الأخرى التي تليها وهي التطبيق في الواقع العملي الملموس وتمثل ذلك في السلوك المعاش.

نعم.. الطموحات التي لا يسعى صاحبها إلى تحقيقها إنما هي أمانٍ كاذبة وخيالات سخيفة لا يلبث صاحبها أن يرى الفشل الذريع يهجم على كل أمانيه؛ لأنه ظن نفسه قد بنى ناطحات سحاب سوف يقطنها فإذا بها بقع سراب لا يتوقعها.

فعلى الإنسان أن يجمع دوماً بين الطموح والسعي إلى تحقيقه، حتى يحظى بالنجاح في الوصول إلى ما يصبو إليه، ويكون بذلك أهلاً لتحمل الأمانة، بل ويكون أهلاً للوفاء بحقها.

كما أن النجاح مطلب يسعى إليه كل إنسان، ويتمنى كل شاب الوصول إليه. ومن الأمور المسلم بها أن الإنسان يولد وتولد معه قدرات ومواهب يستطيع من خلال توظيفها الرقي بنفسه في سلم النجاح. ومع هذا فإن الكثيرين قد أخفقوا في تحقيق النجاح المطلوب، وما ذلك إلا لافتقاد عوامله الموصلة إليه من جهة، أو بسبب نمط عيشهم المعتمد على الأمل والأحلام دون التفكير في السعي والعمل

لتحقيق ذلك من جهةٍ أخرى. فتحديد الهدف في الحياة بدقة بما يتوافق مع القدرات الشخصية يأتي أولاً، وبعدئذ العمل على تحقيقه ليكون بداية النجاح الحقيقي لكل فرد.

ويقول عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين معبراً عن طموحه: «إن لي نفساً تواقةً، تمنت الإمارة فنالتها، وتمنت الخلافة فنالتها، وأنا الآن أتوق إلى الجنة وأرجو أن أنالها».

فالنجاح شعور، والناجح يبدأ رحلته بحب النجاح والتفكير فيه. ففكر وأحب وابدأ رحلتك نحو هدفك.. فمن الأشياء المهمة جداً لبداية النجاح هي الحالة النفسية للفرد، فعليك أن تؤمن بأنك ستنجح ـ بإذن الله ـ من أجل أن يكتب لك النجاح فعلاً.

فالناجحون لا ينجحون وهم جالسون لاهون ينتظرون النجاح على اعتقادٍ بأنه فرصة حظ، وإنما يصنعونه بالعمل والجد والتفكير والحب واستغلال الفرص والاعتماد على ما ينجزونه بأيديهم.

واعلم أن التوكل على الله والسير على منهاجه ومراقبته في كل وقت وحين هو الأساس الذي تقيم عليه حياتك في جوانبها، فمن اعتمد على الله كفاه، وفي الحديث «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء». فلكم حلمت أن تتاح لي الفرصة لإكمال دراستي العليا، وها هي الفرصة تأتي ولم يبقَ سوى العمل والتوفيق من الله.

وقد حفظت منذ زمن أبياتاً للإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ منسوجة بخيوط فضية محاكة بأشعة الشمس الذهبية المتلألئة ومرصعة ومزخرفة بالياقوت والزبرجد والمرجان تقول:

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبِ

من راحةٍ فدعِ الأوطانَ واغتربِ

سافرْ تجدْ عِوَضَاً عمن تفارقهُ

وانصبْ فإنَّ لذيذَ العيشِ في النَصَبِ

إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسِدُهُ

إن سالَ طابَ وإن لم يجرِ لم يطبِ

والأُسدُ لولا فراق الغاب ما افترست

والسهمُ لولا فراق القوسِ لم يصبِ

والشمسُ لو وقفت في الفلك دائمةً

لملّها الناسُ من عجمٍ ومن عربِ

والتِبرُ كالتُربِ ملقىً في أماكنهِ

والعودُ في أرضهِ نوعٌ من الحطبِ

فإن تغرَّب هذا عزَّ مطلبُهُ

وإن تغرَّب ذاك عزَّ كالذهبِ

وكم كنت أرنو وأحلم أن أتفيأ ظلال هذه الأبيات الوارفة، وأقطف من ثمارها، وأستنشق عبير أزهارها، وأنهل من معينها، وأطير في رحابها وفيافيها إلى أن مَنّ الله عليّ فأنالني ما كنت أرنو إليه، وأبتغي إليه السبيل.. وهذا بكرمه وفضله وعظيم إحسانه، فيا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

ما أجمل تلك الساعات والأيام التي يقضيها طالب العلم سعياً لطلب العلم النافع، ماكثاً في بطون الكتب وهو يغوص في لجاتها ومكامن محيطاتها، ينتقي منها الدرر واللؤلؤ والمرجان لأن البحث عن الفائدة وعن العلم النافع ينشران بين طيات النفس وجوانحها السعادة والاطمئنان، فتدب الحياة بين أعطافها وخلجاتها رغم الصعوبات والأهوال والمعاناة والعراقيل التي تحد من سيرنا، وتخلدنا إلى الأرض، وتثبط من عزائمنا. رغم كل هذه العراقيل إلا أن المسافر في طلب العلم يجد السعادة والراحة، ليس راحة الجسد بل راحة الروح والاطمئنان، وذلك عندما يتغلب على تلك العراقيل وهو يتابع المسير إلى المعالي والرقي، وكله همة وعزيمة وجد ومثابرة وكفاح؛ ليعيد لأمته عزتها ومجدها و يفيقها من سباتها ورقدتها التي طال عليها الأمد، ويخلصها من الإرجافات والإرهاصات والتخدير والفتور والوهن الذي علق بها وجعلها تركن إلى الدعة والكسل والراحة.

إنك لا تنهض بأمتك إلا إذا تنازلت عن الراحة والكسل، وتحركت وسافرت؛ لأن الساكن لا يلتهب إلا بالتحرك والانطلاق، فرحلتنا عالمية، والعلم يحتاج إلى سفر، ولقد مضى عهد النوم.

سافر فإن الفتى من بات مغتنماً

قفل النجاح بمفتاح من السفر

إن لكل باب مفتاحاً ومفتاحنا للنهوض بالأمة السفر لطلب العلم، إنه النداء الرباني الموصي بالتحرك والكفاح، إنه قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إنها الكلمة التي تلهب ضمير الإنسان وتحرك مشاعره.

يقول ابن القيم: «فالناس منذ خلقوا لا يزالون مسافرين، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيماً ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر.. وهيهات هيهات أن يكون انتهاء السفر مع انتهاء الأجل، فتأهب؛ فإن العاقبة كؤود والناقد بصير».

يا أخي انصهر واحترق من أجل هذا العلم الذي يهدي إلى الفَلاح والرشاد، واغترب وعانِ وكافحْ وتحدَّ كل الصعوبات والأهوال والأخطار.. فهذا ثمنه.. وهذا مهره.. ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر.

إن إرهاق الجسد في السفر والتغريب من أجل العلم والمعالي والسمو والارتقاء لهو راحة واطمئنان وسعادة وسكينة في الكنه والمعنى، إنه سعادة الروح التي من أجلها عظم الإنسان.

يا خادم الجسمِ لم تشقَ بخدمتهِ

أتعبت جسمَك فيما فيه خسرانُ

أقبل على الروح واستكمل فضائلَها

فأنتَ بالروحِ لا بالجسمِ إنسانُ

إنه يعني سعة الصدر وانفراجه حيث يقول الإمام الشافعي - رحمه الله:

تغـربْ عـن الأوطانِ في طلبِ العُلى

وسـافرْ فـفي الأسـفـارِ خمسُ فـوائدِ

فـتـفـريـجُ همٍ واكـتـسـابُ مـعـيـشـةٍ

وعلمٌ وآدابٌ وصـــحــــبـــةُ مـــاجـــدِ

فـإنْ قـيـلَ في الأسـفـارِ ذلٌ ومـحـنةٌ

وقطـعُ الفــيــافي وارتكابُ الشــدائدِ

فـمـوت الفـتـى خـيـرٌ له من قـيـامـهِ

بدارِ هـوانٍ بـين واشٍ وحـــــاســــــدِ

اطلب العلى أخي المسلم دائماً؛ فإن موسى عليه السلام لما اختصه الله بالكلام قال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ (الأعراف: 143) والمجد لا يأتي هبة، لكنه يحصل بالسعي، وإن أهل الهمم هم صفوة الأمم وأهل المجد والكرم طارت بهم أرواحهم إلى مراقي الصعود ومراتب الخلود ومن أراد المعالي هانت عليه كل همة لأنه لولا المشقة لَسَادَ الناس كلهم.

و نصوص الوحي تناديك ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾**﴾ (آل عمران: 133). ويقول ابن القيم: لا يُنال العلم إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة، قد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، ومن آثر الراحة

فاتته الراحة. فإن العلم صناعة القلب وشغله، فمن لم يتفرغ لصناعته وشغله لم ينله، ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم قط.

يقول ابن القيم: ولولا جهل الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف، ولكن حُفت بحجاب من المكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل؛ ليختص الله من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فاصدق أخي المسلم مع الله؛ فإن صدقته فإنه سيصدقك لا محالة، وابتغ واقصد بمطلبك وجهه ورضوانه سبحانه، واعلم أخي أن كلمتك الصادقة تخرج حارة ملتهبة تسعر النار في القلوب. ومما يُنسب إلى الشافعي رحمه الله قوله:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي

فأرشدني إلى تركِ المعاصي

وأخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ

ونورُ اللهِ لا يُعطى لعاصي

وأما الكلمة التي تخرج باردة فإنها لا تصل إلى القلوب، لذا نحن بحاجة إلى كلمة ذات جمرة ملتهبة الحرارة؛ لتقع في قلوب الآخرين فتلهبها وتحركها، ولن يحدث ذلك إلا إذا كنت صادقاً فيما تقول وتفعل... وها هو محمد إقبال يقول:

أرى التــفكيــرَ أدركـــه خـــمــولٌ

ولـم تبـقَ الـعـــزائمُ في اشــــتــغـــالِ

وأصـــبحَ وعظَكُم مـن غـــيـــر نورٍ

ولا ســــحــــــرٍ يطلُ من المقـــالِ

لعل العلم وتحقيق الإنجازات أو تحقيق جزء مما كان يصبو إليه الشخص، يعد دافعاً لما هو آت.. فالأحلام والطموحات تعد أهدافاً يسعى الأشخاص إلى تحقيقها، ولكن قد يعترض تلك الأهداف بعض المعوقات والحواجز التي قد تعيق بعض أولئك الطامحين، أو تعرقل وصولهم إلى مبتغاهم. ولعلنا نقول: إن بعض أولئك الناس يجدون صعوبة بالغة في الفصل بين بعض مفردات هذه الحياة، ومنها الطمع والطموح، و ما بينهما خيط رفيع من الصعب عادةً تحديده.

فالمشكلة هنا أن الأمر يبدأ دائماً بدافع «طموحي» مشروعٍ وهو حق مكتسب لكل ذي نفس، ولكنه بمرور الزمن قــد يتــحــول إلى هدف «طمعيّ» غير مبــرَّر. وإذا كان الطموح وراء كل تطوّر إنساني وتقدّم حضاري أو علمي، فإنَّ الطمع كان السبب لكثيرٍ من الدَّمار والمآسي على مستوى الأفراد والهيئات والدُّول. وبقدر ما احتاجت البشرية في مراحل التاريخ كلّه إلى أشخاص وقادة طامحين يصنعون المجد لأنفسهم ولغيرهم، بقدر ما دفع البشر الثمن غالياً نتيجة لأطماع بعض الأشخاص أو الدول. ولأنَّ الطموح يستهدف الوصول إلى غاياتٍ نبيلة، فإنَّ أصحابه يشدِّدون على الترابط بين شرف الأساليب

ومشروعية الأهداف. أمَّا الطامعون فيمارسون شعار ميكيافيللي المشهور: الغاية تبرِّر الوسيلة، فلا أخلاق تردعهم، ولا ضمير يعذبهم ولا هم يحزنون على ما يفعلون. الطامح في الحياة ينتقل من إنجازٍ إلى آخر، ومن عطاءٍ إلى تضحيةٍ أكبر، بينما الطامع لا يرى العيش سعيداً دون اقتناص الفرص والأشياء والأشخاص. ومن الجدير ذكره أن الخط الأحمر لأولئك الطامحين هو عدم الإساءة للآخرين، وعندما أذكر ذلك فإنني أعي وأعلم ما أقول، فكل نفع جر مفسدة أو كل طموح جر إساءة وخراب على الآخرين أصبح طموحاً أو مكسباً غير مشروع، وفي الجانب الآخر، نجد أن تلك الخطوط هي الخطوط الخضراء الوحيدة المفتوحة دائماً أمام الطامعين. فالطامحون يحصدون الذكر الحسن لهم ولأعمالهم، والطامعون يلهثون لكسب لحظاتٍ في الحاضر على حساب كل المستقبل. الطامح في الحياة هو رمز الخير والعطاء، والطامع في الدنيا هو رمز الشر والخطيئة.

ذلك هو الفرق بين من ذهب هناك ـ إلى أمريكا ـ لتحقيق طموح مشروع وبين من ذهب لتحقيق شيء لا نعلم ما هو، الذي قوبل في نفس الوقت بمن استغل ذلك الطمع أو الطموح غير المشروع لطمع أشد ضراوة.. طمع أكل الأخضر واليابس.. طمع داس على مشاعر ما يقارب المليار مسلم.. طمع الدولة الذي استغل هفوات أناس أساؤوا لدينهم وأهليهم إساءةً بالغة، قد لا يغفرها التاريخ لأولئك الطامحين.

وعندما أذكر هذا الشيء فإنما أنا واحد من أولئك الطامحين ـ طموحاً مشروعاً ـ الذين سعوا إلى تحقيق شيء من طموحاتهم، ولكن وقفت بعض تلك العوائق التي وإن اعترفت إلى هذه اللحظة بأنها

وقفت دون تحقيقي لبعض تلك الطموحات، إلا أنها لن تثنيَني ولن تعيقَني عن تحقيق ما تبقى إن شاء الله. ليس لشيء، ولكنه الأمل.. ولكنها الرغبة الجادة في الوصول، ولعل الأمر فيه خير.

وعلى ذكر هذه العبارة، فقد حدثني أحد الإخوة بقصة عجيبة تتمحورحول هذه العبارة (لعل الأمر فيه خير) فقد ذكر أنه كان هناك رجل صالح في قديم الزمان، صَاحَبَ ملكَ البلاد في ذلك الوقت، وكانا لا يفترقان طيلة اليوم.. وكان كلما أصاب الملك شيء أو منع عنه شيء ردد عليه تلك العبارة (لعل الأمر فيه خير)، إلا أن الملك سئم من ترديد هذا الرجل لتلك العبارة وأصبح لا يحب سماعها. وذات يوم، قُطعت أصبع الملك الصغرى، فما كان من ذلك الرجل الصالح إلا أن قال: (لعل الأمر فيه خير). عندئذٍ غضب الملك منه وقال: ماذا في قطع أصبعي من خير؟ فقد تضررت وتشوهت يدي. عندها أمر بحبس ذلك الرجل الصالح رغم أنه صديقه الخاص وصاحبه، فرد الرجل الصالح بقوله: (لعل الأمر فيه خير). تعجب الملك منه إلا أنه أمر بإيداعه السجن. وبعد مدة خرج الملك إلى الصيد وكان قد افتقد صاحبه الذي كان ملازماً له في رحلاته، ولكنه ذهب وحده، وعندما كان في الصيد إذا بمجموعة من الأفراد يهجمون عليه ويأسرونه، وكان أولئك النفر قد خرجوا للبحث عن صيد سمين ليذبحوه لآلهتهم، وما إن وجدوا هذا الرجل حتى أخذوه ليذبحوه، ولكن عندما هموا بذبحه تفقدوه فإذا بهم يجدون أن أحد أصابعه مقطوعة، وهم لا يريدون أن يذبحوا شيئاً معيباً لآلهتهم. وبما أن أصبع الرجل مقطوعة

فإنه يعتبر معيباً وغير كامل. عندها قاموا بإطلاق سراحه فعاد إلى موطنه، وتذكر كلام صاحبه عندما قال: (لعله خير) عندما قُطعت أصبعه، فأمر بالإتيان به وقص عليه ما جرى، ثم قال: حينما قطعت أصبعي وقلت: لي لعل في الأمر خيراً، كان ذلك مزعجاً لي، ولكن كان فيه خير كثير فعلاً.. فقد تسبب ذلك في عدم ذبحي، ولكن الذي لم أفهمه هو أنني عندما أمرت بحبسك قلت حينها: لعل الأمر فيه خير. فقال الرجل: الحمد لله، فقد كان ذلك فيه خير كثير لي أيضاً، وذلك لأنه لو لم أسجن لكنت ذهبت معك للصيد وكنا قد تعرضنا للأسر، فلما وجدوا أصبعك مقطوعة كنت سأكون أنا البديل الذي سيذبح قرباناً لآلهتهم، ألم ترَ أن ذلك كان فيه خير كثير؟

ونحن نقول: لعل في عدم عودتنا خيراً، ولكن الإصرار على تحقيق ما يصبو إليه الشخص يُعدُّ من الطموح المشروع مع استخارة الله في كل الأمور، ولا سيما تلك الأمور الغيبية التي لا نستطيع الجزم بأن السعي لتحقيقها خير.

وقد أعجبتني أيضا قصة قرأتها في المراحل المتقدمة من أيام الدراسة تدور حول أسد يجري خلف صيد له.. وأذكر أن القصة كانت تقول: إن الصيد كان غزالاً، وخلال جري الأسد خلف هذا الغزال كان الأسد في الوقت ذاته يشعر أن هناك شيئاً ما يلاحقه، وعندما توقف ليرى الذي خلفه، فإذا به ثعلب يجري وقد تبعه من بعيد فما كان من الأسد إلا أن تجاهله، وجعل ينظر إلى الغزال

فوجده قد ابتعد فعاود الركض للّحاق بالغزال.. وبعد مرات عدة استطاع الأسد أن يصطاد فريسته ولكنه وجد الثعلب يتراقص حوله ويصيح..... صدناها صدناها !

وخلاصة القصة أن الإصرار والسعي وراء الهدف دون الالتفات إلى ما يحاول إعاقتنا مع التركيز على الهدف هو ما يجب على المرء الاهتمام به، وترك كل ما يعيق تحقيق هدفه، إضافة إلى أن الفرحة الحقيقية هي لمن حقق الهدف ـ الأسد ـ وليس لمن كان يتراقص فرحاً بتحقق الهدف ـ الثعلب.

وللشيخ عائض القرني كتاب شهير بعنوان «لا تحزن»، تُرجم الكتاب إلى لغات عدة وبيع منه أكثر من مليون نسخة، واعتبر الأول في معارض الكويت، والشارقة، والقاهرة، والمغرب، والجزائر، كما اختير أيضا بالإجماع الكتاب العربي الأول خلال السنوات العشر الماضية، في هذا الكتاب ذكر الشيخ القرني: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴿٢٢﴾﴾ (الحديد: 22).. جفَّ القلمُ، رُفعتِ الصحفُ، قضي الأمرُ، كتبت المقادير، ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴿٥١﴾﴾ (التوبة: 51)، ما أصابك لم يكنْ ليُخطئِك، وما أخطأكَ لم يكنْ ليُصيبك. إن هذه العقيدة إذا رسختْ في نفسك وقرَّت في ضميرِك صارتْ البليةُ عطيةً، والمِحْنةُ مِنْحةً، وكلُّ الوقائع جوائز وأوسمةً ((ومن يُرِدِ اللهُ به خيراً يُصِبْ منه)) فلا يصيبُك قلقٌ من مرضٍ أو موتِ قريبٍ، أو خسارةٍ ماليةٍ، أو احتراقِ

بيت، فإنَّ الباري قد قدَّر، والقضاءُ قد حلَّ، والاختيارُ هكذا، والخيرةُ للهِ، والأجرُ حُصِّل، والذنبُ كُفِّر. هنيئاً لأهلِ المصائب صبرهم ورضاهم عن الآخذِ، المعطي، القابضِ، الباسط، ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ (الأنبياء: 23).

ولن تهدأ أعصابُك وتسكن بلابلُ نفسِك، وتذْهب وساوسُ صدْرِك حتى تؤمن بالقضاءِ والقدرِ، جفَّ القلمُ بما أنت لاقٍ فلا تذهبْ نفسُك حسراتٍ، لا تظنَّ أنه كان بوسعِك إيقافُ الجدار من أن ينهار، وحبْسُ الماءِ من أنْ ينْسكِب، ومَنْعُ الريحِ من أن تهبَّ، وحفظُ الزجاج من أن ينكسر، هذا ليس بصحيحٍ على رغمي و رغمك، وسوف يقعُ المقدورُ، وينْفُذُ القضاءُ، ويحِلُّ المكتوبُ ﴿**فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ**﴾ (الكهف: ٢٩).

استسلمْ للقدر قبْل أن تطوّق بجيش السُّخْط والتذمُّر والعويل، اعترفْ بالقضاءِ قبْل أن يدهمك سيْلُ النَّدمِ، إذن فليهدأ بالُك إذا فعلت الأسباب وبذلت الحيل، ثم وقع ما كنت تحذرُ، فهذا هو الذي كان ينبغي أن يقع، ولا تقُلْ: «لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قُلْ: قدَّر اللهُ وما شاء فعلْ».

في الواقع لو تأملنا أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكنا أكثر شفافية مع النفس لوجدنا أن تلك الأحداث كانت شماعة عُلِّق عليها فشل بعض الذين كانوا يجرون وراء بعض أهدافهم ـ غيرالشرعية ـ أو من كان ينتظر مثل تلك الظروف ليرمي عليها سبب فشله، أو لنقل عدم مقدرته على تحقيق هدفه رغم شرعية ذلك الهدف، ولكن ما هو

مسلَّم به أنها كانت أيضا أهم عائق لتحقيق أغلب الذين كانوا يسعون إلى تحقيق أهداف معينة نخص منها على سبيل المثال ـ وهو محور كلامنا ـ الأهداف التعليمية، رغم أن هناك أشخاصاً قد أعانهم الله على تحقيق ما كانوا يصبون إليه، رغم تلك الصعوبات التي واجهتهم ورغم الضغوط النفسية التي صاحبت تلك الحقبة.

وحينما شرعت في تدوين وكتابة هذا الكتيب إنما كان القصد منه تدوين أحداث خاصة.. مفرحة تارة ومحزنة تارة أخرى.. وقعت لي خلال مدة إيفادي، منها ما هو شخصي جداً ـ لي ولعائلتي ـ ومنها ما كان له تأثير في سير دراستي ودراسة بعض الأصحاب والزملاء، وكذلك التطرق إلى تلك الحقبة وما صاحبها من ظروف وتداعيات أثرت سلباً وإيجاباً في سير بعض الأمور، وغيرت في أغلب الأحيان مجرى الحياة ونظرة العالم إلى كل الأمورالمتعلقة بالنظرة الشاملة لهذا العالم الصغير. ولعل تلك الأحداث قد كشفت أموراً كانت مخفية.. فبعد الحادي عشر من سبتمبر، باتت القضية أكثر حدة، فموجة العداء لكل ما هو أميركي في تنامٍ، تغذيها حماقة السياسة الأميركية الخارجية ووسائل الإعلام التي تخاطب غرائز رجل الشارع وتلعب بعواطفه. وهو ما يجد قبولاً في مجتمعات تضعف فيها التنمية وينحسر فيها تصاعد نمو الاقتصاد والمعرفة. وأمور كان يتحين أصحابها الفرصة لإخراجها إلى السطح وتسييرها حسب رغباتهم وتوجهاتهم.

ونحن هنا لن نحاول البحث عن الحقيقة؛ لأن ذلك قد يحتاج إلى عقود من الزمن كمثيلاتها من الحوادث الأمريكية التي شغلت العالم والشعب الأمريكي لسنين عدة، ومنها: مقتل الرئيس كيندي، ووترغيت،

وإيران غيت، وغيرها.. إلا أن هذه الأحداث وتلك الحرب غيّرت بلا شك مجرى الحياة، فانقلبت الحياة بعدها إلى حرب لن تنتهي؟ إنها الحرب على (الإرهاب).. هذه الكلمة التي لم يستطع العالم حتى الآن الاتفاق على تعريف واضح لمعناها، حتى نحدد مواقفنا منها.



الاستعداد للسفر

أصبح العالم الحديث في حالة حركة دؤوبة وسفر متواصل، بحيث تتسع شبكات الاتصال أرضاً وجواً كل يوم لاستيعاب هذا التواصل، والضرب في الأرض طلباً للرزق والمتعة والراحة والثقافة العلم.

وإن تستعد لسفر رحلة قصيرة، قد يحتاج منك الأمر إلى أيام للاستعداد والترتيب لتلك الرحلة، سواءٌ أكان ذلك للسياحة أم لغير ذلك. وإن كانت الرحلة لقضاء إجازتك السنوية فإن ذلك يحتاج إلى شهور قبلها للاستعداد، وذلك بتجهيز الحجوزات اللازمة للطيران أو السكن المناسب أو السيارة ـ إذا تطلب الأمر ذلك ـ والميزانية الخاصة بتلك الرحلة، فما بالك والأمر هنا يختلف. فأنت مقبل على رحلة طويلة تستغرق منك سنوات، تغير فيها مجتمعك وبيئتك وكل شيء حولك.. ناهيك عن العائلة الكبيرة ما شاء الله (زوج ـ ابنتين ـ ولدين).

على أية حال، فقد اعتدت ألا أتحدث في مثل هذه الأمور الحيوية والمهمة جداً في حياتي إلا بعد أن تكتمل الصورة ويتحدد الأمر كاملاً. وعليه، فلم أتحدث مع الأهل حول مسألة الإيفاد، رغم أن إجراءات

الإيفاد قد استغرقت زهاء السنة، ولكنني بعد انتهاء الأمر لم يتبقَ لي سوى التأشيرة فقط، فقمت بالتحدث مع أبي وأمي وزوجي.. رغم إحساسها بأن هناك أمراً جللاً. وقد فرح الوالدان وباركا الرحلة ودعيا لي، وكذلك زوجي.. فقد كانت أكثر الناس سعادة بذلك، حيث كان حلمها أيضاً أن أكمل دراستي العليا.

كان لدي ابنتان كان عمراهما في ذلك الوقت (9، 11) سنة. وكان هذا الأمر يؤرقني بشدة، فسوف تكون سنوات المراهقة في ذلك البلد المختلف عنا في الدين والعادات والتقاليد.. ناهيك عن الأمور الأخرى. ولعل من الأمور المهمة في حياتي هو التصاقي بعائلتي وأبنائي لدرجة كبيره جداً، وبصريح العبارة (بيتوتي).. فكنت لا أذهب إلى أي مكان إلا وهم معي، ولا أستطيع أن أستمتع دونهم. لذلك كان هناك خيار صعب.. إما أن أتركهم مع أبي وأمي في الرياض، وإما أن يسافروا معي. ولكن لعلمي ولتأكدي التام بأنني لن أستطيع فراقهم، فقد عقدت العزم على أخذهم معي مع إعطائهم الصورة الواضحة عن الوضع هناك وشرح ما هو متوقع في ذلك البلد.

ومن الأمور الأخرى التي بدأت أعدّ لها الأمور المالية والشخصية المتعلقة ببيتي وأثاثه وكل ما هو متعلق بالسفر. كذلك قمت بسحب ملفات الأبناء من المدارس وتصديق الشهادات من المندوبية والخارجية مع أخذ الحيطة وترجمة كل الشهادات الدراسية للبنات.

أنهيت إذاً كل الإجراءات وغادرت الخبر ـ مدينتي المفضلة ـ إلى الرياض انتظاراً للحصول على التأشيرة. ففراق الخبر ـ العقربية تحديداً ـ أمر شق عليَّ، لأنها تلك المدينة الحالمة التي عشت فيها أجمل وأحلى أيام حياتي. ولكن هو الطموح، الذي يجعل الإنسان يتخذ قرارات صعبة. وبالمناسبة.. فقد رفضت عروضاً كثيرة للعمل خارج مدينة الخبر قبل هذا الوقت، لا لشيءٍ سوى لعشقي هذه المدينة.



في انتظار التأشيرة

ذهبت أنا وعائلتي إلى مدينة الرياض بجوار الوالد والوالدة والإخوان انتظاراً للحصول على التأشيرة. ومن المفارقات حصول زوجي والأولاد (وهم مرافقون لأمهم في جوازها) على التأشيرة في مدة قصيرة لا تتعدى أسبوعاً فقط، أما بالنسبة لي فقد طال الانتظار وتاهت وتشتّتت الأفكار، فلقد عانيت الأمرين من تأخر الموافقة على إصدار التأشيرة. ولعل تواجدي بالرياض قد مكنني من متابعة إصدار التأشيرة مع السفارة عن قرب، ولكنني كلما كنت أسأل عن سبب التأخير، كانت الإجابة دائماً أن عليَّ الانتظار حتى يقوموا هم بالاتصال بي، رغم استغرابهم من أن الموضوع قد طال وأخذ وقتاً أطول من اللازم. فقد تقدمت بطلب الحصول على التأشيرة في بداية شهر إبريل 2001 م، ونحن الآن في بداية أغسطس 2001 م، وقد اقترب

موعد بدء العام الدراسي. وكنت قد أنهيت إجراءات سحب ملفات أبنائي من المدارس.. الأمر الذي جعلني في حيرة من اتخاذ أي قرار، بل والعجز التام، بسبب ما ذكرت من سحب ملفات الأولاد من المدارس، كما قدمت زوجتي طلباً للحصول على إجازه دون راتب من عملها.

كل ذلك جعل الوضع يزداد صعوبة، وأحسست حينها بأنه لا نصيب لي في هذه البعثة، فلجأت إلى الله عز وجل، وفوضت أمري إليه. فكم حث الإسلام العبد على أن يصبر على البلاء؛ لأن صبره هو الذي يكسبه الأجر، كما أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصبر كما صبر الرسل السابقون فقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٣٥﴾﴾ (الأحقاف: 35). وقد بين القرآن أن أحد أقسام البر هو الصبر في الشدة والابتلاءات فقال تعالى: ﴿**لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴿١٧٧﴾﴾ (البقرة: 177).

وقد بين الحديث الشريف أن أمر المؤمن كله خير، إن أصابه الخير شكر الله عليه فازداد أجره، وإن أصابته ضراء صبر، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «عجبًا لأمر المؤمن إنما أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن

أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» (رواه مسلم). وليس من شك في أن المصائب وما ينتج عنها من حزن تكون مدعاة لتكفير الذنوب، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه» (رواه البخاري).

وبعد ثلاثة أشهر من الانتظار في مدينة الرياض كان عملي يتابع الوضع، وكانوا معي على اتصال مستمر، حتى إن أحد الزملاء اتصل بي، وذكر أن التوجيهات قد صدرت بأن أعود للجامعة وأباشر العمل حتى تأتي التأشيرة، وكان ذلك يوم الأربعاء الموافق 10 أغسطس 2001، وقد أوكلت أمري لله. وفي يوم السبت 13 أغسطس كانت الفرحة كبيرة، عندما اتصلت بي السفارة الأمريكية تبلغني بالموافقة على صدور التأشيرة.. فقلت: الحمد لله، فُرجت.



وداع الأهل

كان الانتظار صعباً للغاية، على الرغم من أن الأمور السياسية كانت على ما يرام في ذلك الوقت، إلا أن الانتظار حشد خلفي كل المهتمين بسفري، مما أكسبني نوعاً من التعاطف مع وضعي، ولا سيما أنني ساعتها كنت قد أنهيت كل الإجراءات الخاصة بسفري. ولعل ذلك الانتظار قد جعل من حصولي على التأشيرة إنجازاً ونجاحاً فرح به كل

من حولي فرحة عامرة عمت جميع الأهل والأصدقاء. فتلقيت التهاني من الجميع، مما سهل عليَّ الأمر، وخفف من حرقة الوداع، فالكل كان متعاطفاً يقول عليك بترتيب أمورك والسفر بسرعة. بعدها بدأت الاستعداد للسفر رغم أنني قمت بتغيير موعد السفر أكثر من مرة، بسبب ما ذكرت سابقاً من أمر تأخر التأشيرة. كان هدفي أن أسافر إلى أمريكا قبل بدء الدراسة بمدة كافية، لكي أقوم بترتيب وضعي والتزاماتي الأخرى من تسجيل الأبناء في المدارس وتجهيز السكن المناسب وخلافه.

ولكن عندما تحدد موعد السفر، حانت لحظة الوداع، فكانت من أصعب اللحظات.. كانت مشاعري متضاربة بين الحزن لفراق الأهل والإخوان، ووداع الأحبة من جهة، والفرح بالسفر لتحقيق هدف معين أسعى لتحقيقه والوصول إليه من جهة أخرى. إلا الوالدة.. فقد انتابها حزن كبير وبكت كثيراً لدرجت أنني فكرت في عدم الذهاب خوفاً عليها، رغم أنها كانت حزينة عند تأخر التأشيرة، وكانت تدعو لي بالتوفيق والحصول على التأشيرة، وألاّ يضيع الله تعبي. خرجت من البيت أنا وإخوتي إذ أصرّوا على توديعي من المطار، وقد احتاج الأمر إلى سيارتين منها سيارة (pick up) وذلك لكثرة الحقائب.



وأقلعت الطائرة

كـانت الـرحلة مـتـجـهـة من الرياض إلى نيـويورك على الخطوط السـعـودية، ومنهـا على خطوط طيـران TWA الأمـريكيـة، إلـى مـدينة سـانت لويس بولاية مـيـزوري وسط أمـريكا، ومنهـا إلى مطار مـارين المحلي بولاية إلينوا.

كان مـوعد إقلاع الطائرة السـاعة التاسـعة من مسـاء يوم الأربعاء الموافق 17 أغـسـطس 2001، فـتـوجـهنا إلى المطار، ومـعنا حـقـائبنا الكثيرة.. حقيبة واحدة لكل فرد من أفراد العائلة، إضافة إلى حقيبتين من الحجم الكبير (x-large).

وبعد قليل من الانتظار تم النداء على الرحلة المغادرة إلـى نيويورك، وعند سـمـاعنا للنداء قـمنا بتـجـميع باقي أغـراضنـا، وصـعـدنا إلى الطائرة. وكنت قد طلبت أن تكون المقـاعد الخـاصـة بنـا داخل الطائرة على خط واحد، لنتمكن من الجلوس، فكان الشعور خليطاً من الدمعة والفرحة؛ دمعة لفراق الأهل والإخوان والأصحاب، ودمعةٌ للذهـاب إلى عالم مجهول بالنسبة لنا.. ولا سيما أنها كانت المرة الأولى التي أسافر فيها إلى أمريكا، وفرحة بالذهاب إلى تحقيق حلم لطالما طال انتظاره.

أقلعت الطائرة.. والكل مـترقب.. فـقـد كـانت أطول رحلة بـالطائرة قمنا بهـا لا تتعدى الأربع سـاعات، وهذه الرحلة تصل إلى ثماني عشرة سـاعـة، تقطع فيـهـا آلاف الأميـال. الطائرة الآن فوق مـدينة الرياض.

وعندما ألقيت نظرة من النافذة على الرياض رأيت تلك المدينة الجميلة الكبيرة في وسط الصحراء تعج بالأنوار فقد جعلت من ليلها نهاراً. عندها تذكرت مدينتي الحالمة، تلك المدينة التي عشت فيها أجمل أيام حياتي.. الخبر.. تلك المدينة التي تقع على ضفاف الخليج العربي. تذكرت جمالها.. هدوءها.. تلك الأيام الجميلة على شواطئها الساحرة.. تذكرت أن حبها حرمني من عروض كبيرة للعمل خارجها، اعتقدت أنني بابتعادي عن مدينتي سأكون في غربة، ولم أتوقع أن حبها هو غربتي الحقيقية!



كنت أتوقع أن أكون آخر رجل سيخرج من هذه المدينة، وبعدها لن يخرج أحد.. فالباقون لا تبدو عليهم ملامح الاقتناع بفكرة خوض مثل تلك التجربة التي يخشونها. هل سيجدون تلك الوعود التي لم تكن محل اقتناعهم؟ هكذا كنت أظن مثلما يظن القليل من سكان مدينتي الحالمة بالعيش خارج مدينة الخبر.

كنت أشفق على من يستعدون للرحيل أو لمحاولة الرحيل، فهم ما زالوا يحاولون برغم ما يتجشمونهُ من مشقة وعناء في ترتيب رحالهم بكل دقة وسكينة غير مدركين وقت المسير، ورغم إشفاقي إلا أن شعوري بهم بين الضوء والعتمة كان يحرك لدي إحساساً غريباً يشبه ما أشعر به وأنا أرقب ظلام الليل فوق مدينة الرياض، وأترقب احتراق قرص الشمس كي أعلن لهم ميلاد يوم جديد من حياتي، يبدأ مع ملامسة شعاع الشمس لأطراف أسوار مدينة أخرى. انشغل الجميع في الطائرة بما يهمهم، فبعضهم توسد ذراعه ونام، والبعض الآخر عاش مع الفيديو والتلفاز، وآخرون يقرؤون، إلا أن بناتي كن يكتبن تلك اللحظات ويوثقنها في مذكراتهن الخاصة.. أما أنا فلم أفق إلا على ذلك الصوت الناعم وسؤالها: ماذا تحب أن تشرب، عندها أجبتها بتلقائية وسرعة متناهية ـ أحب الخبر!!

استمرت الرحلة وكانت شيقة بالنسبة لنا، لأنها الأولى بهذا الطول، ولأننا ذاهبون إلى عالم جديد عالم مليء بالمفارقات الكثيرة، ولا نعلم ما يخبئه لنا القدر... ولكن من الأشياء الجميلة آنذاك وجود مكان مخصص للصلوات في مؤخر طائرة الخطوط السعودية... كان يتعاقب عليه المصلون يؤدون فيه صلواتهم بكل طمأنينة، وبعدها يعودون إلى مقاعدهم.. إلا أن بعضهم كان يتأخر قليلاً لأخذ بعض الراحة وتمديد رجليه بالتحدث مع بعض الموجودين.

أعلن الطيار اقترابنا من مطار كينيدي بمدينة نيويورك، وأن على الجميع العودة للمقاعد والاستعداد للهبوط، وقام الملاحون بمناولتنا أوراق الجوازات الأمريكية للقيام بتعبئتها.. بدأت اللحظات تتسارع للذهاب للعالم الجديد.. هبطت الطائرة بسلام.. قمنا بلملمة جميع الأغراض والاستعداد للنزول لأرض المطار.



اليوم هو الثامن عشر من أغسطس 2001، ذهبنا إلى الجوازات بعد أن قمنا بتعبئة النماذج التي وزعت من قبل طاقم الطائرة الخاصة بدخول أمريكا، وقد سمح لنا بالدخول وتوجهنا إلى العفش (الحقائب) وساعدنا فيها أحد العاملين، حيث كانت الرحلة الثانية على خطوط أخرى.. إلى مدينة سانت لويس بولاية ميزوري وسط أمريكا.

أدخلت الحقائب إلى الكاونتر، وأعطينا البطاقات الخاصة بها، وذهبت بعدها ـ أنا والأهل ـ إلى صالة الانتظار، فقد كان موعد الرحلة الثانية في الساعة الثانية ظهراً، ونحن الآن في التاسعة

صباحاً.. كان مطار نيويورك يعج بالمسافرين، فأخذنا نتجول بالمطار إلى أن حان وقت صلاة الظهر، فقمت بأداء الصلاة بالصالة.. كذلك فعلت زوجتي.. توجهنا بعد ذلك إلى بوابة دخول الطائرة حيث قمنا بالانتظار بعض الوقت إلى أن تم الإعلان عن موعد الإقلاع، وخلال مدة الانتظار تعرفت على أحد الإخوان السعوديين من المبعوثين للدراسة بأمريكا، ودار بيننا حديث عن هموم الابتعاث وذكر لي أن الأمور طيبة وأن كل شيء متيسر، وذكرت له ساعتها أن الناس في السعودية قد خوفوني من حمل بعض الأغراض في الحقائب، ولكن في نيويورك لم يقم أحد بفتح الحقائب، وبقيت كما شحناها.. عندها رد علي قائلاً بلهجته المكاوية: (يا بويه إنت جاي من السعودية مو من مكان ثاني، يعني إيش راح تهرب؟ موية زمزم......؟؟؟).

وصلنا مطار سانت لويس الساعة الرابعة عصراً، وانطلقت الرحلة الثالثة في الساعة الخامسة إلى مطار مارين المحلي بولاية إلينيوي، وأتذكر أننا كنا متأخرين، وقد كانت المسافة كبيرة بين بوابة وصولنا وبين بوابة المغادرة، فأسرعنا في خطونا لكي نتمكن من الوصول قبل الإقلاع.. كنت أتسابق مع الأولاد للوصول إلى البوابة قبل إغلاقها، وقد ساعد السير المتحرك كثيراً في وصولنا بسرعة. ولدى وصولنا.. توجهنا إلى الطائرة.. وكم كانت المفاجأة كبيرة لنا، فقد كانت الطائرة صغيرة جداً تتسع لخمسة عشر مسافراً فقط! تفاجأنا ولكن لم يكن لدينا خيار آخر، صعدنا إلى الطائرة، وشعرنا بالدوران.. بالغثيان.. ولكن تحملنا، فقد كانت كل حركة لها.. صعوداً أو هبوطاً.. تشعرك برحلة الموت.

قبل ذهابي إلى أمريكا كنت على اتصال مع أحد الإخوان السعوديين في مدينة كاربنديل كان موفداً من قبل جامعة الملك فهد إلى الجامعة نفسها التي سوف أذهب إليها، كان هذا الأخ (أبو مبارك) بمثابة الأخ والصديق، وصادف يوم سفري عودته إلى السعودية خلال إجازة الصيف لأخذ عائلته للعيش معه في أمريكا، ولكنه لم ينسَ، فقد أوصى أحد أصدقائه هنا باستقبالي وحجز الفندق المناسب لي ولعائلتي.



أول الغيث قطرة

وصلنا إلى مطار مارين وكان أحد الأصدقاء الأعزاء في استقبالنا.. ونظراً لأن الطائرة كانت كما ذكرت لا تتسع لأكثر من خمسة عشر مسافراً، فلم يكن ثمة مكان بها لكل حقائب المسافرين، فأخبرونا بأن بقية الحقائب سوف تصل في اليوم التالي، وسوف يقومون هم بالاتصال بنا حال وصولها. أخذنا الأخ العزيز إلى فندق The Best Inn في مدينة كاربنديل، حيث حجز لنا غرفة.. وكانت الساعة تشير إلى السادسة مساءً، ثم غاب عنا بعض الوقت وأحضر لنا عشاءً خاصاً من بيته، بعدها.. وبعد أن أنهكنا التعب.. خلدنا إلى النوم في غرفة واحدة.. أنا.. وزوجتي.. وأربعة أطفال.



مدينة كاربنديل

مدينة كاربنديل تعد من المدن الصغيرة في جنوب ولاية إلينوي التي تقع بها مدينة شيكاغو الشهيرة.. وتشتهر ولاية إلينوي بالإنتاج الزراعي والحبوب بالذات، ولذلك تجد أغلب السكان من الريفيين المزارعين وكذلك المتقاعدين. كاربنديل مدينة تعتمد اعتماداً كلياً على جامعة جنوب إلينوي، حيث تبعد حوالي 250 ميلاً عن مدينة سانت لويس الشهيرة في ولاية ميزوري وسط أمريكا، كما تبعد حوالي 500 ميل جنوب مدينة شيكاغو. وجو هذه المدينة معتدل جداً في الصيف وبارد في فصل الشتاء، وتهطل الأمطار عليه طوال العام، إذ تنزل الثلوج بصورة كبيرة ولاسيما خلال شهري ديسمبر وديناير. ولعل الشيء الملفت هو تمييز الفصول الأربعة بوضوح خلال العام.. الصيف، الخريف، الشتاء، الربيع.. وترى تلك الألوان الجميلة خلال فصل الربيع. وسبق أن تعرضت تلك المدينة إلى إعصار (تورنيدو) لذلك تجد أن كاربنديل دائماً تقع تحت تهديد تلك الأعاصير والصواعق التي لم أسمع ولم أرَ لها مثيلاً إلا في تلك المنطقة. ويوجد بمدينة كاربنديل مركز تجاري كبير للتسوق يضم بعض المحلات التجارية المشهورة مثل Famous-par، كذلك يوجد بالمدينة فرع للشركات المشهورة Wal-Mart وKmart، وإجمالا.. فإن عدد سكان كاربنديل يقارب 50000 نسمة.



ضياع الحقيبة

في اليوم الثاني من وصولنا ذهبت إلى الجامعة وأخبرتهم بوصولي وأطلعتهم على المراسلات والقبول، وبدأت الدراسة وقد كانت القلوب ترحب قبل الألسن والوجوه مبتسمة وكل الأمور ميسرة. وعند عودتي إلى الفندق وجدت المطار قد اتصل وذكر أن باقي الحقائب قد وصلت. ذهبت أنا وأحد الإخوان إلى المطار.. ولكنني وجدت أن هناك حقيبة مفقودة وأبلغتهم بذلك، فذكروا لي أن هذه هي كل الحقائب المتأخرة والموجودة بمطار سانت لويس، ومع إصراري بأن أحد حقائبي ـ التي لسوء الحظ كانت الحقيبة الخاصة بي ـ ليست موجودة، فطلبوا مني أن أقوم بتعبئة أنموذج مطالبة على أن أذكر كل محتويات الحقيبة والقيمة الفعلية لكل المحتويات، وقد قمت بتعبئة الأنموذج إلا أنه عند ذكر المحتويات لم أتذكر كل الموجودات علاوة على ما كانت تحتويه من أشياء وأوراق رسمية وكتب لا تقدر بثمن. وبعد أسبوع قاموا بإرسال رسالة مرفق بها شيك بـ 120 دولاراً.. عندها أخذت الرسالة إلى المكتب القانوني بالجامعة وشرحت لهم الأمر، فقالوا لي بأنهم سوف يتفاهمون مع شركة الطيران، وبعد محاولات أرسلت شركة الطيران شيكاً بـ 1200 دولار.. أما الحقيبة فلم تعد وذهبت أدراج الرياح.



فندق The Best Inn

كما ذكرت سابقاً، تأخري في الحصول على التأشيرة تسبب في حرماني من أمور كثيرة ومنها الحصول على سكن ضمن مساكن الجامعة، فقد حجزت عن طريق الإنترنت قبل وصولي بمدة الشهرين على أن يكون موعد قدومي في الأول من أغسطس 2001، ولكن عند وصولي إلى الجامعة سألتهم عن إمكانية الحصول على سكن داخل الحرم الجامعي فذكروا لي أن الموعد قد انتهى وأن عليَّ الانتظار.

مرت الأيام... وكل يوم ينقضي أتأمل في اليوم الذي يليه لعلها تفرج.. وخلال تلك المدة عاد الأخ (أبو مبارك) الذي كنت معه على اتصال من السعودية، حاولت خلال تلك المدة أن أجد مكاناً أخر بدلاً من الفندق.. ولسوء الحظ لم أجد إلا أماكن دون المستوى. وبعد مدة ذكر لي أبو مبارك أن أحد الإخوان السعوديين قد أنهى دراسته وسوف يعود للوطن، ولعلنا نستطيع أن نحصل علي بيته بعد الترتيب مع إدارة الإسكان في الجامعة.. وافقت إدارة الإسكان شريطة أن أقوم باستلام البيت كما هو دون صيانة. ومن المصادفة الجميلة أني تمكنت من الحصول على بيت ذلك الأخ وبعض أثاث المنزل علاوة على شراء سيارته الخاصة. و بعد خمسة عشر يوماً تمكنت من الحصول على السكن المناسب وبأجر مادي مناسب واستقرت أموري بعض الشيء.

خلال تلك المدة كنت حريصاً جداً على معرفة القوانين والأنظمة..

سواءٌ على المستوى الفردي أم العائلي.. ولذلك، فقد قمت بجمع معلومات حول الأنظمة والقوانين وحرصت على تعليم وتوجيه أسرتي إلى أهمية احترام الأنظمة وعكس صورة جميلة عن ديننا وبلدنا، لاعتقادي بأننا سفراء لهذا الدين وهذا البلد. وبذلت قصارى جهدي حتى يتمكن جميع أفراد أسرتي من إتقان اللغة الإنكليزية، لأن ذلك سيحميهم.. وسيجعلهم يفهمون كل ما يدور حولهم فلا يكونون فريسة سهلة للجهل باللغة.. فكما نعرف جميعاً (أن من عرف لغة قوم أمن مكرهم).



معاناة المدارس

خلال تلك المدة حرت كثيراً في اختيار مدارس البنات. فالبعض ينصح بضرورة اختلاطهم مع غيرهم في المدارس الأجنبية، لأنه وللأسف لم يكن في الولاية التي أدرس بها مدارس عربية. عندها استخرت الله وقررت تسجيلهم في المدرسة الأمريكية مع مراقبة الوضع. وعند ذهابنا لتسجيلهم تفاجأنا كثيراً بسهولة ويسر التسجيل، فلا روتين ولا تعقيد ولا مطالبة بإتقانهم للغة الإنكليزية، كما كان التعامل معنا أكثر من رائع، وكان استقبالهم لنا حاراً.. وتم التسجيل.. وشرع الأولاد في التوجه إلى مدارسهم في اليوم التالي مباشرةً.



11سبتمبر 2001

حتى ذلك اليوم كنا قد أكملنا العشرين يوماً تقريباً.. كانت تلك الأيام بمثابة شهر العسل، فقد كانت الوجوه مرحبة (Hello...) تسمعها من كل عامل أو موظف، والابتسامات تتوزع (Hi ...) من كل شخص تقابله أو تتعامل معه دون قيود في الممرات وفي الشوارع والمحلات التجارية، وعند نقاط المحاسبة في المحلات التجارية (cashier)، وحتى وإن كان هناك بعض الاستغراب من بعض الريفيين (المزارعين) عند رؤية نسائنا وهن محجبات. إلا أن المعاملة يعلوها الاحترام والتقدير خصوصاً عند مناقشتهم وإخبارهم أن ذلك راجع لتعاليم ديننا الحنيف الذي يأمرنا بذلك دون تقيد بزمان أو مكان. ومن الشواهد على ذلك التعامل الحسن والراقي أنه عند إدخالي لأبنائي المدرسة الأمريكية طلبت منهم أمرين اثنين:

الأول: يتعلق بالأكل، حيث كانت المدرسة تقدم وجبتين ـ وجبة إفطار، ووجبة غذاء فطلبت عدم تقديم أي وجبة لأبنائي يوجد بها لحم خنزير أو مشتقاته، فما كان منهم إلا الاستجابة مع نصحي أن يكون ذلك خطياً، وأن يوضع في ملف كل طالب منهم، لكي يؤخذ الأمر بجدية وتتم المحاسبة إذا حدث خلاف ذلك.

الثاني: كان أيضا في المدرسة، فقد كان لدي طفلتان في المستوى الخامس والسادس وكانت طرق التدريس تختلف عما اعتادوا عليه في السعودية، فالفصول الدراسية لم تكن تقليدية حيث

كان الفصل ينقسم إلى مجموعات ويجلس الطلاب على طاولات مستديرة. وفي أول يوم دراسي لهم ذهبت أنا ووالدتهم معهم، وجاء توزيعهم في فصلين مختلفين، وعندما تفقدنا أماكنهم وجدنا أن إحداهن كانت تجلس ضمن مجموعة بنات، فحمدت الله، وعند الانتقال إلى الفصل الثاني لابنتي الثانية وجدت أن المجموعة التي تجلس ضمنها ابنتي يوجد فيها صبي، عندها طلبت من المدرسة أن تقوم بتبديله بطالبة، عندها سألتني: لماذا؟ وهل ذلك بسبب الدين؟... فأجبتها: نعم، هذا ما يأمرنا به ديننا الحنيف، فما كان منها إلا أن لبت الطلب بكل رضىً ودون امتعاض واحترمت طلبي.

أعود إلى العشرين يوماً التي مرت علينا منذ أن وصلنا إلى كاربنديل، فأقول إنها مرت سريعة، وقد كانت مليئة بالأحداث التي شغلتنا حتى عن تأمل تلك المدة، ومن ثم مقارنتها مع الأيام التي تلتها، فقد كانت الدراسة هي الهم الكبير، علاوة على هم الاستقرار والاطمئنان على الأهل ودراسة الأبناء وكذلك بعض المشكلات التي تطرقت لها عند وصولي إلى كاربنديل.

ولكن كم هو محظوظ من يجد في بلد الغربة إخوة أعزاء يعينونه على الحق ويقفون بجانبه ويشدون من أزره، ويتنافسون على الوقوف إلى جانبه وعلى الدعم المعنوي واللوجستي الذي لا يستطيع أن يقول فيه أي شخص إلا أن إخوته هم من وقفوا بجانبه.. ولكي أكون أكثر

دقة وإنصافاً، لم أحس ولاسيما في تلك المدة ببعد كل من (سلطان وحمدان وبندر وعقاب) وهم أشقائي وذلك لوجود أشقاء لي هنا لم تلدهم أمي. كنت دائماً أتذكر كلام معلمي حفظه الله ـ والدي العزيز ـ حينما كان يقول لي دائماً: (يا ولدي ابنِ لك أو خلِّ لك في كل وادٍ حصناً)، والحصون أو القلاع وكلنا نعرفها، تعطيك الحماية والشعور بعد الله سبحانه وتعالى بأنك في أمان. نعم، فقد كان كل من (أبو مبارك وأبو عادل وأبو البراء وأبو عبد الله العيسى وأبو يزيد وأبو عبدالعزيز، وقد لحق بنا الأخ أبو محمد وهو حبر من أحبار الرياضيات المعاصرة) هم حصوني.. هم من وقف في البدايات معي.. هم من استقبل.. هم من رحب.. هم من ساند، وهذا فضل من الله في أن يمنَّ عليَّ بتلك الصحبة الطيبة. هنا لا أنسى بعض الإخوان العرب والمسلمين في تلك المدينة الصغيرة، ولكن حصوني هم من كان لهم الفضل عليَّ بعد الله سبحانه وتعالى. ولعلمي التام بأنهم لا يحبذون هذا الإطراء فقد كانوا يتعاملون بدافع من دينهم وعاداتهم وتقاليدهم الأصيلة، ولو ذكرت كل ما قدموه لي ولعائلتي لما كفاني مجلدان من النوع الفاخر والفاخر جداً.

في صبيحة يوم 11 سبتمبر... كان لدي محاضرة بالجامعة الساعة التاسعة صباحاً.. فاستيقظت الساعة السادسة صباحاً تقريباً، وتأهبت كالمعتاد للخروج من المنزل في الثامنة والنصف، وذلك لقرب الحي الذي أسكن فيه من الجامعة. ولما وصلت إلى الجامعة وتحديداً قرب المبنى الذي تقام فيه المحاضرة بحثت عن موقف للسيارة وقد

استغرقت مدة عشر دقائق أبحث وأنتظر لعل أحد الطلبة يخرج فآخذ مكانه.. عندها رأيت إحدى الطالبات (أمريكية) تجري وتبكي بصوت عالٍ، فحاولت أن أسألها بلطف: هل تنوي الخروج من الموقف لكي أوقف سيارتي مكان سيارتها، إلا أنها بادرتني وقالت: هل رأيت ماذا حصل في مركز التجارة العالمي بنيويورك، إن صديقي يعمل هناك ولا أعلم ماذا حصل له، عندها أجبتها بأني لا أعلم ماذا حصل؟ ولكني سألتها عما حصل، فأجابت بأن المركز تعرض لهجوم بطائرات مدنية فانهار أحد المبنيين، ثم تركتني وجرت من أمامي.

عندها لا أعلم ماذا أصابني، ولكنني لم أتخيل حجم الأضرار، ولم أُعِر الأمر الاهتمام الكافي.. فأمريكا خصومها كثر في الداخل والخارج، وقلت لنفسي: ربما يكون حادثاً عابراً.

أفكار كثيرة ولكن حتى تلك اللحظة لم تحظَ مني باهتمام كبير، عندها أوقفت السيارة وذهبت إلى المحاضرة وفي الطريق رأيت الطلبة يتجمعون حول أجهزة التلفاز ويتبادلون الاتصالات عبر الجوال وكلٌّ يعطي تبريراته ورأيه حول ما حصل وبدأت أسمع بعض الكلمات النابية والموجهة... ذهبت إلى القاعة فوجدتها قاعاً صفصفاً، وعندما سألت أحد المارة عن الطلاب، قال لي إنهم كلهم في المعامل (laps)، يستمعون إلى الأخبار عبر قناة الـ (CNN)... ذهبت إليهم لأرى وأسمع معهم، عندها أخذت (head phone) وبدأت أتنقل بين القنوات أسمع التحليلات وأرى الدمار.. فإذا المباني تسقط الواحد تلو الآخر.

عدت إلى البيت وكانت الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وعندما دخلت البيت لم يكن قد وصل الخبر إلى الأهل، فأخبرت أم عبد الله عما حدث وبدأنا في متابعة الأخبار عبر القنوات الإخبارية التي كانت تحلل وتتوقع من الفاعل إلى أن ظهر من تبنى ذلك الحادث.



مشاهد أخرى

المشهد من نيويورك ومن بعض المدن الأخرى حسب ما كانت ترويه وسائل الإعلام وحسب رواية بعض العرب والسعوديين المتواجدين



هناك سواء للدراسة أم للعمل. ففي إحدى القاعات بكلية إدارة الأعمال بجامعة كولومبيا في نيويورك جلس الطلبة يحاولون التركيز مع أستاذة المحاسبة، بينما كانت عقولهم وأنظارهم مركزة على شاشات الإنترنت التي أمامهم من خلال أجهزتهم الشخصية يتابعون ما يحدث في الجزء السفلي من جزيرة مانهاتن. وصاح أحدهم: لقد سقط البرج الأول.. وبعدها بدقائق صاح مجدداً: لقد سقط البرج الثاني!!

عدت إلى البيت وكانت الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وعندما دخلت البيت لم يكن قد وصل الخبر إلى الأهل، فأخبرت أم عبد الله عما حدث وبدأنا في متابعة الأخبار عبر القنوات الإخبارية التي كانت تحلل وتتوقع من الفاعل إلى أن ظهر من تبنى ذلك الحادث.



مشاهد أخرى

المشهد من نيويورك ومن بعض المدن الأخرى حسب ما كانت ترويه وسائل الإعلام وحسب رواية بعض العرب والسعوديين المتواجدين



هناك سواء للدراسة أم للعمل. ففي إحدى القاعات بكلية إدارة الأعمال بجامعة كولومبيا في نيويورك جلس الطلبة يحاولون التركيز مع أستاذة المحاسبة، بينما كانت عقولهم وأنظارهم مركزة على شاشات الإنترنت التي أمامهم من خلال أجهزتهم الشخصية يتابعون ما يحدث في الجزء السفلي من جزيرة مانهاتن. وصاح أحدهم: لقد سقط البرج الأول.. وبعدها بدقائق صاح مجدداً: لقد سقط البرج الثاني!!

لحظات وجاءت التعليمات داخل الجامعة بإخلاء الأدوار العليا في المبني والنصح ببقاء الجميع في الدورالأرضي لمتابعة تطورالأحداث من خلال الشاشات التليفزيونية. وبدأت القنوات التلفازية الواحدة تلو الأخرى، تربط الاتصال المباشر مع نيويورك. وفي الساعة التاسعة وثلاث دقائق، صدمت طائرة ثانية البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي، ووقع الاصطدام في الوقت الذي كانت فيه القنوات التلفازية تنقل صور البرج الجنوبي وقد اندلعت فيه النيران حيث أمكن تصوير المشهد من زوايا متعددة، وتمت متابعته مباشرة من قبل ملايين المشاهدين، واتضح أن على الولايات المتحدة أن تواجه عمليات إرهابية على أراضيها.

وخوفاً من اعتداءات بسيارات مفخخة، فقد أغلقت سلطات ميناء نيويورك حركة السير على الجسور والأنفاق الواقعة في حي مانهاتن، خشية أن يقوم كوماندوس يوجد على الأرض بعملية أخرى. وعند الساعة التاسعة وأربعين دقيقة، أخبرت شرطة نيويورك السكان بأنه من المحتمل أن تقوم طائرات أخرى بضرب أبراج أخرى. وعند الساعة العاشرة، وبينما يجري الإعلان عن هجوم جديد على البنتاغون، انهار البرج الجنوبي لمركز التجارة العالمي، وظهر ذلك في بث مباشر على شاشات التلفاز. وفي العاشرة وتسع وعشرين دقيقة، انهار بدوره البرج الشمالي وغطت مانهاتن سحابة من الغبار الكثيف. وبدأ الحديث عن حصيلة محتملة من عشرات الآلاف من القتلى. فقد أفرز احتراق الطائرة درجة حرارة قصوى لم تصمد معها الهياكل المعدنية للبرجين.

أغلق حاكم نيويورك ــ جورج بتاكي ـ كل المكاتب الرسمية في ولايته، وأخبر الحرس الوطني بالقول: (إن لدي أصدقاء داخل هذين البرجين وإنني أفكر فيهم وفي ذويهم وسنبذل قصارى جهودنا لنمد يد المساعدة لكل المتضررين من جراء هذه المأساة). وعند الحادية عشرة والدقيقتين، قام عمدة نيويورك ـ رودي جولياني ـ بالتحدث بالهاتف لسكان مدينة نيويورك، عبر إذاعة «نيويورك وان» قائلاً: «إلى أولئك الذين لا يوجدون في منهاتن في هذه اللحظة، أقول ابقوا في منازلكم أو في المكاتب. وإذا كنتم داخل مركز الأعمال تحركوا بهدوء نحو الشمال خارج منطقة الهجوم حتى لا تعرقلوا عمليات الإغاثة، علينا أن ننقذ أكبر عدد ممكن من الأشخاص».

في هذه الأثناء اخترق جمع غفير يقدر ببضع عشرات الآلاف من الأشخاص الجسور التي تم إغلاقها سلفاً أمام حركة المرور، لكي يفروا من مانهاتن.

وعند الساعة الخامسة والعشرين دقيقة، انهار المبنى رقم 7 من مركز التجارة العالمي، ذلك الذي لم تصطدم به الطائرتان، دون وقوع ضحايا. وقيل إن المبنى تضرر من جراء انهيار البرجين السابقين. وبدورها قد تكون العمارات المجاورة قابلة للانهيار بالتتابع مثل قطع الدومينو. عندها قامت بلدية نيويورك بطلب الحصول على ثلاثين ألف كيس للموتى وذلك استعداداً لحدوث المتوقع.

وبعد الظهر ثم في الأيام التالية، أعيد ترتيب سيناريو الهجوم: فقيل إن مجموعة من الإسلاميين، من شبكة بن لادن، قاموا بتنظيم أنفسهم على شكل فرق من خمسة أشخاص مسلحين بآليات حادة قاطعة، وقاموا باختطاف طائرات ركاب بعدما تم تحريضهم على ذلك، إذ جاؤوا للتضحية بأنفسهم بتوجيه طائراتهم الانتحارية للاصطدام بالبرجين.



للوهلة الأولى تبدو الوقائع غير قابلة للنقاش، ومع ذلك فقد بدأت تظهر بعض التناقضات. فقد تم تحديد نوعية الطائرتين من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي على أنهما طائرتا بوينغ 747، الأولى تابعة لأمريكان إيرلاينز (الرحلة رقم 11 الرابطة بين بوسطن ولوس أنجلوس)، والثانية تابعة ليونايتد إيرلاينز (الرحلة رقم 175 الرابطة بين بوسطن ولوس أنجلوس)، وقد اعترفت الشركتان بفقدان هاتين الطائرتين.

وبفضل بعض الركاب الذين كان يتوافر لديهم أجهزة هاتف محمول، إذ قاموا بالاتصال بأقربائهم خلال العملية، فعرفنا أن قراصنة الجو جمعوا الراكبين في مؤخرة الطائرة، كما جرت العادة في هذه الحالات، ليتم عزل مقصورة القيادة. وقد سهل من هذه

العملية العدد القليل للركاب: 81 راكباً على الرحلة رقم 11، و56 على الرحلة رقم 175، في الوقت الذي تتسع فيه كل طائرة منهما لـ 139 راكباً.

وحسب المعلومات التي كشف عنها الركاب بواسطة الهاتف، فإن الخاطفين كانوا يمسكون فقط بالسلاح الأبيض، باستثناء الطائرة التي كانت تقوم بالرحلة الأولى التي انفجرت أو بالأحرى تم تفجيرها فوق بنسيلفانيا. وبعدما أغلق المجال الجوي الأمريكي بناء على توجيهات عليا، وهبطت كل الطائرات التي كانت تحلق فوق أمريكا، وأخضعت لعملية تفتيش من طرف مكتب التحقيقات الفيدرالي، وتم العثور في اثنتين من هذه الطائرات، الرحلة رقم 43 (نيفارك ـ لوس أنجلوس)، والرحلة رقم 1729 (نيفارك ـ سان فرانسيسكو) على آلات حادة قاطعة متشابهة، مخبأة تحت المقاعد. وأفاد المحققون بأن كل قراصنة الجو يستعملون هذا النوع من الآلات الحادة القاطعة. وبعد ذلك، عثرت وكالة الاستخبارات المركزية في منزل كان يقيم فيه أسامة بن لادن في أفغانستان، على أكياس بداخلها آلات حادة قاطعة، مؤكدة بذلك أن الإسلاميين تلقوا تدريباً على استعمالها.

ومع ذلك كان من الصعب تصور أن مدبر العمليات قد أغفل تزويد رجاله بأسلحة نارية، وبذلك يكون قد غامر بتعريض عمليته للفشل جزئياً أو كلياً! ومما يدعو للاستغراب حقا، هو أن المرور عبر أجهزة المراقبة في المطارات بمسدسات تم تكييفها، أسهل من المرور بآلات حادة! وبالتالي فإن المسألة معروفة لدى الغربيين، بأن يكون العرب

وبالتالي الإسلاميون هم المتهمون الأوائل، وسمعنا من التبريرات الساذجة ما يدعو للاستغراب فقد قالوا بأن المسلمين يحبون نحر ضحاياهم. ولذلك فإن الآلات الحادة القاطعة تشير ضمنياً إلى أن قراصنة الجو كانوا جميعاً عرباً أو مسلمين، أرأيتم كيف يفكرون؟ ولكن.. لو فرضنا جدلاً بأن هذا الأمر فيه شيء من الصحة فإنه وحسب منهجيتهم الفكرية، أمر يتعين إثباته، وأكرر حسب منهجيتهم الفكرية والقانونية فإن المتهم بريء حتى تثبت إدانته وليس مداناً حتى تثبت براءته!

وعوداً إلى وصف الحادث، وقبل الوصول إلى نيويورك، كان على الطائرتين أن تخفضا كثيراً من ارتفاعهما بشكل يجعل من يقود الطائرتين ينظر إلى البرجين من مستوى أفقي وليس من أعلى، فمنظر المدينة من أعلى يشبه خريطة تختفي فيها كل العلامات البصرية التي يمكن الاستهداء بها. ولضرب البرجين كان ينبغي على الطائرتين أن تتمركز على ارتفاعٍ منخفض جداً.

ولم يضبط قائدا الطائرتين الارتفاع الذي ستتم منه العملية فقط، ولكنهما أيضا جعلا الطائرتين تتموقعان جانبيا. ومن الجدير بالذكر أن عرض البرجين التوأمين يبلغ 63 متراً و70 سنتيمتراً. وتبين صور الفيديو أن الطائرتين ضربتا هدفيهما على مستوى المركز بكل دقة، وبسرعة متوسطة (700 كلم/ ساعة).. مع العلم بأن الطائرة تقطع هذه المسافة في ثلاثة أعشار الثانية وبالتالي كان يكفي تحول بسيط من 55 متراً و65 سنتمتراً لتخطئ الطائرتان هدفيهما.. فالهامش الضيق للتحكم في قيادة هذه الطائرات يشكل تحدياً حتى بالنسبة لربابنة الطائرات المحنكين، فما بالك في من هم في طورالتدريب؟

وقد نشر في صحفية الوطن السعودية بتاريخ (1422/12/23 هـ) رأي المختصين والمحترفين وأصحاب الخبرة والمهنة، إذ ذكرت الصحيفة أن مئتي طيار مدني وحربي أمريكي التقوا في حلقة مناقشة حول الحادث، وأكدوا من خلال تلك المناقشات أن هذه الرواية غير ثابتة لأسباب عديدة وهي:

1. العثور على أدلة في أماكن سقوط الطائرات، مثل وجود بعض الكتيبات للطيران باللغة العربية ومصاحف، فضلاً عن جوازات سفر عربية.. وهو شيء لا يمكن حدوثه أو تصديقه حيث إن انفجارًا بمثل هذه القوة لا يبقي على بعض الأوراق والمصاحف وجوازات السفر سليمة وواضحة بالدرجة التي تمكن من قراءة اللغة المكتوبة بها أو حتى تفسيرها.

2. أجمع الجميع على أن عملية بهذه الدرجة من البراعة والدقة لا يقوم بها إلا طيارون على مستوى عالٍ جدًّا من الكفاءة والخبرة مما يتنافى تمامًا مع وجود كتيبات لتعليم الطيران في سيارات قريبة من منطقة سقوط الطائرات، وماذا ستفيد هذه الكتيبات لشخص يقود الطائرة بسرعة تقترب من ألف كيلومتر في الساعة، إذ يريد وهو على هذا الارتفاع التصويب نحو هدف بعينه؟ هذه العملية كانت بحاجة إلى كفاءة عالية جداً لا تفيد معها أشرطة الفيديو أو كتيبات تعليم الطيران.

3. أهم النقاط التي تدحض الرواية الأمريكية هي أنه لا بد أن يعرف الجميع أن الرموز السرية للطيران فوق هذه المناطق التي اتخذت كأهداف لا يعرفها إلا مجموعة صغيرة جدًّا من البشر، لأنه يتم تغيير هذه الرموز بصفة مستمرة عن طريق جهاز المخابرات المركزية الأمريكية.

4. صعوبة ـ بل استحالة ـ الهروب من كل خطوط الأمن، ولاسيما حينما نعرف بوجود فرقة من الطائرات المقاتلة في حالة استنفار كامل ودائم للإقلاع وذلك لاعتراض أي طائرة تحلق فوق منطقة كولومبيا.. فلماذا لم يتلقوا أي أمر للتحرك؟ خصوصًا أننا يمكننا القول بأن كل متر مربع من منطقة سقوط الطائرات مؤمن بالأمن العسكري وجهاز المخابرات المركزية... وعلى الرغم من ذلك لم يحدث شيء! وهو الأمر الذي لا يمكن لأية مجموعة انتحارية أن تتنبأ به.

5. وهذه نقطة حاسمة... الأمريكان منشغلون دائمًا بموضوع اختطاف الطائرات، لذلك ابتكروا نظامًا يسمح بقطع جميع الدوائر الإلكترونية للطائرة المختطفة وهي في الجو، عن طريق جهاز تحكم يمكنه فرض خط معين على الطائرة المختطفة.. وهذه العملية تتم عن طريق القاعدة الأرضية أو عن طريق طائرات (الأواكس). لهذه الأسباب يمكننا توقع أن مقاعد الطيارين كانت خالية تمامًا وقت انفجار الطائرات.

وعودة إلى أحداث 11 سبتمبر.. فقد كان ذلك اليوم من الأيام الصعبة والغريبة على تلك المدينة، حيث أغلقت خلالها منافذ الدخول والخروج من مدينة نيويورك وإليها، وتم منع مرور السيارات على الجسور، وتوقفت أغلب قطارات المترو (الوسيلة الرئيسة للانتقال) وارتفعت أصوات سيارات الإسعاف والمطافئ التي تتجه أغلبها لمنطقة الحادث المشؤوم، كما ساءت وسائل الاتصال التليفونية ليس فقط بسبب حمى المكالمات للاطمئنان على الأهل والأقارب، ولكن أيضا بسبب تدمير السنترال الرئيس لشركة فرايزون في مركز التجارة العالمي... وساد الجميع حالات من الذهول والهلع في بعض الأحيان. ومع كل ذلك فإن الحياة لم تتوقف، حيث عادت الدراسة في اليوم التالي مباشرة، كما عاد الجميع لأعمالهم باستثناء نشاط البورصة الذي توقف خمسة أيام بعد الحادث، واستعانت الجامعات والمدارس والشركات والهيئات بالأطباء النفسيين لمحاولة علاج آثار الصدمة التي لم يرَ هذا الجيل من الأمريكيين مثلها من قبل. ولكن الأمريكان استيقظوا في اليوم التالي وهم يدركون أن الحياة اختلفت، وأنهم قد أصبح لهم عدو لا يعرفونه ولم يكونوا يعيرونه اهتماماً كبيراً. ومن خلال هذا الحادث تكونت بطولات واستفاد بعضهم، بينما خرج البعض الآخر خاسراً.. وفي مقدمتهم العرب والمسلمون الموجودون في الولايات المتحدة.



رأي الوسطية في أحداث 11 سبتمبر

لقد ابتدأت الأحداث بالتفجيرات المروعة التي وقعت في أمريكا وتحول العالم إلى هرج ومرج وكأنما فقد الناس عقولهم فلا منطق ولا عقل ولا تفكير، وإنما.. تهم، وتهديد، ووعيد.. فالجميع مذهولون إذ فوجئوا بما حدث وسلموا بكل ما قيل. والحديث عن هذه القضية طويل كثير التشعبات ولكن ما نستطيع قوله في البداية هو أن الكثير من علماء المسلمين إضافة إلى زعمائهم وحكامهم بادروا إلى استنكار الحدث... إما لعدم مشروعيته أصلاً في نظر بعضهم، وإما لما يترتب عليه من مفاسد ومضار للمسلمين في نظر آخرين، وإما لدفع قالة السوء ومنع تشويه صورة الإسلام عند غير المسلمين، وإن كان جمهور وعوام المسلمين في كل مكان قد ابتهجوا وتشفوا في رد فعل عفوي تجاه أمريكا ولما يتلقاه المسلمون منها في كل مكان وبالذات في فلسطين على يد ابنة أمريكا المدللة... إسرائيل.

ولعل لغتنا العربية تزهو بكل ما هو راقٍ ومفيد، وفيها من البلاغة ما يغني كل متمعن لها ودارس عن جميع اللغات التي ينعتونها بأنها لغات حية، بينما لغتنا الجميلة لغة القرآن هي لغة ميتة وغير علمية! وعندما يردد حكماء العرب مقولة معينة فإنك لا تجد ما يبعدك عن ترديدها ولا ما يمنعك من الاستدلال بها. وقد قال حكماء العرب: نعوذ بالله من الحديث المعاد. وهنا استعاذة كاملة من الحديث المعاد

لأنه شاهد على أشياء كثيرة ومؤشر إلى انعدام القدرة على الابتكار والإبداع والإنشاء. فنحن لا نشك في صدق من أدلى بدلوه وبراءة من كتب وتبحر في قضية تمس الإسلام والعالم الإسلامي، وهي الإرهاب والتشدد الذي انتشر عند بعض شبابنا. ولكن ليس مهماً أن نسمع آراء أو أن نقرأ وجهات نظر كل من كانت لديه المقدرة على الكتابة أو أن نتحدث إلى الناس سوى عن طريق وسائل الإعلام المرئي منها والمسموع والمقروء. الأهم من وجهة نظري هو أن نسمع قولاً فصلاً، وقد قال علماؤنا قولاً فصلاً في هذا الموضوع. فقد بينوا بما لا يلتبس على ذي عقل، أن ما يحدث من إرهاب لا يمت للدين أو العقل بسبب أو نسب، بل الدين من تلك الأعمال المشينة براء، براءة الذئب من دم يوسف.

ولكن ما أريد قوله أنّه لا حاجة لربط هذا الإرهاب الذي وجد له أوكاراً في بلادنا بأي سبب ديني أو اقتصادي أو اجتماعي أو تعلمي أو تربوي أو حتى سياسي، وألاّ نقوم بترديد ما يقوله الغرب. فالإرهاب مرض ظهر كما ظهرت بعض الأمراض التي فاجأت العالم ولم يجدوا لها أمصالاً تقضي على تلك الفيروسات التي أصابت بني البشر، تلك الأمراض التي تفشت خلال العقدين الآخرين، منها على سبيل المثال الإيدز، جنون البقر، أنفلونزا الطيور...... فالإرهاب لا ينفع معه المسكنات والمهدئات، بل هو جريمة تعاقب عليها كل الشرائع والقوانين. والقضاء عليه يستلزم القضاء على بيئته، تلك البيئة التي سهلت وجود مثل هذا المرض.

ومن المحــزن أن يربط بين الإرهـاب و الإســلام، ووصف الإرهابيين بأنهم إسلاميون متشددون، أو وصفهم بأنهم خوارج، وأنا لا أجد صفة التدين أو الإســلام الحق عند أولئك الشبـاب الذين ينتحـرون ويقتلون غـيـرهم بالدم البـارد، فـالإرهـابي المسلم يشبـه الإرهابي النصـراني أو اليهودي أو حتى من لا دين له. وأجـزم أن الـربط بين الإرهـاب والدين إسـاءة بـالغـة إلى الدين. فـالدين السـمـاوي أياً كـان لا يتبنى مـثل هذه الأفـعـال الشنيـعـة. فليس بعـد الكفـر ملة. فطالما أن من يقـوم بهـذه الأعـمال قد ثبت عند علمـاء المسلمين وجمهورهم أنه لا يمثل الإسـلام والمسلمين، إذن مـا الداعي أو الفائدة مـن تذكيـرهم بأن عملهم يقـودهم إلى النار لا إلى أحـضـان الحـسـان في روضـات الجنان؟ هـل أعـرنا عقولنا لنصدقهم بأنهم ينتحرون ليدخلوا الجنة؟ وصدق الشاعر:

أســــــمـع فـي قـلبـي دبيـب المنـى

وألمح الشـــبـــهـــة في خـــاطري

أليس الإسـلام قد أنزل العـقوبات كعقوبة القـتل العـمد، وعقـوبة الردة؟ وهل القـاضي يسأل القـاتل العـمـد عن الأسـبـاب الاقتصـادية أو التربوية أو السياسية لما حدث؟ فمهما يكن السبب فلابد للقاضي إذا تبين له الجرم أن يحكم بالعقوبة دون الركون إلى تبريرات وتفسيرات. ولو فـعـل لاخـتـل توازن المجـتـمع وســادت الفـوضى، وأنا في نظري المتواضع أرى أن الإرهـاب لا يقتل فرداً أو فردين عمداً، بل يقتل جمعاً، ويروع أمة، ويهدم ويفسد.

ثمة أمر آخر.. نحن نسير دون أن نعي خلف الإعلام الغربي، وربما خلف المشرع الغربي عند بحثنا عن الإرهاب، أنا لا يهمني إذا لم يتفق المشرعون والحكماء والمتخصصون على تعريف محدد للإرهاب، ولا يهمني كثرة البحوث والتقارير والكلام المعاد، و لكن ما يهمني هو أن الإرهاب بكل المقاييس العقلية والشرعية جرم. فإن كان الأمر كما ذكرت، إذاً ما الفائدة في بسط القول وترديده؟ والله ما أضر بأهل أثينا وأضعفهم وهزمهم أمام عدوهم (أهل إسبرطة) إلا إضاعة الوقت في المناقشات السفسطائية.

ما يهمني أننا في المملكة، حكومة وشعباً ومؤسسات دينية ومدنية، وفوق هذا عقل زرعه الله في رؤوسنا، نعترف بأن ما نواجهه إرهاب بكل المقاييس، وأن علينا مواجهته بقوة وبأس شديدين، دون الالتفات إلى رأي هنا أو هناك ممن لا يرى ما نراه، ولكل أمة لباس، ولباسنا التقوى، والسلم، والأمن، ودثارنا الصدق والقوة والعزيمة. وقبل الدخول في استكشاف آفاق ما بعد 11 سبتمبر 2001، أجد من المفيد بيان رأي الوسطية في هذه العمليات، وألخّص فيما يأتي أهمّ المسائل المتعلّقة بهذا الموضوع:

أولا: الدعوة إلى الله تعالى هي مهمّة جميع الرسل: ولمّا كان محمد رسول الله ﷺ هو آخر الرسل، كانت رسالته موجّهة إلى جميع بني البشر منذ بُعث إلى أن تقوم الساعة. وبعد وفاته انتقلت هذه المهمّة إلى جميع المسلمين، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ (سورة آل عمران: 104)، ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾**﴾ (سورة فصّلت: 33).

إنّ من أهمّ أخلاق الدعاة الرفق بالناس، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ومقابلة السيّئة بالحسنة، وبذل الجهد للمساعدة فيما يحتاجونه من أمور الدنيا، والتواصل معهم في كلّ معروف، وغير ذلك ممّا كثر فيه التوجيه القرآني والحديث النبوي الشريف، وظهرت فيه نماذج رائعة على يد الدعاة إلى الله في جميع العصور.

وعلى ذكر الدعاة فليس من الواجب أن نكون نحن الطلاب ـ أي الموفدين إلى الخارج ـ كلنا دعاة... فالدعوة لها شروطها وأسسها، ولكن ما يجب هو أن يعكس الطالب صورة المسلم الصحيحة في تعامله وفي منهجه وعلاقته، مع الابتعاد عن كل ما يسيء إلى المسلم من قول وفعل. وأذكر هنا موقفاً حصل لي شخصياً، فقد كنت في بيتي في مدينة كاربنديل عند الساعة الواحدة ظهراً، وإذا بطارق على الباب ففتح له أحد أبنائي، عندها جاء وذكر لي بأن رجلين يسألان عني (ولا أخفيكم فقد توقعت أنهما من المباحث الفيدرالية) عندها استعنت بالله وتوجهت إليهما فإذا بي أجد شابين طويلين يرتديان لباساً أنيقاً.. فقمت بتحيتهما فطلبا مني أن يتحدثا معي خمس دقائق، عندها ازداد خوفي، ولكن.. لم يكن مني سوى الاستجابة، وطلبت منهما أن يمهلاني ثواني عدة كي أعد المكان لاستقبالهما، عندها أخبرت الأهل بأن لدي ضيوفاً. جلسا.. حيياني مرة ثانية

وسألاني عن هويتي ومن أين أنا، ثم بدأا يتحدثان عن الدين... ما لبثت أن استوعبت وعرفت أنهما مبشران يدعوان إلى التنصر. في الواقع استغللت الموقف بعد أن أعطوني فرصة للتحدث وقلبت الطاولة وقمت أتحدث عن الدين الإسلامي وسماحته ثم طلبت من الأهل أن يعدوا لي مجموعه من النشرات والكتيبات بالإضافة إلى قرص ممغنط يحتوي على معلومات عن الدين الإسلامي، عندها دعوت أبنائي (عبد الله وسلطان) وطلبت منهما أن يعرفا باسميهما مع تقديم تلك الكتيبات التي تعرف بالإسلام والمسلمين بصورة طيبة (كانت تلك الكتيبات قد حصلنا عليها من السفارة السعودية جزاهم الله عنا كل خير)، لقد أتيا لهدف معين ولكني انتهزت الفرصة.. وهاهما قد خرجا بصورة أعتقد أنها طيبة مع دعوة للقراءة ومعرفة هذا الدين الحنيف.

ولعل الشيء بالشيء يذكر.. ففي سنة 2003م قرأت قصة جميلة، تناولتها صفحات الإنترنت وتحدثت عنها الصحافة الكندية خلال ذلك العام وسأحاول سرد قصتها مترجمة... تقول تلك المرأة عن نفسها وعن رحلتها إلى النور: «الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام والإيمان وبيّن لنا الطريق الصحيح لعبادته، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أختكم أمَة الله، كندية مسلمة، أعمل بفن الزجاج الملون (تلوين الزجاج).... الاسم: أمة الله ـ حالياً ـ. الجنسية والإقامة: كندا.. السن: 43 سنة. بدأت رحلتي مع الإسلام منذ سنتين أو أكثر قليلاً وبالتحديد في إحدى ليالي فبراير عام 2003 م، عندما كنت بمفردي بمنزلي، جال بذهني حديث النفس عن الجنة والنار ومثوى الإنسان ورحلته في الدنيا، ومأواه في نهاية الأمر، وقد فكرت أنه من

المحتمل أن يعيش الإنسان قليلاً، لذا فعليه أن يقدم لآخرته، فإن على الإنسان أن يعطي ما يملك من طاقة الخير للآخرين، كما أن عليه أن يعبد الله الإله الخالق، ثم بدأت أبكي وأصلي صلواتي المسيحية ودعوت الله أن يوفقني لأن (أخدمه)، فيما يتبقى من عمري، فعزمت من تلك اللحظة أن أكون مسيحية صالحة، وفكّرت في دراسة الإنجيل، وجعل صلتي أكثر بالكنيسة، ثم وبعد بكاء طويل وإحساس بالقرب من الله ذهبت لفراشي.

وبعد هذه الحادثة بيومين دق جرس الباب، ولم أكن قد سمعت عن الإسلام بعد، ولكنني كنت أسمع عن المسلمين وخصوصاً بعد أحداث 11 سبتمبر، كما لم أقابل مسلماً أو مسلمة من قبل... رأيت أمامي امرأة مسلمة ترتدي الحجاب، واعتقدت أن هذه الملابس من عادات وتقاليد مجتمعها وثقافته، وقد طلبتْ زجاجاً ملوّناً بتصميمات إسلامية، وبعد أن تركتني كنت بحاجة لمعرفة التصميمات الإسلامية لكي أتمكن من تصميم ما طلبت ولذلك بحثت عنها في الإنترنت.

وعندما كتبت كلمة الإسلام في مؤشر البحث، ظهرت لي مواقع عدة، فبدأت أقرأ عن الإسلام، ونسيت التصميمات!! وبدأت أبحث أكثر وأتعلّم أكثر، ولاسيما أن كل المواقع والقنوات التلفزيونية تتحدث عن الإسلام خلال تلك المدة ـ بكثير من السلب وقليل من الإيجاب. وبدأت أحس أنه الدين الصحيح، وآمنت بأن هناك إلهاً واحداً (الله)، ولكنني لم أكن أسمع من قبل عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. شعرت بمتعة جارفة وسعادة غامرة، ورغبة في قراءة المزيد..

وهكذا، لم أستطع التوقف. وعلى الفور اشتريت العديد من الكتب ونسخة من القرآن الكريم وترجمات له، فقربني ما قرأت من الإسلام ولله الحمد. وما إن مر شهر مايو من العام نفسه إلا وكنت قد اتصلت بأحد المساجد في كندا، ومع بعض الخوف ذهبت وأشهرت إسلامي ونطقت بشهادة الحق. وقابلتني هناك إحدى السيدات المسلمات لها نشاط في الدعوة، وأعطتني تفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم وكتاباً لشرح العقيدة الإسلامية، فخرجت من المسجد وكأنني خلقت من جديد.. مسلمة بلا أي خطايا أو ذنوب، إذاً هي فرصة لكي أعيش على طاعة الله وأن أعبده حق عبادته.. فيا لروعة الوصول إلى الحق ويا لعظمة هذا الدين! فمنذ الوهلة الأولى لدخولي في الإسلام، شعرت بأنني قد تحملت تبعات جديدة ومسؤوليات عظيمة نحو نفسي أولاً، ونحو غيري ثانياً، لإنقاذهم من غياهب الظلمات، وهذه رسالة مني لفتيات الإسلام: أين أنتن من التطبيق الصحيح للإسلام والدعوة المتفانية إلى الله تعالى؟

بدأت أتعرّف على فرائض الإسلام، فبدأت أتعلم الوضوء والطهارة والصلاة والحجاب الشرعي للمرأة المسلمة، وواظبت على الصلاة منذ دخولي الإسلام ولله الحمد والمنة. كنت أعيش بمدينة صغيرة ولذلك عندما بدأت الخروج وأنا أرتدي الحجاب كنت أجذب انتباه الآخرين، وأتذكّر أنني كنت أرتديه وبعض شعر رأسي ظاهراً وكنت أضع بعضاً من أحمر الشفاه.

في البداية انتابني الخوف من كلام الناس في مدينتي، وعندما عدت إلى المنزل، فتحت كتاب (التعاليم والعقيدة الإسلامية)، وقرأت فيه أن الإنسان عليه ألا يخاف إلا الله سبحانه وتعالى، وعندما قرأت ذلك غمرتني السعادة لأنني عرفت أنه يجب علي أن أخاف الله وحده رب العالمين ولا أخاف لومة أحد من الناس، ومن هذه اللحظة ارتديت الحجاب كاملاً بالنقاب. ورغم أن الحياة في مدينة صغيرة ليس بها الكثير من المسلمين، إلا أن ارتداء النقاب يعتبر أمراً صعباً جداً، ويحتاج إلى كفاح، ولكني ولله الحمد استطعت القيام بذلك، لأنني أصبحت لا أهتم ببعض التعليقات السخيفة التي تسخر مني. فالحمد لله الذي اختارني وأعانني على أن أكون أمَة له، وأن أمثّل دينه الحنيف... الإسلام.

ومع شعوري بأنني أصبحت أمثّل الإسلام في قريتي، ازدادت المسؤوليات، فأمضيت وقتاً كثيراً في الدراسة. وفي آخر شهر يوليو التقيت مع مجموعة من الأخوات بناءً على دعوة تلقّيتها من الأخت التي كنت قد قابلتها في المسجد يوم نطقي بالشهادة، حيث أرسلت لي دعوة عبر البريد الإلكتروني لحضور مناسبة إسلامية، فحضرت والتقيت بأخت كانت في غاية الكرم، ووجّهت لي الدعوة لحضور بعض الاجتماعات الإسلامية بصحبتها. وبالفعل ذهبت واستمتعت كثيراً بتلك الاجتماعات، ولكنني وجدت أن هذه ليست هي الطريقة المثلى لتعلم الدين الإسلامي.

بدأت أسأل عن طلب العلم حتى وجدت عالماً من كبار المعلمين يدرِّس الشريعة، فانتظمت في الدراسة والحضور أكثر من عام حتى الآن (فدراسة الشريعة هي الأكثر أهمية بالنسبة لي). فتعلّمت عقيدتي عن طريق الأدلة النصّية الصحيحة، ولولا ذلك لوقعت في البدع، مثلي مثل كثير من المسلمين الذين التقيت بهم على الرغم من سلامة طويّتهم ووجود نية المساعدة لديهم، إلا أن هناك من كانوا يعلمونني الإسلام طبقاً لثقافتهم هُم، على ما فيها من بدع وأخطاء منتشرة بين أبناء المسلمين. لذا أنصح المسلمين في بقاع الأرض بتصحيح عقيدتهم أولاً لنشر دينهم بطريقة صحيحة، فمن فقد منهم هذا الجانب، فبالأحرى سينشر الإسلام مشوّهاً، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. فدرست العربية، وحفظت بعض سور القرآن الكريم، وأتعلّم الآن التجويد ولله الحمد والمنة... وإن كان تعلم اللغة العربية أصعب شيء قابلني. وبناء على إيماني بالمسؤولية نحو نشر الإسلام وأن هذا فرض عليَّ، بدأت بالدعوة عن طريق خلقي وأفعالي حيث تطوّعت بملجأ للمشردين بتورنتو ـ كندا، التي تبعد 45 دقيقة بالسيارة عن بيتي، حيث إنني المسلمة الوحيدة المتطوّعة في هذا المشروع. والحقيقة أن جميع المتطوعين هناك رحبوا بي، وقد أتاح لي تميّزي وارتدائي النقاب الفرصة لتوضيح سبب ارتدائي له، وأيضاً توضيح وحدانية الله تعالى والتحدث عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ.. ويعلم الله كم أصبحت سعيدة لنشر تعاليم الإسلام من خلال أفعالي الطيبة

تجاه المحتاجين، ما أثمر ولله الحمد ثمرات طيبة.. فأحد النزلاء بالملجأ ويبلغ من العمر 80 عاماً، اهتم بالإسلام وحضر معي إلى المسجد ثلاث مرات، وها قد دخل فرد آخر في الإسلام. وأصبح الكثير من النزلاء يعرفون الإسلام جيداً، بعد ما كانوا لا يعرفون عنه شيئاً. فبأشياء بسيطة جداً أستطيع أن أنشر الإسلام وسط المحتاجين من أمثال نزلاء الملجأ، من خلال العطف، وجُود النفس بالمستلزمات البسيطة كالبطّانيات أو الطعام أو القليل من المال، حتى دخل رجل ثانٍ في الإسلام بعد أن سأل عن تعاليمه، حيث أذكر دائماً تعاليم الإسلام للمحتاجين فور مساعدتي إياهم. ومن هنا بدأت تساعدني بعض الأخوات في هذا العمل الخيري بالإضافة إلى من أسلم من أبنائي. وفي الحقيقة أن الله تعالى منَّ علي وأكرمني بدعوة أهلي للإسلام، حيث إنني منفصلة عن زوجي، ونجحت في دعوة من معي من أبنائي في دخول الإسلام. وهاهو ابني البالغ من العمر 14 عاماً قد نطق بالشهادة ولله الحمد، وهاهي ابنتي الصغرى بحمد الله تصلّي معنا، وسوف ترتدي الحجاب إن شاء الله... وتبلغ سعادتي منتهاها عندما نصلي نحن الثلاثة معاً ونعبد الله سوياً. إلا أن ابنتي الكبرى لم تكن قد اعتنقت الإسلام بعد، ولكنني أعتقد أنها سوف تعتنقه إن شاء الله في يوم من الأيام. فكم كانت تقول إنها مسيحية، أما الآن فهي تقول إنها ليست كما كانت من قبل، وإنها الآن تؤمن بوحدانية الله وبخاتم الأنبياء ﷺ. ولي ولد يعيش مع والده وهو يرفض اعتناق الإسلام، ولكنه إن شاء الله سوف يسلم.

ودائماً أدعو له و للآخرين بأن يهديهم الله. أما عن والدي فله قصة أخرى أريد أن أنهي بها حواري هذا.. فوالدي أيضاً اعتنق الإسلام في آخر شهر يوليو، وكان من أكثر من عرفت تديّناً وحياءً.. كان يعبد الإله طوال حياته، ولكنه كان مشوّش الفكر، وهو أيضاً لم يكن يعرف أي شيء عن الإسلام ولا عن خاتم الأنبياء ﷺ، وقد وفّقه الله وهداه للإسلام ونطق الشهادة. وبعد أيام عدة ذهبت معه إلى الطبيب لنكتشف أنه مصاب بسرطان الدم. وبحلول يوم الأحد أصبح والدي مريضاً جداً ونُقل إلى المستشفى وتوفّي بعد 13 يوماً. الحمد لله توفّي بشكل طيب ـ أحسبه إن شاء الله قد نال حسن الخاتمة ـ فقد كان لا يستطيع الكلام ولكنه كان يداوم على التسبيح والتلفّظ بالشهادة، وكنت دائماً بجانبه، وعشت معه في غرفته، وكنت مداومة على تشغيل الآلة بالقرآن الكريم وقراءة القرآن له، ولحظة لفظه أنفاسه الأخيرة كان في ذكر الله وتوفي عليه... فلله الحمد أن أنقذه على يديَّ من النار. وفي النهاية فكل منّا مسؤول عن نفسه وعن الآخرين، وعن دين الله عز وجل، وعلينا أن ننشر دين الله تعالى، كما أن علينا الهجرة إلى الله، ونحن عالمون بأننا لسنا ملائكة ولا دون ذنب وإنما نعترف لله بالذنب ونسأله سبحانه المغفرة. وإنني لعلى يقين بأنني اليوم لست كيوم دخلت الإسلام، حيث كنت يومها بلا ذنب كمن ولد من جديد، ولكنني أسأل الله المغفرة، وأن يوفّقني للعمل في خدمة الإسلام حتى ألقاه وهو راضٍ عني غير غضبان. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

انتهى كلامها ـ رعاها الله. هذه رسالة من مسلمة جديدة تبثها لا من قلبها وإنما بقلبها وفعلها ولسانها قائلة لكل مسلم: هذا الدين أمانة في يدك، وهناك من ينتظر أن يصله هذا الدين، فبادر بإخراج الناس من الظلمات إلى النور، بادر بخدمة الإسلام، بادر بنشر دين الله الصحيح، بادر بالدعوة.. بفعلك وسلوكك، وبادر بتصحيح معتقدك حتى لا تصبح أفعالك دعوة سلبية وحجة عليك لا لك. وعلى كل متكاسل أن يقف مع نفسه وقفة وهو يقرأ قصة هذه المرأة العظيمة. أحبّتي في الله: هذه المرأة اعتمدت في دعوتها ليس على لسانها فقط ـ كما يفعل الكثير من الدعاة ـ ولكن اعتمدت على أعمالها الصالحة وسلوكها الإسلامي السليم، وهذا ما ينقصنا الآن.. وهذا ما يجب على كل منا الالتزام به. العمل ثم العمل.. تخيّل أنه بأعمالنا الصالحة وتقديمنا الأنموذج الإسلامي العملي يمكننا أن ننقذ من في هذا العالم؟ بل كم يمكننا أن ننقذ من شاب مسلم بالبطاقة فقط؟ شباب فاقد للقدوة.. فلنكن نحن القدوة ولنقدم للعالم خلق الإسلام ناطقاً في سلوكنا وأعمالنا.

وقد ذكر أحد الدعاة المعاصرين قصة جميلة لأحد الطلبة في الثلاثينيات من القرن العشرين، كان قد التحق بكلية الزراعة في إحدى جامعات مصر، وعندما حان وقت الصلاة بحث عن مكان ليصلي فيه فأخبروه أنه لا يوجد مكان للصلاة في الكلية ولكن هناك غرفة صغيرة (قبو) تحت الأرض يمكن أن يُصلي فيه، ذهب الطالب إلى الغرفة تحت الأرض وهو مستغرب من الطلبة الذين معه في الكلية

لعدم اهتمامهم بموضوع الصلاة، أيصلون أم لا!! المهم أنه دخل الغرفة فوجد فيها حصيراً قديماً، وكانت غرفة غير مرتبة ولا نظيفة، ووجد عاملاً يصلي، فسأله الطالب: هل تصلي هنا؟ فأجاب العامل: نعم، فمعظم الطلبة الذين فوقنا لا يصلون ولا يوجد غير هذه الغرفة.

فقال الطالب معترضاً: أما أنا فلا أصلي تحت الأرض. وخرج من القبو إلى الأعلى، وبحث عن أكثر مكان معروف وواضح في الكلية وعمل شيئاً غريباً جداً.. وقف وأذّن للصلاة بأعلى صوته!!

تفاجأ الجميع وأخذ الطلاب يضحكون ويشيرون إليه بأيديهم ويتهمونه بالجنون. لم يبالِ بهم، وجلس قليلاً ثم نهض وأقام الصلاة وبدأ يصلي وكأن أحداً لا يوجد حوله. ثم بدأ يصلي وحده. يوم.. يومان.. وهو على الحال نفسها. الناس كانت تضحك ثم اعتادت على الموضوع كل يوم، فلم يعودوا يضحكون. ثم حصل التغيير.

العامل الذي كان يصلي في القبو خرج وصلى معه.. ثم أصبحوا أربعة، وبعد أسبوع صلى معهم أستاذ، انتشر الموضوع والكلام عنه في كل أرجاء الكلية، استدعى العميد هذا الطالب وقال له: لا يجوز هذا الذي يحصل، أن تصلوا وسط الكلية، نحن سنبني لكم مسجداً عبارة عن غرفة نظيفة مرتبة يصلي فيها من يشاء وقت الصلاة.

وهكذا بني أول مسجد في كلية جامعية. ولم يتوقف الأمر عند ذلك، فقد شعر باقي الطلاب في الكليات بالغيرة وقالوا: لماذا كلية الزراعة بها مسجد؟ فبني مسجد في كل كلية بالجامعة.

هذا الطالب تصرف بإيجابية في موقف واحد في حياته فكانت النتيجة أعظم من المتوقع.. ولا يزال هذا الشخص سواءٌ أكان حياً أم ميتاً ينال الحسنات عن كل مسجد يبنى في الجامعات ويذكر فيه اسم الله... هذا ما أضافه ذلك الشخص للحياة فماذا أضفنا نحن لها؟ سؤال لا بد لكل منا أن يفكر فيه.

ثانياً: الجهاد في سبيل الله فريضة ماضية إلى يوم القيامة: نعم، فالقتال أعلى صور الجهاد، وهو ذروة سنام الإسلام كما قال عليه الصلاة والسلام. لكنّ القتال كان ممنوعاً على المسلمين في مكّة، ثمّ أصبح جائزًا للدفاع عن النفس في المدينة، ثمّ أصبح واجباً للدفاع عن النفس وعن الدين. وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، استقرّ تشريع القتال على المنع أو الإباحة أو الوجوب بحسب الظروف التي تمرّ بالمسلمين، وتبقى الدعوة إلى الله هي المهمّة الأولى في جميع الظروف، ويكون القتال في سبيل الله مطلوباً إذا وُجدت أسبابه الشرعية وهي ردّ الاعتداء، ومنع الفتنة، وهي إكراه الناس على دين لا يريدونه، فالدعوة هي الهدف، والقتال لم يُشرع إلاّ كوسيلة مساعدة للدعوة تضمن الاستماع إليها، وقبولها أو رفضها بكلّ حرّية.

وإذا كان القتال يستلزم أخلاقًا خاصّة في التعامل مع الأعداء، كالغلظة بدل الرفق، واستباحة الدماء والأموال بدل المحافظة عليها، وجواز الخداع وغير ذلك، فإنّ هذه الأحكام تبقى محصورة في زمن قيام الحرب فعلاً وبين المتقاتلين فقط، يقول الله تعالى: ﴿**وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴿٧٢﴾﴾ (سورة الأنفال: 72). فأبيح للمسلمين عدم

نصـرة إخـوانهـم إذا كـانوا مـرتبطين بميـثـاق مع أعـدائهم الكافـرين، ولذلك قال الإمام النووي في الجزء السابع من شرحه لصحيح مسلم: اتفق العلماء على جواز خداع الكفّار في الحرب كيف أمكن الخداع إلاّ أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحلّ (ج: 7 ـ 230).

إنّ من أهمّ أسباب الاختلاف بين المسلمين اليوم في كيفية التعامل مع غير المسلمين، هو معرفة القاعدة التي يقوم عليها هذا التعامل: هل هي قاعدة الدعوة بما تقتضيه من أخلاق؟ أم قاعدة القتال بما يقتضيه من أحكام؟ ويجد كلّ فريق دليله في كتاب الله، أو في سنّة رسوله ﷺ، ولذلك كان لا بدّ من تحديد هذه القاعدة أولاً، حتّى يمكن أن يقوم عليها ما تقتضيه من أحكام.

إنّ العالم اليوم أصبح منفتحاً على بعضه في كلّ بقاع الأرض. والمسلمون موجودون في أوروبا وأمريكا وأستراليا وآسيا وأفريقيا، وهم يشكّلون أقلّيات كبيرة في أكثر البلاد غير الإسلامية، وعدد كبير منهم من أهل البلاد الأصليين، وإنّ المحافظة على حقوق الإنسان ومنها حرّية الاعتقاد أصبحت سائدة في أكثر دول العالم ـ إن لم نقل فيها جميعاً ـ بحيث لم يعد القتال لمنع الفتنة حسب التعبير القرآني وارداً. لكن القتال دفاعًا عن النفس ورداً للاعتداء لا يزال قائمًا بين حين وآخر، ومنه القتال الذي وقع في البوسنة وكوسوفا والشيشان وأفغانستان وفلسطين.

ومن هذا المنطلق فإنّنا نعتقد أنّ الدعوة هي قاعدة التعامل مع غير المسلمين من حيث المبدأ. ولعل كل الطلاب والموفدين للدراسة في بلاد الغرب يندرجون تحت هذه القاعدة. لذا كان لزاماً الالتزام بأخلاقها

وأحكامها. ولا يصحّ استعمال أحكام القتال في الظروف الحاضرة. بل حتّى حين يقع مثل هذا القتال دفاعاً عن النفس في أيّ بلد من بلاد العالم، فإنّه يبقى محصوراً في ذلك البلد، وبإمكان المسلمين ومن واجبهم أن يساعدوا إخوانهم بما يستطيعون ضمن ظروفهم ومواثيقهم. إنّ من أهمّ ساحات القتال المعاصر ما يجري في أرض فلسطين المحتلّة بين شعبها المظلوم المجاهد، وبين الاحتلال الصهيوني الاستيطاني الغادر. وعلى الرغم من أنّ قضية فلسطين لها مقام خاصّ في قلب كلّ مسلم، لوجود المسجد الأقصى فيها، ولتعرّضه لمؤامرات الهدم، فإنّ جميع القوى والتنظيمات الفلسطينية تعتقد بضرورة حصر المعركة داخل الأرض الفلسطينية ومع العدوّ الصهيوني فقط. هذه مسألة مهمّة يجدر الانتباه إليها.

فالولايات المتحدة الأمريكية بموقفها المنحاز بشكل كامل مع العدوّ الصهيوني، وبتبنّيها الكامل لجميع أعماله الإجرامية، وبالدعم غير المحدود مالياً وعسكرياً وسياسياً، جعلت نفسها في موقع العداء للشعوب العربية والإسلامية. هذا الموقف تجب مواجهته بالمستطاع. ولقد طرح علماء وقادة الحركات الإسلامية فكرة مقاطعة المنتجات الأمريكية، وهي مواجهة مؤثرة لو عمّت جميع البلاد العربية والإسلامية. ويطرح الكثيرون على الدول الإسلامية ضرورة اتخاذ مواقف أشدّ تجاه الولايات المتحدة. ولكن لم يطرح أحد فكرة نقل المعركة إلى الأرض الأمريكية، فإنّ ذلك غير مفيد في الصراعات المحلّية، ومضرّ ضرراً بالغاً بالوجود الإسلامي في جميع دول الغرب.

فالإسلام من حيث المبدأ ينهى عن قتل النفس، قال تعالى: ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾** ﴾ (سورة المائدة: 32). وقال: ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ (سورة الإسراء: 33). والنفس هنا تشمل المسلم وغير المسلم. وقد أذن الله تعالى بقتل النفس المسلمة حَدًا أو قصاصًا لأسباب محدّدة. كما أذن بقتل النفس غير المسلمة لظروف محدّدة أيضًا. ولكن لم يرد الإذن الشرعي بقتل أيّ إنسان بسبب عمل أو جريمة قام بها غيره، لأنّ القاعدة الشرعية المتفق عليها التي نصّ عليها القرآن ﴿ **أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾** ﴾ (سورة النجم: 38). أي لا يتحمل أيّ إنسان مسؤولية عمل غيره.

ويظنّ بعض المسلمين أنهّ يجوز قتل غير المسلم ولو دون سبب، ويبنون ذلك على أنّ الكافر حربيّ في رأي أكثر الفقهاء، وأنّ الحربي غير معصوم الدمّ، فيجوز بالتالي قتله كيفما كان. وهذه مسألة مهمّة للغاية، ويجب توضيحها بما يأتي:

- ليس كلّ كافر حربياً، بل هو يصير كذلك إذا أعلن هو أو دولته الحرب على المسلمين، أو إذا أعلن المسلمون الحرب عليهم. وإذا لم يقع ذلك فكلّ كافر يمكن أن يكون حربياً، وهذا ما يعنيه الفقهاء عن الكافر بأنّه حربي. وبالتالي فيجب على المسلمين أن يكونوا حذرين منه حتّى تنقطع حربيّته بعهد، فيلتزم المسلمون معه بأحكام العهد. قال تعالى: ﴿ **وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴿٣٤﴾** ﴾ (سورة الإسراء: 34).

- وحتّى الكافر الحربيّ، لا يُقتل لمجرّد كفره، بل يُقتل حين يحارب المسلمين وبسبب محاربته الفعلية، ولذلك يقول جمهور الفقهاء من المالكية والحنفية والحنابلة: إنّ (علّة القتال هي الحرابة ـ أي المحاربة ـ وليس مجرّد الكفر). هذا القول هو الصحيح، يؤيّده قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴿١٩٠﴾﴾ (سورة البقرة: 190). وهو هنا ينهى عن مقاتلة غير المقاتلين، بل يعتبر مقاتلتهم اعتداء.. وهذا ممّا لا يقبل النسخ. فلقد منع الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث الصحيحة قتل مَن لا يقاتل من الكفّار: كالمرأة والصبيّ غير المقاتل والعسيف، وهو الأجير المستخدَم في أمور لا تتصل بالقتال، والشيخ الفاني. وقد قاس الفقهاء على هذه النصوص منع قتل (الرهبان في الصوامع، والتجّار، والمقعد والأعمى والمشلول والمعتوه والسائح ومقطوع اليد والرجل، والمريض مرضًا مزمناً). ولو كان القتل جائزًا لمجرّد الكفر، لكان هذا مناقضًا لعدم الإكراه في الدين، وهذه مسألة لا نعلم خلافًا حولها لورود النصوص القاطعة فيها كقوله تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (سورة البقرة: 256).

- أنّ الرسول ﷺ أسر الكثير من المشركين وأطلق سراحهم بفدية أو دونها، وقتل بعضهم لأسباب أخرى غير الكفر. ولو كان القتل واجباً لمجرّد الكفر، لما جاز تركهم. والكافر يمكن أن يدخل في عهد مع المسلمين، فيعصم دمه وماله، والعهد يمكن أن يكون من الأفراد ومن الدول.

- فعلى نطاق الأفراد، الحربيّ يحصل على الأمان من أيّ مسلم بالغٍ عاقلٍ، وليس شرطاً أن تعطي الأمان الدولة. بل بالغ المالكية والحنابلة فأجازوا إعطاء الأمان حتّى من الصبيّ المميّز وهو الذي بلغ سبع سنوات، وأيّدهم في ذلك محمد بن الحسن من الحنفية، ولو دخل الحربيّ دار الإسلام بغير أمان وقال: دخلت لسماع كلام الله تعالى، أو دخلت رسولاً ـ سواء معه كتاب أم لم يكن ـ أو قال: دخلت بأمان مسلم دون أن يأتي ببيّنة على ذلك، صُدِّق ولم يُتعرّض له لاحتمال ما يدّعيه، ولأنّ قصده ذلك يؤمّنه من غير احتياج إلى تأمين. هذا قول الشافعية والحنابلة، وعند المالكية: يُردّ إلى مأمنه إلاّ أن توجد قرينة كذب (انظر إلى عظمة هذا الموقف، فقد دخل الحربي دار الإسلام بغير أمان، ومع ذلك لا يُقتل بحجّة أنّه غير معصوم الدم بل يُردّ إلى مكانه الذي يأمن فيه). وعند الأحناف: يُطالَب بالبيّنة لإمكانها غالباً.

كما أنّ الحربي يمكن أن يصير ذمّياً بالتراضي، أو بالإقامة مدّة سنة في دار الإسلام، وهذا معناه في الأعراف المعاصرة أنّ أيّ أجنبي حربيّ يمكن أن يصبح مواطنًا في دار الإسلام بمجرّد الإقامة النظامية فيها مدّة سنة واحدة إذا رضي بالخضوع لقوانينها.

- وعلى نطاق الدول، يقع العهد بين المسلمين وغيرهم، فتصبح دارهم دار عهد، وعند ذلك (يمنع الإمام المسلمين والذمّيين من إيذائهم والتعرّض لهم، لأنّهم استفادوا بالأمان في أنفسهم

وأموالهم بالموادعة). ويُعتبَر اليوم ميثاق الأمم المتحدة عهدًا بين جميع الدول الموقّعة عليه. حين تقع الحرب الفعلية بين المسلمين وأعدائهم، يجب أن يلتزم المسلمون بأحكام الإسلام في الحرب. ومنها: عدم جواز قتل غير المقاتلين، وقد تضافرت على ذلك النصوص القاطعة، وروايات البخاري ومسلم تذكر نهي رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان بالتحديد. وفي رواية أبي داود وهي صحيحة أنّ رسول الله ﷺ أرسل لخالد (لا يقتلنّ امرأة ولا عسيفاً) والعسيف هو الأجير الذي يعمل في غير أمور القتال كالفلاّحين والعمّال في المصانع وعمّال النظافة في الطرقات والأطبّاء والممرّضين وغيرهم.. وفي رواية ثانية لأبي داود: (.. لا تقتلوا شيخًا فانياً)، أي: لم يبق فيه نفع للكفّار ولا مضرّة على المسلمين.

- وقد أباح الإسلام ـ استثناءً من هذا الأصل ـ قتل غير المقاتلين حين شنّ الغارات على العدوّ، أو حين رميه من بعيد، لأنّه لا يمكن هنا التفريق بين المقاتل وغير المقاتل، وطبيعة الحرب قد تقتضي شنّ مثل هذه الغارات. وقد أباح النبيّ ﷺ ـ كما ورد في الصحيحين ـ (تبييت المشركين) أي: مهاجمتهم ليلاً على حين غفلة، ولو أدّى ذلك إلى إصابة الذراري من النساء والأطفال، لكن من الواضح أنّ جميع هذه النصوص وردت عند قيام حرب فعلية معلنة، بحيث لا يقع بها غدر.

- أمّا التخريب في بلاد الأعداء وإشعال الحرائق، فقد اختلف فيه العلماء بين مجيز ومانع، وقد جمع شيخ المفسّرين الطبري بين القولين، بأنّ النهي محمول على القصد إلى ذلك، بخلاف وقوع ذلك أثناء القتال من غير قصد إليه، وقد ذكر الدكتور محمد خير هيكل في كتابه: «الجهاد والقتال في السياسة الشرعية» أنّ هذا هو قول أكثر أهل العلم.

- وقد لخّص هذه الأحكام الخليفة الأول أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه في وصيّته لأول جيش إسلامي خرج من الجزيرة العربية لقتال الروم، وفيها: «لا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأةً، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلاّ لمأكله، وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له» (المدوّنة 2/7 ـ وتاريخ الطبري).

في ضوء ما تقدّم نقول بوضوح: إنّ التفجيرات التي وقعت في نيويورك وواشنطن لا يمكن أن تكون مقبولة من وجهة النظر الشرعية، وبالتالي لا يمكن تسميتها عمليّات استشهادية ـ إذا صحّ أنّ الذين قاموا بها مسلمون، للأسباب الآتية:

- أنّ الظروف التي يعيشها المسلمون اليوم في أكثر بقاع الأرض هي ظروف الدعوة وليس القتال. وأنّ اللجوء إلى القتال في مثل هذه الظروف يضرّ ضرراً بالغاً بالدعوة. فلقد بذل المسلمون في أوروبا وأمريكا جهودًا كبيرة من أجل عرض الإسلام على

الشعوب الغربية بصورته الحقيقية الجذّابة، فجاءت هذه التفجيرات لتعلن الحرب على الشعوب وليس على الحكومات، وتحقّق ما يريده أعداء الإسلام من إيقاف مسار الدعوة، وهو أثقل في الميزان الشرعي من شهوة الانتقام ضدّ الإدارة الأمريكية الظالمة.

- أن جميع المتهمين دخلوا الولايات المتحدة بتأشيرة رسمية، وهي تعتبر من وجهة النظر الفقهية عقد استئمان «ولا يحلّ للمسلم خيانتهم في شيء، لأنّهم أعطوه الأمان مشروطًا بتركه خيانتهم، وإن لم يكن ذلك باللفظ، فهو معلوم في المعنى، فلا يحلّ له خيانتهم، لأنّه غدر، ولا يصلح الغدر في الإسلام» (الموسوعة الفقهية الكويتية، ج 7).

- أن الإقدام على خطف طائرات مدنية، يوجد عليها نساء وشيوخ وأطفال، ومسلمون وغير مسلمين، هو في الأصل حرام. لأنّه ترويع للناس، وهو لا يجوز كما هو معروف إلاّ أثناء القتال وضدّ المقاتلين فقط. والله تعالى يقول: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ** ﴾ (سورة التوبة: الآية 6). هذا في المشرك المقاتل، فكيف بغير المقاتلين؟ فإذا أضفنا إلى ذلك أنّ الخاطفين ضربوا بهذه الطائرات المخطوفة وركّابها المدنيين في برج التجارة العالمي في نيويورك، حيث يوجد آلاف من الموظّفين وآلاف من المراجعين كلّهم في الأصل غير مقاتلين، وفيهم نساء وشيوخ، وفيهم مسلمون وغير مسلمين، وقد ورد في مصنّف ابن

أبي شيبة عن جابر بن عبد الله قال: «كانوا لا يقتلون تجّار المشركين» (رقم 14076 ـ جـ 386/12)، إضافة إلى النصوص القاطعة التي تمنع قتل من لم يقاتل، أدركنا حجم المخالفة الشرعية التي وقع فيها هؤلاء، ناهيك عن أنهم كانوا قاصدين قتل المدنيين ! ولم يكن قتلهم عرضاً أثناء مقاتلة العسكريين.

فهذا إذاً هو الرأي الشرعي ورأي أغلب المسلمين من أهل السنة والجماعة، ورغم ذلك فإنه لا يمنع بأن يتم الخوض في أحداث 11 سبتمبر وتداعياتها وإبداء بعض الآراء حول هذا الحادث الذي أضر كثيراً بالمسلمين على مستوى العالم وداخل أمريكا على وجه الخصوص. وتداعياته على الطلاب العرب والمسلمين في أمريكا.



مركز التجارة العالمي

نبذة تاريخية:

كان صرحاً فهوى............ عندما نعود إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر من العام 2001 م فإنّ أوّل ما سيتبادر في ذهننا هو ضحايا هذه الهجمات، إذ سنندبهم وسنتعاطف مع أهاليهم (مسلمين وغيرهم) فالأمر هنا إنساني بحت، كما سنقدر ما قام به عمال الإنقاذ في ذلك اليوم. وفي الوقت نفسه، سنتذكر كل التقنيات التي

أبي شيبة عن جابر بن عبد الله قال: «كانوا لا يقتلون تجّار المشركين» (رقم 14076 ـ جـ 386/12)، إضافة إلى النصوص القاطعة التي تمنع قتل من لم يقاتل، أدركنا حجم المخالفة الشرعية التي وقع فيها هؤلاء، ناهيك عن أنهم كانوا قاصدين قتل المدنيين ! ولم يكن قتلهم عرضاً أثناء مقاتلة العسكريين.

فهذا إذاً هو الرأي الشرعي ورأي أغلب المسلمين من أهل السنة والجماعة، ورغم ذلك فإنه لا يمنع بأن يتم الخوض في أحداث 11 سبتمبر وتداعياتها وإبداء بعض الآراء حول هذا الحادث الذي أضر كثيراً بالمسلمين على مستوى العالم وداخل أمريكا على وجه الخصوص. وتداعياته على الطلاب العرب والمسلمين في أمريكا.



مركز التجارة العالمي

نبذة تاريخية:

كان صرحاً فهوى.......... عندما نعود إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر من العام 2001 م فإنّ أوّل ما سيتبادر في ذهننا هو ضحايا هذه الهجمات، إذ سنندبهم وسنتعاطف مع أهاليهم (مسلمين وغيرهم) فالأمر هنا إنساني بحت، كما سنقدر ما قام به عمال الإنقاذ في ذلك اليوم. وفي الوقت نفسه، سنتذكر كل التقنيات التي

تمّ استخدامها في ذلك اليوم (الطائرات التي تم استخدامها لتكون قنابل طائرة، والمباني التي تضررت وتحطمت، والأجهزة الضخمة التي تمّ استخدامها في عمليات الإنقاذ الكبيرة، والجهود المضنية التي قامت بها فرق إزالة حطام برج التجارة العالمي) وككل الأحداث المهمة التي لا تحصى في التاريخ فقد مثلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر ضربة موجعة للإنسان والآلة معاً. فمن المعلوم أن مركز التجارة العالمي كان يمثل التطور التقني الأكثر ديمومة في العالم إلى ذلك اليوم. وبعد وقوع الهجمات فلم يعد البرجان تجسيداً لأحداث ذلك اليوم فحسب، بل مثّلا أيضاً مشاعر الإنسانية المتوحدة في أرجاء المعمورة كافة.

ولو تطرقنا إلى نبذة تاريخية عن مركز التجارة العالمي فنجد أن ديفيد روكفلر هو صاحب الفكرة الأصلية التي تمّ على أساسها العمل لإنشاء مركز التجارة العالمي، وهو أحد أحفاد رجل الصناعة الأمريكي الكبير جون روكفلر، كما أنّ ديفيد كان الشخص الذي دفع هذه الفكرة للتحرك. ففي خمسينيات وستينيات القرن العشرين، تمّ اختياره ليكون الشخص القادر على إنعاش منطقة مانهاتن السفلى في مدينة نيويورك، كونه كان رئيس بنك (تشيس مانهاتن)، وقد عمل على تنشيط هذه المنطقة بالإنشاءات الحديثة على غرار ما فعله والده في منطقة مانهاتن الوسطى في ثلاثينيات القرن الماضي من خلال إنشاء مركز روكفلر. وباعتباره جزءاً من خطته، اقترح ديفيد إنشاء بناء مخصّص للتجارة العالمية في النهاية الشرقية من شارع (وول ستريت)،

على أن يتضمن المبنى المنشود دوائر عمل، وفنادق، وصالات للعرض، ومراكز أمنية، ومراكز صرافة، وعدداً كبيراً من المحلات التجارية، ليكون مشعلاً اقتصادياً يعمل على تطوير تلك المنطقة.

وفي ستينيات القرن الماضي، كان لديه بالتأكيد ما يربحه من مشروعه هذا، كونه عمل على نقل مركز البنك الذي يرأسه إلى ستين طابقاً في المنطقة المالية من هذا المركز العالمي، فقد أراد أن يزيد من قيمة استثمار البنك، أضف إلى ذلك أنّه كان مهووساً بروح التوحد العالمي.. فكر تجاري جبار ! ولهذا كان مشروع مركز التجارة العالمي ليجمع الناس من معظم أرجاء العالم كمثال نبيل على السلام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية المقيتة.

وقد ساعده أخوه نيلسون، الذي كان حاكماً لولاية نيويورك في ذلك الوقت، فأدخل ديفيد سلطة ميناء نيويورك كشريك في المشروع (سلطة ميناء نيويورك ونيوجرسي الآن)، وهي معهد حكومي كان يعمل على قيادة مشاريع عامة في مدينتي نيويورك ونيوجرسي (في منطقة الميناء). وعلى الرغم من أنّ سلطة الميناء كانت منظمة عامة فقد كانت تعمل وكأنها شركة خاصة تقدم النصائح لزبائنها بشكل مباشر وتربح من الاستثمارات عوضاً عن أخذ الضرائب المالية. فمنذ إنشاء سلطة الميناء في عام 1921، انصبّ اهتمامها بشكل مباشر على مشاريع الجسور والأنفاق والمطارات ومواصلات الحافلات، لكنها لم تأخذ على عاتقها أي مشروع مماثل لمشروع مركز التجارة العالمي من قبل. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الخيار المنطقي الأمثل لديفيد لأنها تشكل ترابطاً فريداً من نوعه بين الاتصالات الحكومية والمصادر المتنوعة بالإضافة إلى قوة السيطرة الدائمة التي تمتلكها.

لقد كان التصميم النهائي لمشروع مركز التجارة العالمي تتويجاً لجهود مضنية تركزت على عملية جمع التصاميم الكثيرة، التي قدمها عدد كبير من المهندسين المعماريين والإنشائيين، وقاد هذه التصاميم مجموعة صغيرة من المهندسين المتميزين، كان على رأسهم جاي تزوللي (سلطة الميناء) الذي قاد عملية التصميم والإنشاء الخاصة بالفريق النهائي، ومينورو ياماساكي الذي أشرف على المهندسين المعماريين لهذا المشروع، وهو صاحب فكرة البرجين التوأمين والتخطيط الأساسي لباقي هذا الإنشاء. وويسلي روبرت سون، وجون سكيلينغ اللذان قادا المهندسين الإنشائيين الذين عملوا على تحويل مشروع هذا البناء الإبداعي الجميل إلى حقيقة.

وفي مقالة بعنوان (مركز التجارة العالمي مترجمة إلى اللغة العربية على موقع «بيلداكس اون لاين» ذكر كاتبها أنّ الإنشاء النهائي تكوّن من سبعة مبانٍ شكلت البرجين التوأمين المؤلفين من (110 طوابق)، يصل ارتفاعهما إلى 1360 قدماً (415م)، كما يتواجد في منطقة الإنشاء ميدان مفتوح، الأمر الذي يجعل البناء يبدو إبداعياً وطموحاً، علاوةً على كونه قد بدا بسيطاً. وفي المدة التي تمت فيها عملية إنشاء البناء، كانت معظم ناطحات السحاب الحديثة في ذلك الوقت مبنية حول هياكل فولاذية شبكية الأنموذج. لكنّ رؤية فريق إنشاء مركز التجارة العالمي كانت مختلفةً بعض الشيء. فقد قرر الفريق أن يعملوا على إنشاء أنابيب طويلة في الوقت الذي ستكون فيه القضبان التدعيمية موجودة في المنطقة الخارجية من البناء وفي تجويفه الداخلي.

لذا.. كان من الضروري أن يتم تصميم كل برج على شكل صندوق ضمن صندوق آخر يتم العمل على تدعيمه بالطبقات الجلمونية الأفقية الموجودة في كل طابق.

وقد ذكر الكاتب أيضاً في المقال نفسه أن التصميم كان يتمتع بميزتين رئيستين، الأولى تتمثل في إعطاء مكونات المبنى متانة ملحوظة (استقراراً)، بالإضافة إلى تحمل الثقل العمودي للمبنى، فقد تمّ تسخير الأعمدة الفولاذية الخارجية للعمل على تدعيم المبنى في مواجهة القوى الأفقية التي يتعرض لها (على سبيل المثال قوّة الرياح). أما الميزة الثانية فتتمثل في التصميم الأنبوبي الذي صمم لمواجهة الحالات الصعبة. فبسبب عملية نقل الإنشاءات التدعيمية إلى جوانب المبنى وتجويفه المتوسط، لم تعد هناك أي حاجة للأعمدة الفضائية الكبيرة في كل طابق. وبهذا كان بمقدور المقيمين في المبنى أن يحصلوا على أكبر مساحة من الشقق التي يسكنون فيها (حوالي ثلاثة أرباع الهكتار في كل طابق، حسب رغبتهم).

وعلى مقربة من أرضية البرجين، على مستوى الساحة العامة (الميدان)، فقد تم تركيز ثقل أعمدة التدعيم المحيطة على أعمدة ذات شكل شجري مقوسة تعمل على نقل الثقل من على الأعمدة الصغيرة إلى أعمدة أكبر تصل سماكة كل واحد منها إلى عشرة أقدام، وهي تستقر بوزنها على أساسات تدعيمية إضافية صغيرة في الأساس العام. فقد شكّل التصميم الإنشائي لبرجي مركز التجارة العالمي

عـملية انتقـالية شكلية جـمـالية إبداعـيـة غـيـرت مـن نماذج الأشكال التـقليـديـة القـديمة التي كـانت سـائدة فـي معظم ناطحـات السـحـاب الموجـودة في مـدينة نيـويورك في ذلك الـوقت، وقـد اتفق على تسـميتـه في ذلك الوقت (أنمـوذج كعكة الزفـاف). فقـد كـان مصـمـمـو ناطحـات السحاب يعملون على إنشاء طبقات تتدرج في صغرها كلما اتجهنا إلى الأعلى، وذلك بسـبب القيـود التي كانت مـفروضـة علـى التصـمـيم في مناطق نيويورك في النصف الأول من القرن العشرين. ففي عام 1916 مـرر مـجلس المدينة قـراراً يفـرض علـى مصـممي ناطحـات السـحـاب أن ينشـئـوا هذا النوع مـن المبـاني علـى شكل هرمـي للحـيلـولة دون وقـوف الجـدران في وجـه الإضـاءة في الشـارع. لكن في عـام 1962 صدر قـرار جديد حـول التـركيـز بدلاً من الشكل إلى عـمليـة تنظيم الارتفـاع، فـقـد عـملت القـيـود الجـديدة علـى تخصـيص عـدد مـحـدد من الطوابق، وفقـاً لموقع البناء وحجم المنطقة الكلية المخصصة للإنشاء. وبهذا تمّ السماح لسلطة الميناء ببناء هذين البـرجين الطويلين، كونها تمتلك موقع إنشـاء كبيـر وسـاحة عامة مفتوحة.

التصميم الخارجي والداخلي:

تحـتاج ناطحـات السـحـاب إلى مزيـج مثـالي خلاق من المتـانة والمرونة لكي تتصـدى لقوة الـريـاح الأفقيـة، بحيث تكون الأبـراج مـتينة كفـاية حتى لا تدفعها الـرياح لمسافة كبيرة إلى الأمام أو الخلف، بالإضافة إلى كونها يجب أن تكون مرنة بالشكل الكافي لامتصاص القليل من طاقة الرياح.

وقد ذكر كاتب مقالة مركز التجارة العالمي أن طاقم إنشاء برجي مركز التجارة العالمي عمل على إجراء فحوص شاملة لمعرفة ما هو مقدار التمايل الذي يمكن أن نسمح للبناء بأن يحتوي عليه بحيث لا يصل إلى مرحلة إزعاج المقيمين داخل المبنى. كما قام الطاقم بوضع نماذج إنشائية لأنفاق الهواء تحت الاختبار والضغوط الهيدروليكية الكبيرة. وفي النهاية، وصل الطاقم إلى تصميم البرجين بالشكل الذي يسمح لهما بالتمايل بمقدار ثلاثة أقدام في أي اتجاه، كما عمل على استخدام عشرة آلاف من المكونات المطاطية المرنة والمرطبة بين الأعمدة المدعمة والأرضيات الجلمونية في كامل المبنى، وذلك للحد من تكوين أي شعور بالصدمة تجاه فكرة أنّ المبنى يتمايل. وللعلم فإن هذه المكونات الترطيبية المرنة تتحرك بشكل ما، لكنها تعود إلى وضعيتها الطبيعية.

كما كان على الطاقم أن يأخذ عملية دخول الناس إلى المبنى بعين الاعتبار. فقد كانت عملية إيجاد أنظمة المصاعد أمراً صعباً بشكل عام لمصممي ناطحات السحاب. فالأمر يستدعي زيادة عدد المصاعد المتجهة نحو الطوابق العليا، لكنّ هذه العملية ستقلل من مساحة الطوابق بشكل ما، الأمر الذي سيؤدي إلى تقليل عدد المقيمين في المبنى وهذا يقلل الجدوى الاقتصادية ويقلل العائد من المشروع بشكل عام. وقد كان من الصعب على المصممين المعماريين أن يوازوا بين احتياجات البناء كافة مع الحفاظ على قدراته الوظيفية، الأمر الذي جعل المصممين المعماريين يشعرون بالتردد إذا ما أرادوا جعل البرج

يتخطى حاجز الـ 80 طابقاً.. والسبب الرئيس في هذا الموضوع هو مشكلة المصاعد بالطبع. ولهذا عمل الطاقم على تقديم نظام مختلف بشكل جذري عما كان سائداً في ذلك الوقت. فبدلاً من تركيب عدد كافٍ من المصاعد لنقل أي شخص من الطابق الأرضي إلى وجهته المقصودة، فقد قرر الطاقم تحويل الرحلة من مصعد واحد إلى مصاعد متعددة، فإذا ما أراد الشخص أن يركب المصعد للوصول من الطابق الأرضي إلى الطابق الأعلى في البناء كان عليه أن ينتقل من مصعدٍ إلى آخر بالطريقة نفسها التي يمكن أن تنتقل فيها السيارات في نظام أنفاق. ففي المرحلة الأولى يتوجب على الناس أن يستقلوا مصعداً سريعاً من الطابق السفلي إلى الطابق الـ 78 (رواق السماء).. ومن هناك بإمكانهم أن يذهبوا إلى الطابق الذي يرغبون في الوصول إليه.

ولتنظيم هذه العملية، فإن كل المصاعد التي يتسع كل واحد منها لـ 55 شخصاً، تمتلك أبواباً من كل الاتجاهات، بحيث يستطيع الأشخاص الدخول من جانب والمضي إلى الأمام للخروج من الجانب الآخر. وبهذه الطريقة يحافظ المغادرون على مكانهم طوال الرحلة. وكما يظهر في المخطط، فقد قسم عمل المصاعد كل برج إلى ثلاثة أقسام مركبة فوق بعضها، ويجدر بنا أن نعلم القارئ العزيز أن كل برج كان يحوي على 99 مصعداً يعمل كلٌ منها في طوابق معينة وذلك لإيصال المقيمين داخل المبنى إلى المكان الذي يرغبون في الوصول إليه بالسرعة القصوى وبسهولة، الأمر الذي انتشر منذ ذلك الحين في ناطحات السحاب التي تم إنشاؤها بعد إنشاء برجي مركز التجارة العالمي.

لقد اعتمد إنشاء برجي مركز التجارة العالمي على التحدي الوطني واللوجستي الكبير الذي قام به الأمريكيون. فبالإضافة إلى المشكلات الهندسية السابقة، فقد واجه طاقم العمل مشكلة جديدة تجسدت في عملية وجود الفولاذ في موقع البناء، حيث احتاج العمل على إنشاء هذا الصرح الكبير إلى 200 ألف طن من الفولاذ، والمشكلة كانت في عدم قدرة موقع البناء على استيعاب كل هذه الكمية الكبيرة من الفولاذ، الأمر الذي دفع سلطة الميناء إلى استخدام وسيلة (تسلّم الفولاذ في الوقت المناسب).

وبهذا النظام تمّ نقل الفولاذ كله على مراحل من مصانع الفولاذ إلى موقع البناء وذلك عند الحاجة إليه، بحيث يتم نقل الكميات إلى سكة حديد كبيرة في نيوجرسي على شكل قطع كبيرة يتم تحديدها برقم مكتوب فيه طولها وأين ومتى يتوجب استخدامها. ووفقاً لجدول الإنشاء، يتوجب على سلطة الميناء أن تقوم بشحن قطع الفولاذ من المحطة إلى موقع البناء مباشرة عندما تتوافر الحاجة إليها. أما بالنسبة لقطع الفولاذ الصغيرة فقد تمّ نقلها بالشاحنات، والقطع المتوسطة عن طريق مراكب الشحن الكبيرة.

لقد انطلقت عملية الإنشاء من الداخل إلى الخارج. فقد بدأ الطاقم ببناء شبكة فولاذية في التجويف الداخلي بارتفاع معين، ومن ثمّ قام الكادر ببناء الجدران المحيطة حول الشبكة. وللعلم، فقد تم تركيب المحيط من قطع مسبقة الصنع عرضها يصل إلى حوالي 10 أقدام (3 م)، وبارتفاع بلغ مستوى الطابق الواحد أو الطابقين، وبوزن

وصل إلى حوالي 22 طناً، بالإضافة إلى الأعمدة العمودية التي تمّ ربطها بقضبان أفقية (سميت بعروة العقد). أما بالنسبة للأرضية، فقد تمّ تركيبها بين الجدار المحيط والتجويف الداخلي. كما أنها كانت أيضاً مسبقة الصنع مشكّلة من أسطح جلمونية عميقة عرض السطح الواحد منها يبلغ 22 إنشاً (81 سم) وتم تركيبها فوق سطح معدني متموج. ولإنهاء كل أرضية قام الطاقم بصب البيتون فوق السطح المعدني وتم وضع القرميد فوقها. وتضمنت قطع الأرضيات قنوات مسبقة الصنع خاصة بالهاتف وكابلات الكهرباء، وذلك لتسهيل عمل الكهربائيين الذين عملوا في المبنى بعد انتهاء عملية الإنشاء. وبعد انتهاء العمل على التركيب الفولاذي قام الطاقم بربط الطبقة الخارجية من الجدار المحيط والحواف بمحيط الألمنيوم المؤكسد الذي تم تقطيعه مسبقاً إلى ألواح كبيرة.

وذكر الكاتب أيضاً أنه منذ افتتاح برجي مركز التجارة العالمي في الرابع من نيسان عام 1973 م، قابل أبناء مدينة نيويورك هذا الصرح بعدم الرضى. فالبرجان لم يحظيا بشعبية واسعة ضمن أوساط سكان المدينة لأسباب عديدة منها استياء رجال الأعمال من عملية إخلاء موقع البناء من العديد من مكاتب العمل، كما أنّ أوساط العامة استنكرت عمليات إنفاق الأموال الفاحشة التي قامت بها سلطة الميناء لإتمام هذا المشروع (أكثر من بليون دولار أمريكي، أي ما يعادل أربعة بلايين ونصف البليون من الدولارات الأمريكية في الوقت الراهن). وطبعاً كان ذلك الأمر على حساب المواصلات العامة، مما دعا أنصار

البيئة إلى التساؤل حول العديد من ممارسات وأعمال هذا الإنشاء، أضف إلى ذلك التقاء آراء العديد من النقاد المعماريين المتميزين حول فكرة أن البرجين كبيران ويمنحان المشاهد شعوراً بخيلاء البناء وصلفه وغروره. وعلى الرغم من أنّ يوم الافتتاح الكبير كان يوماً احتفالياً عظيماً بالنسبة لسلطة الميناء وفريق التصميم وطاقم الإنشاء، لكن هذا الصرح الكبير كان بحاجة إلى تجاوز طريق طويل من المصاعب ليكسب رضا أهالي المدينة وقبولهم. إذ كان لا بد للبرجين من الانتظار لمدة عقد من الزمان ليحصلا على ثقة سكان مدينة نيويورك. وبعد ذلك، بدأ مركز التجارة العالمي في لفت أنظار الأمريكيين بشكل عام، حيث ظهر في العديد من الأفلام السينمائية الشهيرة في عام 1976 م كفيلم (عودة الملك كونغ)، وفيلم المخرج وودي آلن (منهاتن)، وأفلام (سوبرمان)، الأمر الذي أعطى البرجين شهرة واسعة وجعلهما جزءاً لا يتجزأ من مدينة نيويورك والولايات المتحدة الأمريكية.

كما اتجهت شهرة البرجين نحو العالمية عن طريق العديد من الأعمال الأكروباتية، فبعد سنوات عدّة من إتمام بناء برجي مركز التجارة العالمي، استطاع عدد من المظليين الهبوط بمظلاتهم من سطح البرجين. كما تسلق بعض البهلوانيين المبنى، بالإضافة إلى قيام أكروباتي فرنسي بالمشي جيئةً وذهاباً على حبل تمّ شدّه بين أعلى البرجين ملهباً حماس الجماهير المجتمعة والملايين الذين تابعوا هذا المشهد على شاشات التلفاز في المحطات العالمية كافة، علاوةً على وضع صورة مميزة للبرجين على البطاقات البريدية والفانلات والإعلانات، الأمر الذي جعل مركز التجارة العالمي محط فخر لأهالي

المدينة ليأخذ موقعه في عمق الصميم الأمريكي، ويعطي نظرة جديدة لمدينتهم، فحصل برجا مركز التجارة العالمي على حظوة كبيرة، حيث أصبح بإمكان زوار البرج الثاني الذي يقع في الجنوب رؤية منظر يأخذ الأنفاس، وذلك بالصعود إلى سطحه، فإذا ما أتوا في يومٍ صافٍ كان بإمكانهم أن يروا منظراً رائعاً يمتد لأكثر من 40 ميلاً (64 كم) في الاتجاهات كافة. كما كان بإمكان الزوار الأغنياء أن يتوجهوا إلى قمة البرج الأول الشمالي للتمتع بمنظر أكثر جمالية من مطعم (نوافذ العالم) أو من (سطح الملاحظة)، الأمر الذي دفع الناس حتى أشد منتقدي البرج للصعود لإلقاء نظرة على هذا المشهد الرائع.

وتجدر الإشارة إلى أنّ معظم أهالي مدينة نيويورك (ومعظم الأمريكيين) اعتادوا على رؤية البرجين من الخارج، لكن آلاف الناس الذين كانوا يعملون في داخل هذا البناء الرائع اعتادوا على رؤيتهما من منظور مختلف. فهم لم يكونوا ممتنين لحجم البناء الضخم فحسب، بل قدروا التنوع المشوش في النشاط الدائر في داخل المركز أيضاً. فقد اشتمل مركز التجارة العالمي على أكثر من 500 نوع من الوظائف، كان يعمل فيها أكثر من 50 ألف موظف، بالإضافة إلى المصارف وشركات القانون ومكاتب العمولات ومحطات التلفاز والمطابع والمنظمات الخيرية وشركات الطيران. وقد أظهرت الإحصائيات أن معدل الزوار الذين يدخلون إلى البرجين في يوم عمل اعتيادي يبلغ مقدار 200 ألف زائر، يأتون من أرجاء العالم كافة، الأمر الذي جعل المبنى يبدو مدينة كاملة بحد ذاتها.



يوم الاختبار

في صبيحة الحادي عشر من سبتمبر من عام 2001، بدا أن مركز التجارة العالمي سيصمد بعد وقوع الهجمات عليه. فعلى الرغم من أن ضربات الطائرات دمرت قطعاً كبيرة من البرجين، فقد بدا التركيب الكلي سليماً، على الأقل بالنسبة للملاحظين من الأسفل وللملايين الأمريكيين الذين شاهدوا هذه الكارثة على شاشات التلفاز، لكن البرج الثاني سقط بعد ساعة، ولحقه البرج الأول في السقوط بعد أربعين دقيقة فقط. وبعد أسابيع من وقوع الهجمات شكلت وكالة إدارة الطوارئ الفدرالية (FEMA) مع معهد الهندسة الإنشائية للمهندسين المدنيين الأمريكيين (SEI/ASCE) فريقاً من العلماء والمهندسين للتحقيق بشكل دقيق حول كيفية وأسباب سقوط البناء، وذلك بالاعتماد على الفيديو ومشاهدات شهود العيان وتحليل آثار الحطام.

وقد شكل الفريق فرضية مرجحة حول ما حدث، وقاموا بنشرها في شهر أبريل من عام 2002. وفي شهر أغسطس من عام 2002 أصدر المعهد الوطني للمعايير والتكنولوجيا (NIST) ـ وهو وكالة تابعة لوزارة التجارة الأمريكية ـ الدراسة التي قام بها حول الانهيار على مدى عامين وكلفته 16 مليون دولار. وهنا نذكر ملخصاً لما توصل إليه فريق خبراء FEMA، الذي تلاقى مع الخطوط العريضة التي صدرت خلال أسابيع من الهجمات.

وتعود ضراوة ضربات الطائرات التي لحقت بالبرجين إلى عاملين رئيسين هما:

ـ سرعة الطائرتين الكبيرة في حالتي البرجين، حيث عملت الطائرتان على ضرب الأعمدة العمودية المحيطة بالمبنى. كما ضربتا أقساماً ضخمة من الأرضية، وأثرت هذه الضربة في الأعمدة التدعيمية في التجويفات الداخلية من كلا البرجين، مرسلةً بذلك حطام الطائرتين والأثاث المحترق إلى المكاتب. ومن المرجح أنّ هذا التأثير الأولي قد دمر النظام الترطيبي في الأرضيات. وقدر الفريق أن الطائرة الأولى (بوينغ 767 ـ 200 إي. آر) التي بلغ وزنها 395 ألف باوند، كانت تسير بسرعة 470 ميل في الساعة (756 كم في الساعة)، ودمرت ما يقارب 36 عاموداً تدعيمياً محيطياً موجوداً في الواجهة الشمالية لأربعة طوابق من البرج الأول تقريباً. أما الطائرة التي ضربت البرج الثاني (من نوع الطائرة الأولى نفسه) فقد بلغت سرعتها 590 ميل في الساعة (950 كم في الساعة)، وحققت ضرراً مماثلاً لما حدث في البرج الأول، ما سبب تدمير 32 عاموداً محيطياً جانبياً في خمسة طوابق تقريباً.. بالإضافة إلى تدمير أقسام من الأرضيات المترابطة والتجويف الداخلي من البرج.

ـ احتراق احتياطي وقود الطائرتين بعد تحطمهما، ما أدى إلى تشكل كرات نار كبيرة (مساحة واسعة من الغاز الملتهب). وعلى الرغم من عدم انفجار الوقود، فإنّ كرة اللهب نشرت النار إلى الجانب السفلي من المبنى في أرجاء الطوابق القريبة والأعمدة الداخلية

السفلية كافة، ورجحت التحقيقات أنّ وقود الطائرتين تمّ استهلاكه في كرة النار الأولية خلال الدقائق الأولى من احتراق المبنى، لكن كرة النار هذه فجّرت عدداً كافياً من أجهزة المكاتب والأوراق ومواد البناء، ما تسبب في إبقاء النار مشتعلة إلى أن انهار البرجان. وبشكل مذهل، لم يكن كلّ هذا الضرر الأولي كافياً لإسقاط المبنى. وقد ادعى التقرير والعديد من المهندسين المتميزين أنّ معظم ناطحات السحاب الموجودة على سطح الأرض ستنهار في ثوانٍ إذا ما تعرضت لمثل الضربة التي تعرض لها برجا مركز التجارة العالمي اللذان انهارا بسبب الضربات التي عملت على زيادة مستوى ضغط الثقل العمودي لكل المبنى على الأعمدة المتبقية في الإنشاء. وكما أفاد التقرير، فإنه دون هذه الأثقال الإضافية التي تركزت على التركيب التدعيمي، ما كان للبرجين أن يقعا. ووفقاً للتقرير، فقد كان حجم النيران هو العامل الأساسي في تركيز الضغط على الأعمدة المحيطة والأعمدة الداخلية (بما فيها الطبقات الجلمونية).. أضف إلى ذلك ارتفاع درجة حرارتها إلى مقدار 2000 فهرنهايت (1090 درجة مئوية).

ولو افترضنا أن النيران استعرت في ناطحة سحاب، ولنقل إن ذلك كان جراء احتراق مجموعة من الأوراق بسيجارة مشتعلة (هي الحالة الاعتيادية)، فإنها ستنتشر بشكل طبيعي إلى نطاقٍ أوسع. وفي هذه الوضعية، ستكون النار حادة جداً في المنطقة التي تحتوي على كمية وقود أكبر (المواد التي يمكن أن تحترق)، الأمر الذي سيُضعف التركيب التدعيمي بشكل كبير فقط في المناطق التي تحتوي على النيران

القوية والحادة. فإذا اندلعت النيران ـ على سبيل المثال ـ في الزاوية الشمالية الغربية من طابق ما في ناطحة السحاب، فستصبح النيران حادة جداً في هذه المنطقة أكثر من تلك التي ستتكون في الزاوية الجنوبية الغربية عندما تصل النيران إليها؛ لأنها ستكون قد حرقت معظم الوقود.. الأمر الذي يعني أنّ النيران لن تضع الجهد الأقصى على التركيب التدعيمي بكامله، بل في مناطق مختلفة منه واحدة تلو الأُخرى، إلى أن يتعرض التركيب التدعيمي بكامله في ناطحة السحاب إلى الجهد الأقصى.

أما في حالة برجي مركز التجارة العالمي، فقد انتشر وقود الطائرة المحترق في طوابق متعددة خلال ثوانٍ عدة، الأمر الذي وضع جهداً استثنائياً على كل مناطق التركيب التدعيمي في الطوابق التي تعرضت لاصطدام الطائرتين بها. كما افترض التقرير أنّ قوة الاصطدام أزالت الكثير من المواد المقاومة للنيران التي كانت موجودة على فولاذ الإنشاء، الأمر الذي جعل البناء عرضةً لضرر حرارة النيران بشكل مباشر. فلقد انتشرت النيران وعملت على ليّ وثني الإنشاء التدعيمي، مما أدى إلى إضعاف متانة المبنى، كما أن العديد من الأمور قد تكون حدثت خلال هذه المدة. فعلى سبيل المثال، قد تكون الوصلات بين الأعمدة العمودية والطبقات الجلمونية قد تحطمت، كما قد تكون الأجزاء المتساقطة من الأرضية على الطوابق السفلية، التي كسرت الوصلات بين التجويف الداخلي والجدران المحيطة، السبب في الالتواء الخارجي للأعمدة في الجدران المحيطة. كما أنّ كل

التصدعات والانهيارات في الوصلات بالإضافة إلى التواء استطالات الفولاذ زاد من تفاعل قوة النار على الأسيجة الفولاذية المتصلة إلى أن وصل ضعف الإنشاء بكامله إلى نقطة لم يعد فيها القسم العلوي منه قادراً على الصمود، فانهار القسمان العلويان من كلا البرجين فوق الطوابق السفلية مثلَ سقوط مبنىً مكون من 20 طابقاً فوق بناء آخر. وكما هو معروف، فقد احتوى التركيب العلوي من كلا برجي مركز التجارة العالمي على قوة تحتية ثابتة (الثقل) على الإنشاء العلوي في الأسفل. وقد كان هذا الإنشاء العلوي قوياً بالدرجة الكافية لدعم الثقل. لكن عند انهيار الأعمدة، تحرك القسم العلوي للمبنى من مكانه بفعل الجاذبية التي عجلت في الأمر، وهنا يجدر بنا أن نعلم القارئ العزيز أنّ كمية حركة مادة ما (الزخم) تعادل حركتها الفوضوية المتعددة خلال عملية تسارع حركتها، فإذا ما أردت أن تزيد من تسارع حركة مادة بمجموعة من الحركات الفوضوية، فإنك بالتالي تزيد من زخمها، الأمر الذي يزيد من القوة الكلّية التي يمكن أن تمثلها هذه المادة إذا ما سقطت على مادة أُخرى.

ويعود سقوط البرج الثاني قبل الأول إلى عاملين مختلفين: الأول يكمن في تعرض البرج إلى ضررٍ أكبر كون سرعة الطائرة التي ضربته كانت أسرع من تلك التي ضربت البرج الأول. أما العامل الثاني فيتمثل في أن الطائرة التي ضربت البرج الثاني اصطدمت به في مستوىً أخفض من موقع اصطدام الطائرة الأولى، الأمر الذي يفسر التواء أعمدة هذا البرج بصورة أسرع مما حدث مع أعمدة البرج الأول. وعلى الرغم من أن الإنشاءات التدعيمية لم تكن قادرة على الصمود

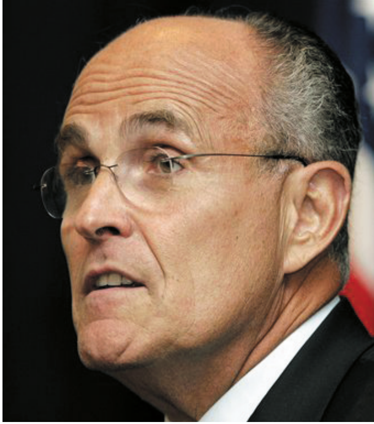
في وجه النيران المستعرة بشكل دائم، لكنها على الأقل كانت قوية بما يكفي للحفاظ على أرواح آلاف الناس. فما يقدر بـ 99 بالمئة من الناس الموجــودين في المناطق الســفلى من الطوابق العلوية التي تأثرت بالضربات في البرجين كانوا قادرين على مغادرة الموقع قبل حدوث عملية الانهيار. ولو لم يكن البرجان مبنيين بمتانة تركيبية كبيرة لكان الموت قد حصد عشرات الآلاف من الأرواح البريئة.

كان لدى الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الكثير من العمل خلال الأشهر التي تلت الهجمات على برجي مركز التجارة العالمي. فبينما كان لدى معظم الأمريكيين الكثير من العمل لتخطي هذه الأزمة العاطفية، ولاستيعاب ما حدث، فقد اجتمعت جهود أكثر من 1500 رجل إطفاء، بالإضافة إلى فرق الإنقاذ والبحث، والحدادين، والمهندسين، ومشغلي الأجهزة الكبيرة، وعمال آخرين في منطقة الركام، لتشكيل عمل فيزيائي متعاضد كبير وذلك لإزالة حطام برجي مركز التجارة العالمي.

أميركا هي العالم. في جملة واحدة من مقطعين مترابطين بمنطق وجرأة، أوضح الرئيس جورج دبليو بوش الوضع على الشكل الآتي: «الآن وقد أعلنت علينا الحرب فإننا سنقود العالم إلى النصر». الجدير بالذكر أن الولايات المتحدة قد تعرضت يوم 11 سبتمبر 2001 إلى خسائر تفوق كل ما تكبدته خلال العمليات العسكرية التي قادتها منذ عشرين عاماً على التوالي في كل من غرينادا، وليبيا، وبنما، والعراق، والصومال، وهايتي وأفغانستان، والسودان، ويوغوسلافيا.



بطولة جولياني



في كل أفلام هوليود السينمائية تجد لكل فلم بطلاً، وتجد هناك أبطالاً مساعدين. ولعل من أكثر الشخصيات التي نالت احتراماً وشعبيةً لدى الأمريكيين في الحقبة التي تلت أحداث سبتمبر هو رودي جولياني العمدة الأسبق لمدينة نيويورك.

وكما يقول المثل: مصائب قوم عند قوم فوائد؛ فهذه الوظيفة تتمتع بصلاحيات كبيرة، ويعتبر العمدة هو المسؤول الرئيس عن ضمان الأمن والسلامة وكفاءة باقي الخدمات التي تتعلق بالمدينة. إذ استطاع جولياني ـ كما رأى المواطنون ـ أن يمسك بالمدينة سواء في إظهار الضبط والنظام أم من ناحية أخرى في التعاطف مع أهالي الضحايا والوجود المستمر على أرض الواقع في مختلف الميادين. وقد أدى ذلك إلى مطالبة بعضهم ببقائه عاماً آخر وتأجيل الانتخابات بعد انتهاء المدة الثانية من توليه منصبه، وهو ما تم رفضه في النهاية حتى لا تكون سابقة يمكن تكرارها في بقاء المسؤولين بمواقعهم حسب

السياسة الأمريكية!! وأصبح جولياني أحد المرشحين الأساسيين في الحزب الجمهوري لتولي منصب نائب الرئيس الأمريكي في الانتخابات المقبلة مع توقع عدم استمرار ديك تشيني نائباً للرئيس في ذلك الوقت لظروفه الصحية.

جورج بوش



ومن الرابحين أيضا بالطبع الرئيس الأمريكي جورج بوش نفسه، حيث سمحت له هذه الظروف المأساوية بتضامن الكل وراءه وتحجيم المعارضة له، بل والحصول على صلاحيات كثيرة إضافية من الكونجرس (في مجالات الطاقة واتفاقيات التجارة والأمن وغيرها) لم يكن من السهولة الحصول عليها دون هذه الظروف القهرية!!

كما منعت هذه الظروف نفسها الحرب عليه بسبب فضائح ممارسات الشركات الأمريكية، التي أعرب كثير من الخبراء عن أنها كانت من الممكن أن تقضي عليه لولا ظروف الحرب التي يعيشونها. لم تكن موجة الفضائح المالية للشركات الأمريكية التي بدأت بـ

السياسة الأمريكية!! وأصبح جولياني أحد المرشحين الأساسيين في الحزب الجمهوري لتولي منصب نائب الرئيس الأمريكي في الانتخابات المقبلة مع توقع عدم استمرار ديك تشيني نائباً للرئيس في ذلك الوقت لظروفه الصحية.

جورج بوش



ومن الرابحين أيضا بالطبع الرئيس الأمريكي جورج بوش نفسه، حيث سمحت له هذه الظروف المأساوية بتضامن الكل وراءه وتحجيم المعارضة له، بل والحصول على صلاحيات كثيرة إضافية من الكونجرس (في مجالات الطاقة واتفاقيات التجارة والأمن وغيرها) لم يكن من السهولة الحصول عليها دون هذه الظروف القهرية!!

كما منعت هذه الظروف نفسها الحرب عليه بسبب فضائح ممارسات الشركات الأمريكية، التي أعرب كثير من الخبراء عن أنها كانت من الممكن أن تقضي عليه لولا ظروف الحرب التي يعيشونها. لم تكن موجة الفضائح المالية للشركات الأمريكية التي بدأت بـ

«إنرون» للطاقة وتبعتها شركات أخرى مثل «ورلد كوم» للاتصالات و«زيروكس» وغيرهما إلا رسالة «ناسفة في وجه النظام الرأسمالي الأمريكي على غرار رسالة 11 سبتمبر 2001، فالانهيارات المتتالية للشركات تضرب بعمق «الأمن الاستثماري» لأكبر قوة اقتصادية في العالم مثلما ضرب تفجير مركز التجارة العالمي بعمق أمن المواطن الأمريكي وأفقده الثقة في أعظم قوة في العالم.

ورغم أن الرسالتين هزتا القوة الأمريكية، ولم تؤديا إلى انهيارها، إلا أنهما أوجدتا مناخاً من الوعي السياسي والاقتصادي في العالم بمكامن الضعف في هذه القوة التي مثلت أنموذجاً سياسياً واقتصادياً طالما نودي بالاحتذاء به.

ويطرح انهيار الشركات الأمريكية استفهامات عدة حول ماهية الأزمة، وظروف ظهورها وكيفية تعامل الإدارة الأمريكية معها، وهل ثمة ثغرات طرحها الأنموذج الرأسمالي الذي تدور في فلكه هذه الشركات...؟ وماذا عن تداعيات هذه الأزمة؟ ليس فقط على الاقتصاد الأمريكي، ولكن على الدول ولاسيما العربية التي بدا أنها لا تختلف إداراتها الاقتصادية عما يحدث في أمريكا.



توصيف الأزمة

صلب أزمة انهيار وفساد الشركات الأمريكية هو محاولة القائمين عليها تقليل النفقات وتقديم أرقام وهمية عن أرباح خيالية أسهمت في

«إنرون» للطاقة وتبعتها شركات أخرى مثل «ورلد كوم» للاتصالات و«زيروكس» وغيرهما إلا رسالة «ناسفة في وجه النظام الرأسمالي الأمريكي على غرار رسالة 11 سبتمبر 2001، فالانهيارات المتتالية للشركات تضرب بعمق «الأمن الاستثماري» لأكبر قوة اقتصادية في العالم مثلما ضرب تفجير مركز التجارة العالمي بعمق أمن المواطن الأمريكي وأفقده الثقة في أعظم قوة في العالم.

ورغم أن الرسالتين هزتا القوة الأمريكية، ولم تؤديا إلى انهيارها، إلا أنهما أوجدتا مناخاً من الوعي السياسي والاقتصادي في العالم بمكامن الضعف في هذه القوة التي مثلت أنموذجاً سياسياً واقتصادياً طالما نودي بالاحتذاء به.

ويطرح انهيار الشركات الأمريكية استفهامات عدة حول ماهية الأزمة، وظروف ظهورها وكيفية تعامل الإدارة الأمريكية معها، وهل ثمة ثغرات طرحها الأنموذج الرأسمالي الذي تدور في فلكه هذه الشركات...؟ وماذا عن تداعيات هذه الأزمة؟ ليس فقط على الاقتصاد الأمريكي، ولكن على الدول ولاسيما العربية التي بدا أنها لا تختلف إداراتها الاقتصادية عما يحدث في أمريكا.



توصيف الأزمة

صلب أزمة انهيار وفساد الشركات الأمريكية هو محاولة القائمين عليها تقليل النفقات وتقديم أرقام وهمية عن أرباح خيالية أسهمت في

رفع أسعار أسهم هذه الشركات في الأسواق المالية دون مبررات اقتصادية فعلية بهدف تضليل المستثمرين، ودفعهم إلى الإقبال على شراء أسهم هذه الشركات بصورة كبيرة، مما أسهم في رفع قيمتها بصورة جنونية.

وبالتالي يستفيد مديرو هذه الشركات نتيجة تضخيم مكافآتهم السنوية ومكافآت نهاية الخدمة، في الوقت الذي لا يبالون فيه بالخسائر التي تلحق بحملة الأسهم وأصحاب المعاشات من جراء إفلاس الشركات أو هبوط أسعار الأسهم في البورصة.

وقد بدأت سلسلة فضائح الشركات الأمريكية بـ «إنرون» الأمريكية للطاقة التي بالغت في أرباحها مقدار 6 مليار دولار. وعلى المنوال نفسه كانت الفضائح الأخرى لشركة «ورلد كوم» للاتصالات، و«زيروكس» الأمريكية وغيرهما من الشركات.. بل إن عدوى تضخيم الأرباح انتقلت إلى أوروبا ولا سيما فرنسا، حيث تحدثت صحيفة «لوموند» الفرنسية عن أن شركة «فيفندي يونيفرسال» سعت إلى تضخيم حساباتها بواقع 1.46 مليار دولار.

وأدت ظروف الاقتصاد الأمريكي إلى السعي لتضخيم هذه الأرباح، فيقول مجدي صبحي الخبير الاقتصادي المصري: «إن موجة الانتعاش الطويلة التي مر بها الاقتصاد الأمريكي خلال التسعينيات حتى عام 2000، أدت باستمرار إلى تعزيز الاتجاهات التفاؤلية، وهو ما عزز من الصعود شبه المستمر لقيمة الأسهم. وكان بعضهم قد أشار إلى أن ما

تشهده البورصة هو نوع من اقتصاد الفقاعة، حيث تزيد قيمة الأسهم كثيراً عما هو ممكن وفقاً لمستوى الأرباح، لكن في ظل حالة الرواج غالباً ما لا يلتفت إلى مثل هذه التحذيرات، حتى يتجه الاقتصاد نحو الركود أو الانكماش.. عندها تنكشف الممارسات الخاطئة التي تمت خلال مرحلة الازدهار».

أما الأداة التي استخدمها مديرو الشركات الأمريكية في تضخيم أرباحهم فكانت هي الخداع المحاسبي، وتولى هذا الأمر في حالة إنرون مكتب «أرثر أندرسن». كما لعبت البورصة ذاتها وشركات السمسرة والشركات الاستشارية والصحافة الاقتصادية أدواراً تكميلية في مسلسل انهيار الشركات، وإن لم تقل أهمية في التمويه على المستثمرين الصغار، وبالتالي سرقة عرق جبينهم الناجم عن انهيار قيمة الأسهم التي يحملونها في عدد كبير من الشركات الأمريكية.



أزمة.. الشفافية

أرجع بعض المحللين الاقتصاديين الأمريكيين أزمة تضخيم أرباح الشركات الأمريكية، وتواطؤ مكاتب المحاسبة إلى نقص في الـ«شفافية» يتعرض لها الاقتصاد الأمريكي. وما نحن فيه الآن بخصوص الأسهم السعودية ليس ببعيد عن تلك الحقبة التي عاشتها الولايات المتحدة الأمريكية، والمقصود هو عدم الشفافية والوضوح في السوق السعودي، فتجد شركات لا تدر عوائد بل تجر الخسائر عاماً

تشهده البورصة هو نوع من اقتصاد الفقاعة، حيث تزيد قيمة الأسهم كثيراً عما هو ممكن وفقاً لمستوى الأرباح، لكن في ظل حالة الرواج غالباً ما لا يلتفت إلى مثل هذه التحذيرات، حتى يتجه الاقتصاد نحو الركود أو الانكماش.. عندها تنكشف الممارسات الخاطئة التي تمت خلال مرحلة الازدهار».

أما الأداة التي استخدمها مديرو الشركات الأمريكية في تضخيم أرباحهم فكانت هي الخداع المحاسبي، وتولى هذا الأمر في حالة إنرون مكتب «أرثر أندرسن». كما لعبت البورصة ذاتها وشركات السمسرة والشركات الاستشارية والصحافة الاقتصادية أدواراً تكميلية في مسلسل انهيار الشركات، وإن لم تقل أهمية في التمويه على المستثمرين الصغار، وبالتالي سرقة عرق جبينهم الناجم عن انهيار قيمة الأسهم التي يحملونها في عدد كبير من الشركات الأمريكية.



أزمة.. الشفافية

أرجع بعض المحللين الاقتصاديين الأمريكيين أزمة تضخيم أرباح الشركات الأمريكية، وتواطؤ مكاتب المحاسبة إلى نقص في الـ«شفافية» يتعرض لها الاقتصاد الأمريكي. وما نحن فيه الآن بخصوص الأسهم السعودية ليس ببعيد عن تلك الحقبة التي عاشتها الولايات المتحدة الأمريكية، والمقصود هو عدم الشفافية والوضوح في السوق السعودي، فتجد شركات لا تدر عوائد بل تجر الخسائر عاماً

وراء الآخر، وعلى الرغم من ذلك تجد أسهمها في ارتفاع غير مبرر، مما يجعل حالة التضخم التي يعيشها السوق أمراً خطيراً جداً، إن لم يتم الانتباه إليه قبل فوات الأوان.

وبالعودة إلى السوق الأمريكية فقد ذكر أغلب المحللين أنه من الطبيعي حدوث كل ذلك في ظل اندفاعات العولمة والمضاربات التي تتم في البورصات وسعي الكثيرين لتعظيم أرباحهم. ويعتبر هؤلاء أن العلاج ليس معقداً وهو مزيد من الضوابط والرقابة على أداء هذه الشركات. وهذا ما سعت إليه إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش لمواجهة أزمة فساد الشركات.

فخرج الرئيس بوش في خطابات وتصريحات عديدة له يتوعد بملاحقة رؤساء الشركات المتورطين في تزوير الحسابات على غرار ما فعله مع بن لادن وتنظيم القاعدة. وبالسرعة نفسها التي اتخذ بها قراره بضرب أفغانستان تم الإسراع بإصدار قانون لإصلاح الشركات في شهر يوليو 2002، يقضي بتشديد العقوبات ضد جرائم الاحتيال، ويعزز الإشراف على شركات المحاسبة، وبمقتضى هذا القانون تم تشكيل مجلس جديد لرقابة شركات المراجعة المحاسبية، وهو قطاع كان ينظم بدرجة كبيرة أحواله ذاتياً.

كما أنه بموجب القانون الجديد تمت مضاعفة عقوبة السجن ليصل حدها الأقصى إلى 20 عاماً بالنسبة للمديرين الذين يتورطون في عمليات تحايل. واستحدث القانون جريمة جديدة فيما يتعلق بالتحايل في قطاع الأوراق المالية تصل عقوبتها القصوى إلى السجن مدة 25 عاماً.

على هذا النحو تعاملت إدارة بوش مع أزمة فساد الشركات، وهو ما دفع بعضهم إلى القول إن الرئيس بوش ينوي القيام بدور الشرطي للأسواق المالية على غرار دوره في حفظ الأمن على المستوى الدولي دون علمه بأنه سبب ضياع الأمن في هذه القرية الصغيرة.

وقد ذكر أغلب المحللين والاقتصاديين أن هذا القانون يعيد بصورة أقوى ما يسمى بالتنظيم Regulations إلى الاقتصاد الأمريكي بعد عقدين من هيمنة فكر المحافظين الجدد المعادي لأي نوع من التنظيم للاقتصاد. واللافت هنا أن ذلك جاء على عكس برنامج بوش الذي جاء إلى السلطة معبأ بإيديولوجية كاملة معادية كلية لأي دور للدولة في الاقتصاد، وحاملاً لبرنامج يعيد حرية السوق، ويمنح الأغنياء تنازلات ضريبية هائلة. واضطر هذا الرئيس نفسه لإعادة التنظيم وتدخل الدولة في الاقتصاد............. عجباً لهذا الشرطي!!!

وفي الوقت الذي حاول فيه بوش مواجهة الأزمة بقانون يضبط حركة الأسهم والشركات، فإن ثمة ثغرات في بنية الأنموذج الرأسمالي الأمريكي تعد خلفية رئيسة لأزمة الشركات الأمريكية، وقد دفعت هذه الثغرات رجال الأعمال الأمريكيين إلى الاستكلاب والتوحش المالي على حساب المستثمرين الصغار من الشرائح الاجتماعية الأضعف.. وأهم هذه الثغرات هي:

ـ الإفراط في تهميش دور الدولة في النظام الأمريكي بدعوى المقولة الرأسمالية التقليدية «دعه يعمل دعه يمر»، وهذا خلق عدم مبالاة بحقوق المجتمع، فلم تكن الشركات الأمريكية لتجرؤ على

تضخيم أرباحها وخداع مالكي الأسهم لولا عدم الاكتراث بهيبة الدولة الأمريكية قبل 11 سبتمبر، كما أن الحكومات الأمريكية على اختلاف توجهاتها ديمقراطية كانت أم جمهورية تكاسلت في الرقابة المالية تحت مبرر تحرير الشركات من القيود التي تعطلها وتعوق سرعة تقدمها لمواجهة المنافسة العالمية.

ـ أصبح بحث الفرد عن الربح السريع، وعدم الشبع المالي، قيمة تضيع حياة الفرد الأمريكي، وتدفعه إلى عدم الاكتراث بالحق العام الاقتصادي للمجتمع. وللأسف الشديد فإني أرى بوادر هذا التوجه تغزو السوق السعودي لدرجة أصبح الوضع معها مخيفاً.. فالتسابق والجري وراء الربح السريع بدأ يطغى على كل التعاملات داخل سوقنا المالي.

ولو تطرقت إلى الدوافع التي تجعل من مديري تلك الشركات ـ الأمريكية طبعاً ـ يقومون بتلك التصرفات لوجدنا أن من ضمنها الراتب السنوي لبعضهم الذي قد يتجاوز المليون دولار، وهذا بالتالي يؤدي إلى قيامهم بتزوير حسابات شركتهم وتضخيم أرباحها.. بدافع الجشع، وعدم الاهتمام بحق مال المجتمع، الأمر الذي يراه بعضهم ناتجاً عن التدهور القيمي الذي أصاب المجتمع الأمريكي في العقود الماضية.

لذلك نجد النظام الديمقراطي الذي كان يتباهى بقيمة الشفافية والحيادية أصبح محل تساؤل، وربما شماتة من أنظمة حكم استبدادية. فحينما يكشف النقاب عن أن شركة إنرون للطاقة أسهمت في تمويل حملة الرئيس الأمريكي بوش، فإن ذلك يعني أن الديمقراطية الأمريكية تصنعها قلة فاسدة، وهو ما يخرج بالأوضاع

في أمريكا من مصاف وحسابات التقدم والتحضر، ويدفع بها إلى حسابات التخلف، ويضعها من حيث معايير الممارسة السياسية في مصاف دول العالم الثالث فقط لا غير. وبناء علية فإن سياسة 99,99٪ القائمة في العالم الثالث أرحم بكثير من الديمقراطية الكاذبة التي يسعى أصحابها إلى أن يفرضوها على ذلك العالم الفقير بطرق شتى سواءٌ عن طريق الاحتلال أم عن طريق الضغط السياسي والاقتصادي المؤدي إلى حالة من الاستسلام لتلك الضغوط. كل ذلك لكي يسهل من خلالها وعند انضمام تلك الدول الفقيرة إلى منظمة التجارة العالمية إلى تطبيق تلك السياسات التي تخولهم فرض الهيمنة الاقتصادية على تلك الشعوب مما يجعل من الفقير أكثر فقراً والغني أكثر غنى.

ولعل الكاتبة الأمريكية «إيفيلين أيريتاني» كانت أكثر صدقاً من غيرها حينما قالت وعلقت للأسوشيتيد برس في شهر يوليو 2002 قائلة: «إن سقوط شركاتنا يعني انهيار ثقة العالم في قيمنا التي نكتسب قوتنا من خلالها».

لا شك في أن أزمة الشركات الأمريكية تشكل مدخلاً لتداعيات مستقبلية سيئة على الاقتصاد الأمريكي، ولا سيما على المواطن نفسه الذي وجد أن اللعبة التي يتسلى بها يومياً - بسماع أخبار ارتفاع وانخفاض أسعار الأسهم في بورصة نيويورك وغيرها ليحدد أين يوجه مدخراته وكم من الأسهم سيشتري - أضحت لعبة خطرة، لأنها فقدت قواعد النزاهة وهو فقدان للثقة في الأمن الاقتصادي للبلاد.

ومعروف أن مئة مليون أمريكي يملكون أسهماً وسندات في البورصة. وتبلغ أرصدة المواطنين العاديين الذين يستثمرون أنصبتهم في صندوق المعاشات ومدخرات وحسابات المعاشات الفردية نحو خمسة تريليونات دولار، كما تمثل استثمارات أصحاب المعاشات والحكومات المحلية وحكومات الولايات والنقابات العمالية نحو 60٪ من الأسهم في جميع الشركات العامة الأمريكية.

ويرى الدكتور محمد سيد سعيد (مدير مكتب الأهرام بأمريكا ونائب رئيس مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام) أن خطورة الأزمة بالنسبة للمواطن الأمريكي هي ما يتعلق بثقافتهم الاقتصادية والأخلاقية، إذ يلعب المال الدور الرئيس والكاسح في أسلوب الحياة الأمريكي.. ورغم ذلك فالجانب الأخلاقي لا يقل أهمية. ففهم الأمريكي العادي للرأسمالية والملكية الفردية والسوق والدولة هو أنه يكسب ماله في سوق منضبطة بأخلاقيات صارمة تحميها الدولة.

على الصعيد نفسه، فهناك توقعات بأداء سيئ للاقتصاد الأمريكي في الأعوام المقبلة، فالنمو الأمريكي أصبح على حافة الهاوية فتوقع مراقبون اقتصاديون انخفاض الاستثمارات الأجنبية المباشرة في الولايات المتحدة الأمريكية. وذكرت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية في أغسطس 2002، أن هذه التوقعات تأتي استناداً للانخفاض الحاد للاستثمارات الأجنبية المباشرة في العام الماضي 2001، لتصل إلى 124 مليار دولار بعد أن كانت قد بلغت 301 مليار دولار في عام 2000.

فالمستثمرون الأجانب الذين أسهموا في إعطاء قوة دفع كبيرة للنمو الاقتصادي خلال التسعينيات، يُبدون الآن الكثير من الحذر قبل الدخول في أية أنشطة بالسوق الأمريكية. ولا شك في أن هذا مؤشر على فقدان الثقة بالاقتصاد الأمريكي.



تداعيات 11 سبتمبر على العرب

لم تقتصر تداعيات الفساد المتتالية للشركات الأمريكية على الاقتصاد الأمريكي فقط، إنما تخطتها إلى الدول النامية ومنها العربية.. فالأنموذج الرأسمالي بكل قيمه وأدواته الاقتصادية تم تنميطه في كل العالم من خلال مؤسسات البنك الدولي وصندوق النقد، وكذلك عمليات تحرير التجارة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هناك استثمارات عربية في الغرب ولا سيما أوروبا وأمريكا، من المحتمل أنها ستتأثر بما حدث للشركات الأمريكية، والمستثمرون العرب كغيرهم من المستثمرين العالميين في السوق الأمريكية قد نالتهم بعض الخسائر من جراء التدهور البالغ في قيمة الأسهم، ومن المتوقع أن يلتزموا كغيرهم من المستثمرين جانب الحذر في هذه الأيام، لكن المشكلة الحقيقية أنه طالما لا يوجد البديل الملائم أمام هؤلاء المستثمرين فعودتهم للاستثمار في السوق الأمريكية شبه حتمية ولا سيما أننا نتحدث عن اقتصاد

فالمستثمرون الأجانب الذين أسهموا في إعطاء قوة دفع كبيرة للنمو الاقتصادي خلال التسعينيات، يُبدون الآن الكثير من الحذر قبل الدخول في أية أنشطة بالسوق الأمريكية. ولا شك في أن هذا مؤشر على فقدان الثقة بالاقتصاد الأمريكي.



تداعيات 11 سبتمبر على العرب

لم تقتصر تداعيات الفساد المتتالية للشركات الأمريكية على الاقتصاد الأمريكي فقط، إنما تخطتها إلى الدول النامية ومنها العربية.. فالأنموذج الرأسمالي بكل قيمه وأدواته الاقتصادية تم تنميطه في كل العالم من خلال مؤسسات البنك الدولي وصندوق النقد، وكذلك عمليات تحرير التجارة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هناك استثمارات عربية في الغرب ولا سيما أوروبا وأمريكا، من المحتمل أنها ستتأثر بما حدث للشركات الأمريكية، والمستثمرون العرب كغيرهم من المستثمرين العالميين في السوق الأمريكية قد نالتهم بعض الخسائر من جراء التدهور البالغ في قيمة الأسهم، ومن المتوقع أن يلتزموا كغيرهم من المستثمرين جانب الحذر في هذه الأيام، لكن المشكلة الحقيقية أنه طالما لا يوجد البديل الملائم أمام هؤلاء المستثمرين فعودتهم للاستثمار في السوق الأمريكية شبه حتمية ولا سيما أننا نتحدث عن اقتصاد

ضخم يبلغ الناتج المحلي الإجمالي فيه نحو 30٪ من حجم الناتج العالمي، وبالتالي فالقضية التي تستحق البحث والتفكير هي: كيف يمكن توفير البدائل الملائمة أمامهم في الأسواق العربية والإسلامية؟ لا سيما أن حجم الاستثمارات العربية في الخارج تتراوح ما بين 800 ـ 2400 مليار دولار.. طبقاً لتقديرات مركز الدراسات الخليجية في لندن عام 2001.

إلا أن الملاحظ بعد أحداث 11 سبتمبر عودة أموال خليجية كثيرة جداً.. ما انعكس على الاقتصاد المحلي والخليجي، فقد ازدهر السوق والاستثمار العقاري والشركات المسهمة وانعكس ذلك على دخل الفرد.

كذلك أبرزت أزمة الشركات الأمريكية بعد أحداث 11 سبتمبر، عدم وجود الثقة بمعايير الغرب الاقتصادية، فإذا كان ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ مكتب آرثر أندرسن العالمي للمراجعة والمحاسبة فاسداً، ويضخم أرباح الشركات التي يتعامل معها، فكيف يمكن لشركة في الدول العربية أن تلجأ له بعد ذلك أو حتى لغيره من المكاتب الأمريكية التي كانت بعض الشركات في الدول النامية تعتبرها رمزاً للنزاهة المحاسبية العالمية؟

بل إن الأمر سينصرف إلى عدم الثقة في كفاءة المؤسسات المالية والمصارف الأمريكية ذات الصيغة العالمية المتعددة الجنسية في تقويم الجدارة الائتمانية للمقترضين الكبار، وهذا جعل الشركات الأوروبية التي تطبق معايير المحاسبة الأمريكية تتراجع عن تطبيق هذه

المعايير، وبدأ المسهمون في هذه الشركات يتشككون في مدى صدق بياناتها المالية.

ولعل من التداعيات أيضا امتداد التحقيقات إلى الشركات المتعاملة مع الشركات المنهارة والمفلسة داخل أمريكا وخارجها، وهذا بالطبع سيطال الشركات العربية والإسلامية التي لديها أنشطة وأعمال مع هذه الشركات.

وقد ذكر الدكتور محمد شريف بشير أستاذ الاقتصاد بماليزيا: «أن المسلمين الذين لديهم استثمارات وأنشطة تجارية مع الشركات الأميركية ليسوا بمأمن من وقوعهم ضحية ممارسات هذه الشركات التي تتسم بالاحتيال والخداع وعدم الشفافية، مما يستدعي مراجعة التعاملات معها وعدم الوثوق المطلق بها.

ويذكر في هذا السياق ما أعلنته شركة الراجحي السعودية (أكبر الدائنين الذين لا يتمتعون بضمانات) أن خسائرها الأولية المحتملة غير المضمونة لدى شركة إنرون الأميركية تبلغ 101.3 مليون دولار ومشكوك في قدرة إنرون على السداد.

في كل الأحوال فإن ثغرات الأنموذج الرأسمالي ستدفع الدول النامية، ومنها العربية إلى إعادة النظر في الثقة المفرطة بهذا الأنموذج وقيمه، وأدواته الاقتصادية، كما أن إعادة تقوية الدولة أصبح ضرورياً ليقع على عاتقها مسؤولية ضمان حقوق الناس وتقويم اعوجاج السوق الحرة.

يضاف إلى ذلك ضرورة إعادة النظر في دور الشركات في الدول النامية لتصبح أكثر التصاقاً بمصالح الناس، وحتى يمتلك رجال الأعمال مواصفات المسؤولية الاجتماعية لأنهم آنذاك «لن يقدموا على سرقة الأموال أو تضخيم الأرباح».



الجماعات اليهودية

أما أكثر المكاسب من أحداث 11 سبتمبر فقد حصلت عليها الجماعات اليهودية التي لم تجد صعوبة بعد ذلك في ربط سلوك الفلسطينيين بالجماعات الإرهابية وتبرير ممارساتها الوحشية في الأراضي المحتلة بما قامت به الولايات المتحدة في أفغانستان للأسباب نفسها كما زعموا!!



العرب يتأثرون

وبينما كان بعض العرب، والأمريكيون من أصل عربي في الولايات المتحدة يحاولون التنصل من هذه الحادثة وإبعاد أنفسهم وأغلبية الشعوب العربية عن فكر وأساليب الجماعات الإرهابية المتطرفة، فقد خان التوفيق بعض المسؤولين الذين حاولوا تحقيق مكاسب سياسية

يضاف إلى ذلك ضرورة إعادة النظر في دور الشركات في الدول النامية لتصبح أكثر التصاقاً بمصالح الناس، وحتى يمتلك رجال الأعمال مواصفات المسؤولية الاجتماعية لأنهم آنذاك «لن يقدموا على سرقة الأموال أو تضخيم الأرباح».



الجماعات اليهودية

أما أكثر المكاسب من أحداث 11 سبتمبر فقد حصلت عليها الجماعات اليهودية التي لم تجد صعوبة بعد ذلك في ربط سلوك الفلسطينيين بالجماعات الإرهابية وتبرير ممارساتها الوحشية في الأراضي المحتلة بما قامت به الولايات المتحدة في أفغانستان للأسباب نفسها كما زعموا!!



العرب يتأثرون

وبينما كان بعض العرب، والأمريكيون من أصل عربي في الولايات المتحدة يحاولون التنصل من هذه الحادثة وإبعاد أنفسهم وأغلبية الشعوب العربية عن فكر وأساليب الجماعات الإرهابية المتطرفة، فقد خان التوفيق بعض المسؤولين الذين حاولوا تحقيق مكاسب سياسية

بربط القضية الفلسطينية والغضب العربي من السياسة الأمريكية بهذه الحوادث الإرهابية. وحدث هذا في غيبة المعرفة الدقيقة بتأثير هذه الحوادث في المواطنين الأمريكيين وعدم القدرة على قبول أي تبرير لحادثة بهذه البشاعة. ولم تكن الجماعات اليهودية ترغب في أكثر من ذلك لتشويه صورة العرب وإظهار كراهيتهم المستمرة للأمريكيين والإسرائيليين على السواء!!

وتأثر المواطنون العرب والمسلمون في أمريكا كثيراً بشكل سلبي بعد ذلك، وسمعنا حكايات عن مضايقات في المدارس جعلت بعض الأهالي يمنعون تلاميذهم من الذهاب للمدارس، وسوف يرد ذكر بعض هذه الممارسات لاحقاً، كما توقف بعض الباعة الجوالين لأيام تخوفاً من بعض المتعصبين، وعلى الرغم من أن جميع الذين قابلتهم لمدة أشهر بعد الحادث (في كاربنديل) أكدوا أنه لم تحدث مضايقات مباشرة لهم بسبب أنهم عرب، إلا أنهم كانوا يشعرون بنظرات غير مريحة لهم وبإحساس بنظرة اتهام لمن يتقابلون معه، وسعى بعض العرب والمسلمين الأمريكان إلى المشاركة في موجة الوطنية الأمريكية سواء بتعليق الأعلام الأمريكية على سياراتهم ومنازلهم أو بالمشاركة في الخدمات التطوعية التي وحدت الشعب الأمريكي في وقت كانوا يحتاجون فيه إلى التضامن، بل زاد بعضهم من هذا الاتجاه في محاولة إيجاد أسماء أجنبية يقومون بالتعامل بها للاندماج في المجتمع الأمريكي بدلاً من أسمائهم العربية الأصلية أو إلى جانبها!!

ولم يكن سقوط مركز التجارة العالمي مجرد سقوط برجين؛ فهو يمثل ذكريات لها قيمة لدى أغلب مواطني نيويورك، بينما كانت القصص المأساوية لعائلات الضحايا تتصدر يومياً وسائل الإعلام الأمريكية، والأرواح البشرية هي أكبر الخسائر التي لا يتحملها الأمريكيون.

ومن القطاعات التي تأثرت سلبياً إلى جانب شركات الطيران هو القطاع المالي، فبجانب خسارة عدد كبير من الخبراء والمحللين الماليين ضمن ضحايا الحادث، فقد سعى الكثيرون إلى الانتقال لمدن ودول أخرى بعد أن أصبح العمل في الحي المالي يصيبهم بالذعر، ولا سيما بسبب العمل في الأدوار العليا ورؤية حطام برجي مركز التجارة الرئيسين كل يوم من نوافذهم. وكانت هذه هي الضربة الأولى للقطاع المالي الذي عانى بعد ذلك بشدة من انكشاف قضايا الفساد في عدد من أشهر مؤسساته مثل ميريل لينش، بالإضافة إلى تورط شركات المحاسبة في قضايا التلاعب في ميزانيات الشركات الأمريكية وقد سبق أن تطرقنا إلى ذلك. وقد ظل الدخان يتصاعد لأكثر من شهرين في موقع الحادث على الرغم من برودة الجو وسقوط الأمطار، وكلما واجهت الإدارة الأمريكية، انتقاداً بسبب تضييق الحرية في الداخل أو أخطاء للجيش الأمريكي في أفغانستان، كانت صورة الدخان المتصاعد من الحطام أبلغ رد يسكت المعارضين!!



قوانين غير مسبوقة

دعونا نتذكر ماذا حصل في 11 سبتمبر 2001 م.. حدث هجوم كبير ضدّ الولايات المتحدة، قتل فيه 3062 شخصاً. ويعتقد أن المسؤول الأول عنه هو أسامة بن لادن، قائد جماعه تسمى بالقاعدة، حدث الهجوم في مدينتي نيويورك وواشنطن تحديداً، ولكن الهجوم كان على نيويورك أكبر من حيث الحجم وعدد الضحايا.

تم تنفيذ الهجوم عن طريق اختطاف طائرات نقل مدنية وتجارية، واستعمالها في الاصطدام بالمباني، إذ اصطدمت طائرة في تمام الساعة 7:48 صباحاً بتوقيت نيويورك، بأحد مباني مجمع التجارة العالمي في نيويورك، وبعدها بدقائق اصطدمت طائرة أخرى بالمبنى الآخر. وبعدها بدقائق اصطدمت طائرة أخرى بمبنى وزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون، وكان من المفترض أن تصطدم طائرة رابعة بهدف رابع، لكنها تحطمت أو حُطِمت قبل الوصول للهدف.

حدثت تغييرات كبيرة في السياسة الأمريكية بعد هذه الهجمات، وكانت هذه الهجمات دافعاً لأمريكا لإعلان الحرب على الإرهاب، الذي أدى إلى الحرب في أفغانستان وسقوط نظام حكم طالبان فيها، والحرب على العراق بعد ذلك، وإسقاط نظام الحكم هناك أيضاً.

ويعتقد الكثيرون أن الحرب على الإرهاب التي تدعو له الولايات المتحدة هو غطاء لتنفيذ المصالح الأمريكية التجارية والاقتصادية، تحت غطاء دولي يجنبها المجاهرة بأهدافها الحقيقية. فلم يكن بوسع

أحد قبل أحداث 11 سبتمبر أن يجنح به الخيال ويتصور أن تتحول الأمور على هذا النحو الدراماتيكي، فمسحة التفاؤل وأحاديث الديمقراطية وتحولاتها وقضايا حقوق الإنسان تحولت إلى هواجس ومخاوف من الدخول في نفق مظلم ـ ليس على مستوى العالم فحسب ـ وإنما على مستوى الداخل الأمريكي ذاته.

فقد أسهمت القوانين التي سُنَّت والتدابير التي اتُّخذت في أعقاب أحداث 11 سبتمبر في دفع بعضهم إلى تبنِّي مقولة: إن المجتمع الأمريكي ـ بهذه التغيرات ـ بات راسبًا في مجال الحريات، وإن «دولة القانون» صارت على مقربة من دول العالم الثالث التي طالما لاحقتها الهيئات الأمريكية بتقاريرها حول أدائها السيئ في هذه الميادين.

وعلى ما في هذا القول من مبالغة، فإن الأمر الذي لا يمكن إنكاره أن قضايا حقوق الإنسان ومجال الحريات في الداخل الأمريكي، وقضايا التحول الديمقراطي في دول العالم الثالث، كل هذه الدوائر طالتها التأثيرات السلبية بمستوى أو بآخر، مع اختلاف الوزن النسبي لدرجات التأثر بها لعنصر الوقت، أي إن هذه الآثار ظهرت سريعاً في بعض هذه الدوائر، وبعضها الآخر يقف على قائمة الانتظار. وبناء عليه، فإن استجلاء الظلال السلبية لتداعيات 11 سبتمبر على قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان، تستدعي البحث أولاً في الاستجابة التي قدمتها الإدارة الأمريكية للتعاطي مع الحدث.



الإعلام ودوره القوي

في الحقيقة قام الإعلام الأمريكي والمسيطر عليه فعلياً من قبل منظمات إعلامية مناهضة للإسلام والمسلمين باستغلال 11 سبتمبر أسوأ استغلال، فالإعلام كان هو المسيطر على الوضع والمحرك الرئيس للسياسة الأمريكية التي اعتبرت الإدارة الأمريكية معها أن فضاء الحريات في المجتمع الأمريكي شكل مساحات مناسبة لتمدد الأنشطة الإرهابية. ومن هذا المنطلق حاولت الإدارة الأمريكية إفهام الشعب الأمريكي عن طريق وسائل الإعلام المختلفة (المرئية والمقروءة والمسموعة) بأن الأمن القومي الأمريكي ينبغي أن يكون الشاغل الأكبر في مرحلة استثنائية من حياة المجتمع الأمريكي.

وبناء عليه فقد تناقلت الأخبار في الأشهر التي تلت أحداث11 سبتمبر هجمات شرسة من الصحافة الأمريكية على بعض الجمعيات الخيرية الإسلامية، ووصفتها بالإرهاب دون تقديم أي أدلة يمكن الاعتماد عليها سوى تخرصات وأوهام مدعومة بالكامل بآلة القدرة على تجميد الأموال المودعة لدى البنوك الأمريكية والبنوك العالمية، ولا تزال الهجمة قائمة، وكل نصف شهر يطالعنا الرئيس الأمريكي بإضافة جمعيات خيرية إسلامية لقائمة تجميد الأرصدة والإرهاب. ونعلم أن العمل التطوعي والخيري في أمريكا يندرج تحت ما يسمى بالجمعيات اللاربحية واللاحكومية:

Non Profit Organization (Non Government Organization)، وتختصر بعبارة (NGO) (NPO) وإذا دخلت شبكة الإنترنت وحدها تجد أن هناك قرابة مليوني موقع تحت كلمة (NGO). وتشكل الجمعيات اللاربحية عاملاً فعالاً في خدمة الناتج المحلي للاقتصاد الأمريكي (GDP).

ولعل أجواء الرعب التي خلفتها أحداث 11 سبتمبر ـ وما تبعها من كابوس الجمرة الخبيثة ـ وفرت أجواء مواتية مكنت الإدارة الأمريكية من تمرير قوانين واتخاذ تدابير غير مسبوقة في الخبرة الأمريكية. فقد استهل الرئيس الأمريكي إجراءاته في تعزيز الأمن الداخلي بإضافة حقيبة وزارية جديدة تسمى وزارة الأمن الداخلي، هذه الوزارة ظلت مثارًا للسخرية باعتبارها علامة من علامات النظم الشمولية. وكان التطور الأبرز ـ في مجال تقليص الحريات ـ القانون الذي وافق عليه الكونغرس لمكافحة الإرهاب، ذلك القانون الذي حصل على أغلبية تسعة أصوات من أعضاء الكونغرس في حين عارضه عضو واحد.

بعد هذا القانون الذي يمثل لحظة فارقة في تاريخ حقوق الإنسان والحريات في المجتمع الأمريكي، لم تعد أمريكا هي أمريكا بالنسبة لنا نحن العرب والمسلمين، ولا سيما نحن السعوديين. فقد أعطت مواد القانون صلاحيات هائلة لوكالة الاستخبارات الأمريكية.

<u>بحيث أصبح مخولاً لها:</u>

1 ـ توقيف الأجانب واعتقالهم دون تهمة.

2 ـ التنصّت على المكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني، وكم عانينا من ذلك.

3 ـ تفتيش المنازل سرًّا والاطلاع على سجلات الشركات.

بالإضافة إلى كل ذلك، فإن سلطات التحقيق تحاول الحصول على رخص قانونية تسمح لها باستخدام بعض وسائل الضغط لانتزاع اعترافات من المقبوض عليهم. هذه القوانين وتلك التدابير أعادت إلى الأذهان ما عاشه المجتمع الأمريكي في مطلع الخمسينيات، حيث سادت موجة اعتقالات وملاحقات طالت كبار موظفي الدولة، واتسعت دائرتها لتشمل السياسيين والأكاديميين ونجوم السينما تحت غطاء محاربة الشيوعية. وقد عرفت هذه الظاهرة «بالمكارثية» نسبة إلى السيناتور جوزيف مكارثي الذي كان المحرك الأساس لها. وقد ذكر لي بعض الأمريكان المتعاطفين مع وضعنا ممّن يشعرون بتلك التفرقة بين مجتمعهم أصلاً، أن هذه هي أمريكا، تطبق القانون على من تراه تحت القانون وتتغاضى عمن هو أصلاً فوق القانون.

والملاحظ أن تلك القوانين وهذه التدابير لم تحرك ثائرة المجتمع الأمريكي، لأن الشعب الأمريكي مازال مأخوذاً بما حدث في 11 سبتمبر وما تبعها، ولأن هذه القوانين وتلك التدابير ستتوجه إلى الأجانب وذوي الأصول غير الغربية. غير أن استمرار تفاعلات هذه

القوانين وتلك التدابير ربما يطال المجتمع الأمريكي نفسه، الأمر الذي يفتح الآفاق على توقع حدوث تصادم بين عقلية الإدارة السياسية البراغماتية وآمال وطموحات الشارع الأمريكي. فالأول سيلِحّ على الأمن، والثاني سيبحث عن استعادة الحقوق والحريات التي سلبتها منه قوانين وتدابير مكافحة الإرهاب، وربما دفع هذا إلى حدوث توترات وصراعات غير مسبوقة في النسيج الأمريكي تضع أمريكا على مشارف مرحلة جديدة. وأتذكر أن أحد الأصدقاء في السعودية قد أرسل لي بريداً إلكترونياً خلال تلك الأزمة وأورد فيه قصة جميلة عنوانها (قلد الحصان وتغلب على هموم الحياة).

وكان فيها من الحكمة ليقول لك إنه كلما حاولت أن تنسى همومك، فهي لن تنساك وسوف تواصل إلقاء نفسها فوق ظهرك، ولكنك دوماً تستطيع أن تقفز عليها لتجعلها مقوية لك، وموجهة إلى دروب نجاحك. وتقول القصة إن حصان أحد المزارعين قد وقع في بئر عميقة ولكنها جافة، وأجهش الحيوان بالبكاء الشديد متألماً من أثر السقوط، واستمر هكذا ساعات عدة، كان المزارع خلالها يبحث ويفكر كيف سيستعيد الحصان؟

ولم يستغرق الأمر طويلاً كي يُقنع نفسه بأن الحصان قد أصبح عجوزًا وأن تكلفة استخراجه تقترب من تكلفة شراء حصان آخر، هذا إلى جانب أن البئر كانت جافة منذ زمن طويل، وتحتاج إلى

ردمها بأي شكل. وهكذا، نادى المزارع جيرانه وطلب منهم مساعدته في ردم البئر كي يحل مشكلتين في آن واحد، (التخلص من البئر الجافة ودفن الحصان).

وبدأ الجميع في استخدام المعاول في جمع الأتربة والنفايات وإلقائها في البئر. في بادئ الأمر، أدرك الحصان حقيقة ما يجري حيث أخذ في الصهيل بصوت عالٍ ملؤه الألم وطلب النجدة. وبعد قليل من الوقت اندهش الجميع لانقطاع صوت الحصان فجأة، ونظر المزارع إلى داخل البئر وقد صعق لما رآه، فقد وجد الحصان مشغولاً بهز ظهره! كلما سقطت عليه الأتربة فيرميها بدوره على الأرض ويرتفع هو بمقدار خطوة واحدة لأعلى.

وهكذا استمر الحال، الكل يلقي الأوساخ إلى داخل البئر فتقع على ظهر الحصان فيهز ظهره فتسقط على الأرض حيث يرتفع خطوة بخطوة إلى أعلى. وبعد المدة اللازمة لملء البئر، اقترب الحصان من سطح الأرض حيث قفز قفزة بسيطة وصل بها إلى سطح الأرض بسلام.

وبالمثل، تلقي الحياة بأوجاعها وأثقالها عليك، فلكي تكون حصيفًا، عليك بمثل ما فعل الحصان حتى تتغلب عليها، فكل مشكلة تقابلنا هي بمثابة عقبة وحجر عثرة في طريق حياتنا، فلا تقلق، لقد تعلمت تواً كيف تنجو من أعمق آبار المشكلات بأن تنفض هذه المشكلات عن ظهرك وترتفع بذلك خطوة واحدة لأعلى.

مع مرور الوقت بدأنا نتأقلم مع الوضع إلا أنه بين الفينة والأخرى، كان يحدث ما يهيج المشاعر من الطرفين، وأذكر أنه مع انقضاء عام على أحداث سبتمبر وفي ذكرى ذلك اليوم (11 سبتمبر 2002)، كان المجتمع الأمريكي بأسره يتذكر ذلك الحادث حيث أقيمت مراسم العزاء وتُليت الخطب ودعي لها أهالي الضحايا واستثيرت مشاعر الناس حول الإسلام والمسلمين وطالب الأهالي والإعلام إدارة بوش بفعل شيء ومحاولة القبض على أسامة بن لادن، الذي - إلى ذلك الوقت - لم تستطع الولايات المتحدة أن تصل إليه، كل ذلك كان يشحن المواطن الأمريكي ويثيره تجاه كل مسلم أو عربي بشكل خاص. وقد صادف ذلك اليوم أن كنت كما هو معتاد لديَّ أن آخذ أبنائي من المدرسة.. كان ذلك عند الساعة 12 ظهراً. كان معي أيضا بعض أطفال الإخوان العرب والسعوديين، وكنت قد توجهت إلى المستشفى لآخذ زوجتي من هناك، وعند وصولي إلى إحدى الإشارات المرورية كانت تعطي الضوء الأخضر إلا أنه بعد أن وصلت إلى منتصف التقاطع أضاءت اللون الأصفر، فلاحظت وجود سيارة شرطة، إلا أن الأمر بالنسبة لي كان طبيعياً، فلم أرتكب مخالفة على حد علمي، رغم ذلك فقد لحقت بي سيارة الشرطة وطلبت مني التوقف. ولكي أكون أكثر دقة فقد توقعت أن يحدث ذلك عند رؤيتي لها، وبناء عليه فقد تأهبت على الأقل نفسياً لذلك. فقد كان اليوم هو ذكرى11 سبتمبر، وكانوا يتصيدون أي غلطة.. إلا أنني توقعت أن يكون السبب هو عدم جلوس الأطفال في مقاعدهم لأن ذلك يعد مخالفة مرورية.

على أية حـال.. أوقفت السيارة وعندما جاء الشرطي.. أقصد الشرطية.. بادرتني وطلبت الرخصة وبطاقة تسجيل السيارة (الاستمارة)، وسألت عن التأمين، دون تردد أو حتى سؤال عمّا فعلت قمت بإعطائها بطاقة التأمين. عندها قالت بأني خالفت السير، وقطعت الإشارة، وقامت بسحب الرخصة، وطلبت مني أن أحضر للمحاكمة في وقت قامت هي بتحديده، وفي حال عدم رغبتي في المحاكمة أقوم بدفع سبعين دولاراً، وكانت المحكمة في مدينة أخرى. في الواقع لم أتحدث بكلمة سوى (OK)، ليس لشيء ولكن لعلمي أن كل الأمور كانت ضدنا في ذلك الوقت، علاوة على أن ذلك اليوم هو ذكرى 11 سبتمبر كما ذكرت سابقاً. كنت أعلم أنني لم أرتكب مخالفة.. وأعلم أيضا أنها تعلم، ولكنها توقعت مني أن أبدي اعتراضي وأرفض قرارها، ولكنها تفاجأت بعدم سؤالي عن سبب المخالفة وامتثالي التام لقرارها. أخذت المخالفة وقمت بالانتظار مدة أسبوع لكي تصل المخالفة إلى المحكمة. وفي إحدى الأيام توجهت إلى المحكمة في مدينة مرفس بورو التي تبعد حوالي 30 كيلو متراً عن كاربنديل، وعند وصولي سألت الموظف المختص عن المخالفة، فسألني عن بعض المعلومات ومن ثم قام بالبحث على ضوئها، وبعد دقيقتين رد عليّ بقوله: لا يوجد عليك شيء، ولكن بإمكانك أن تعود إلينا بعد يومين. عدت إلى كاربنديل وبعد يومين عدت وسألته عن المخالفة فأجابني بأنه لا يوجد في سجلاتهم شيء لي ولم يظهر الحاسب أي مخالفة. عندها ازدادت حيرتي، فقد سحبت مني الرخصة وعلي أن

أراجع قسم الأمن وأسأل عن رخصتي. كان ذلك اليوم ممطراً، فقررت العودة إلى البيت وكما هي عادتي قمت بفتح البريد وإذا بي أفاجأ بوجود رخصتي في ظرف ولم تحسب لي مخالفة، فقلت في نفسي: لعلها علمت أنني لم أرتكب تلك المخالفة وراجعت نفسها عندها قامت بإرجاع الرخصة.

على أية حال فبعد مرور عام على أحداث 11 سبتمبر، تبرز قضية مستقبل المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية على رأس أولويات المهتمين بالشأن الإسلامي بعد هذا الزلزال الذي هز المجتمع الأمريكي من الأعماق فحرك الأحقاد الدفينة لدى الشعب الأمريكي ضد الإسلام والمسلمين، مما أعطى الفرصة للإعلام الصهيوني الفاعل والمؤثر لإلقاء المزيد من الزيت على النار المشتعلة وتحريك مشاعر الكراهية وتغذية نزعة الانتقام تجاه كل مسلم على الأرض الأمريكية.

كان من الصعب علينا نحن المسلمين أن نتابع تلك القنوات التي تبث الكثير من البرامج الإذاعية والتليفزيونية وبتحريض من أصحاب القنوات التليفزيونية والإذاعية ذوي النزعة الصهيونية، التي تقوم بتوزيع الاتهامات ضد المسلمين والعرب والسعوديين بالذات، بالإضافة إلى المسلمين من الجنسية الأمريكية.. رغم وجود وجهات نظر غربية عديدة ترى عدم ضلوع المسلمين في ارتكاب تفجيرات 11 سبتمبر في ذلك الوقت. ومن تلك الاتهامات المعادية ما قام به أحد النواب في الكونغرس الأميركي من هجوم على المملكة العربية

السعودية. فقد وصف متحدثون في جلستين للكونغرس بأن السعودية دولة تهيئ مناخاً معادياً للغرب وتخلق بيئة خصبة لتربية الإرهاب وانتهاك حقوق الإنسان.

وفي جلسات الاستماع في الكونغرس الأمريكي بشأن السعودية ودورها في رعاية أو خلق البيئة الصالحة للإرهاب أصبحت موضة توجيه الاتهامات للمملكة، وقد ضمت أحدث الجلسات طائفة واسعة من الأكاذيب والتشويه والانتقادات الموجهة للمملكة العربية السعودية ما توشك أن تترجم إلى سياسيات وقوانين. وقد قال عضو الكونغرس سام باونباك ـ وهو أحد النواب المناهضين والمتزعمين لتلك السياسات تجاه المملكة ـ إن النواب الأميركيين يعدون مشروع قانون يعتبر الولايات المتحدة في حالة حرب مع السعودية، وهو ما يهدد بقطع المساعدات الاقتصادية والعسكرية الأميركية للسعودية إذا تخلت المملكة عن دعمها لواشنطن. وانتقد النائب مايكل بارون، وهو أيضاً أحد النواب المتشددين تجاه المملكة ـ إعلانات السعودية التلفزيونية، والمذهب الوهابي، والأسرة الحاكمة والإعلام والمؤسسات الدينية زاعماً أنها السبب وراء مشاركة السعوديين في أحداث 11 سبتمبر.

وبالرجوع إلى الموضوع الرئيس وهو تعرض بلادنا الحبيبة للإرهاب الأمريكي المتكرر وعلى صور متفاوتة فقد كانت آخر هذه الصور ما تناقلته بعض وكالات الأنباء من قيام بعض النواب في الكونغرس الأمريكي بمهاجمة السعودية، واتهامها بأنها تهيئ مناخاً معادياً للغرب وتخلق بيئة صالحة للإرهاب وانتهاك حقوق الإنسان...

وقد ذكرت بعض تلك الاتهامات. ولكنهم لم يكتفوا بذلك الهجوم، ولم يتوقفوا عند هذه المزاعم والأكاذيب.. بل نراهم قد تمادوا فيها بصورة تدعو إلى الاشمئزاز إذ إنهم.. تمادوا إلى حد التدخل في الشؤون الداخلية للمملكة وتحدثوا عن خطة لتقسيم المملكة إلى ثلاثة أقسام.. قسم منها يكون تحت الحماية الأمريكية، ووجد هذا الاقتراح ترحيباً من بعض الحضور... ولست أدري تحت أي عنوان يمكن أن أصنف مثل هذه المقترحات، ولاسيما أن الذين يتحدثون عنها هم أفراد في قمة المجتمع وقمة الهرم السياسي وهم صانعو قراراته... ولنرَ كيف تكون ردودهم لو أن الصورة نقلت إلى الجانب السعودي، وقال بعض المتنفذين أو المسؤولين في الحكومة السعودية إن من مصلحة بلادنا تفتيت أو تقسيم الولايات المتحدة إلى ولايات صغيرة، على ضوء ما حصل للاتحاد السوفيتي سابقاً.. ومن مصلحتها كذلك إرجاع هذه الولايات إلى ما كانت عليه سابقاً، إما لتكون للهنود الحمر أصحابها الأصليين، أو للبريطانيين الذين حكموا هذه المنطقة زمناً طويلاً، أو للفرنسيين أيضاً.. ولو تمادوا أيضاً وقالوا بأنه يمكن تقديم المساعدات اللازمة لمن يستطيع القيام بهذا العمل!

أقول: كيف ستكون ردة الفعل الأمريكية على مثل هذه المقترحات؟ وما الأوصاف التي يمكن أن يطلقها الأمريكان على بلادنا؟ أليس أقلها أنها دولة إرهابية متطرفة؟ والعجب أن الأمريكان لا يفكرون بطريقة سليمة متوازنة، وإنما يريدون إرغام الكل على التفكير بطريقتهم وعلى طريقة: إن لم تكن معي فأنت ضدي.. وهذه هي الديمقراطية التي

يزعمونها وينادون بها... ثم العجيب أن يفكر هؤلاء بهذه الطريقة الساذجة وكأن بلادنا قطعة من الحلوى موضوعة على مائدتهم يتقاسمونها كما يحلو لهم، فيعطون من شاؤوا، ويمنعون من شاؤوا. والغريب أنهم بعد هذا كله يتحدثون عن الإرهاب، وأنهم يقودون حملة دولية ضده؟!

ولو رجعنا بالتحديد إلى النائب الأمريكي السيد مايكل بارون وإلى تهجماته لوجدنا أن الإعلام كان يسلط الضوء على تلك الاتهامات ويفرغ لها برامج وقنوات فضائية تقوم بالتحليل لتلك الأقوال مع التصديق عليها وذلك باستضافة أناس آخرين يدعمون تلك الآراء والتوجهات. ولعل تقرير البنتاغون الذي أعلن فيه أنّ السعوديين أعداء للولايات المتحدة، وأنه يجب ضرب آبار بترولهم، وتجميد أرصدتهم في البنوك الأمريكية والأجنبية، يعد من أكثر التقارير التي حازت على جل اهتمام القنوات الفضائية والمحطات الإذاعية وأفردت له أياماً بالتحليل والتعليق.

ومن تلك الكتابات أيضاً ما نشر للسيد بارون في إحدى الصحف بتاريخ 2002/3/6، مقالاً بعنوان «السعوديون أعداؤنا».. شن فيه هجوماً عنيفاً على السعوديين، وممّا جاء فيه: (خمسة عشر من خاطفي طائرات 11 سبتمبر الـ 19 كانوا سعوديين، وربما بحدود 80٪ من السجناء المحتجزين في غوانتنامو هم سعوديون، كما أن أسامة بن لادن سعودي، والقاعدة كانت مدعومة بإسهامات كبيرة من سعوديين، بمن فيهم أفراد من العائلة المالكة السعودية، أما عن تعاون السعوديين

مع جهودنا لتعقب تمويل القاعدة، فيبدو أنَّه لا شيء، لقد جعلونا نسمح لأفراد من أسرة ابن لادن بمغادرة الولايات المتحدة على طائرة خاصة بعد مدة قليلة من 11 سبتمبر، وهم يرفضون تزويدنا ككل البلدان تقريباً بقوائم أسماء ركاب الطائرات المتجهة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، مثل هذا السلوك ليس جديداً. فلقد أعاق السعوديون تحقيق مكتب التحقيقات الفيدرالي فيما يتعلق بتفجير أبراج الخبر عام 1996، ورفض السعوديون طلباً أمريكياً في 1996، لتسلم ابن لادن فذهب إلى أفغانستان بدلاً من ذلك، رفضوا في عام 1995 تسليم عماد مغنية، الذي يعتقد أنَّه المسؤول عن قصف جنود البحرية الأمريكية في ثكناتهم في لبنان عام 1983، وبدلاً من تقديم المساعدة في جهودنا ضد الإرهاب، عمل السعوديون في الاتجاه المعاكس بحماية الإرهابيين في صفوفهم أيضاً، ومدح السعوديون عمليات التفجير الانتحارية، وجمعوا الأموال لعائلات القائمين بها من الفلسطينيين. ونشرت أجهزة الإعلام السعودية - وتلك الواقعة تحت السيطرة الحكومية - أنواعاً من الدعاية المعادية للأمريكان واليهود، مثل هذه السلوكيات هي سلوكيات السعوديين الذين دأبت وزارة خارجيتنا من مدة طويلة على تسميتهم بـ «أصدقائنا» والأكثر دقة دعوتهم بـ «أعدائنا». أمَّا اختبار الحريات، فقد حصلت السعودية فيه على صفر من سبعة، السعوديون يديرون مجتمعاً استبدادياً، إنَّهم لا يحترمون أياً من الحريات السبع التي حدَّدها الرئيس بوش في خطابه، وهي: حكم القانون، تحديد سلطة

الدولة، احترام النساء، احترام الملكية الخاصة، حرية التعبير، العدل والمساواة والتسامح الديني.. ليس هناك حرية للكلمة، ولا حرية دينية، فأثناء حرب الخليج لم يسمحوا للرئيس بوش بإقامة مراسيم دينية على تراب السعودية، والنساء مضطهدات، ويهاجمن جسدياً من قبل الشرطة الدينية التي تطوف الشوارع، وحسب الروايات لم يسمح لبنات مراهقات بترك مدرسة محترقة ما لم يتغطين بطريقة صحيحة، وكانت النتيجة موت 15 فتاة، لكن السعوديين لا يقنعهم أن يحكموا مجتمعهم وحده بالديكتاتورية، لكنهم يسعون لتصدير الإسلام الوهابي الدكتاتوري إلى دول العالم منذ حرب الخليج، وقد موَّل السعوديون رجال دين وهابيين ومساجد ومدارس تحت الإدارة الوهابية في أفغانستان، وباكستان، وإندونيسيا، وأوروبا الغربية، والولايات المتحدة.. النتائج يمكن أن تُرى على طريق «إجوار» في لندن، و«ليسبيرغ بايك» في فرجينيا الشمالية: فالصحفيون لن يواجهوا أية متاعب في العثور على شباب ينتقدون الولايات المتحدة بشدة، ويصرحون بأفكارهم المعادية لها ولليهود، ويقسمون بأنَّهم يكافحون من أجل الإسلام ضد الولايات المتحدة.

إنَّ السعوديين يشنون حرباً ضدنا، ويموِّلون انتشار الأفكار القائلة بضرورة القضاء على مجتمعنا الحر، وفرض إسلام وهَّابي استبدادي بالقوة، لماذا إذن لا يزال بعضهم يسمون السعوديين بأصدقائنا؟ أليس لهم القدرة على السيطرة على أسعار النفط وإبقائها منخفضة؟ إنَّ هذا النفوذ قد تقلَّص بفضل إنتاج النفط المتزايد من قبل أصدقائنا..

روسيا والمكسيك.. إلا أنَّهم معادون للشيوعية. فالشيوعية لم تعد تهديداً. إلا أنَّهم متعودون على احترام النصيحة المعسولة للسفير السعودي الأمير بندر؟ وعلى الرغم من أنَّ وزارة الدفاع الأميركية تنكر ذلك، إلاَّ أنَّه يبدو ضرورياً توزيع قواتنا بحكمة في الخليج، قد لا يكون من الحكمة الإفصاح عن حقيقة أنَّ السعوديين هم أعداؤنا الحقيقيون. بل يجب أن يعرفوا بأنَّه واضحٌ جداً للشعب الأمريكي، وبأنَّهم يشنَّون حرباً علنية ضدنا، يجب أن يعرفوا كذلك، بأنَّ لنا القدرة على تحطيم جيشهم في ظرف ساعات، فالمنطقة الشرقية يمكن أن تعطى للشيعة، والمدن المقدسة.. مكة والمدينة، يمكن أن ترجع لرعاية الهاشميين (عائلة الملك عبد الله ملك الأردن)، الذين هم من نسل النبي بخلاف السعوديين، وليترك للسعوديين رمال وسط البلاد. لقد قال الرئيس «بوش» إنَّنا يجب أن نغير النظام الحاكم في العراق لنكون في مأمن من الإرهاب، لكن الأمر أصبح الآن أكثر وضوحاً، إنَّ علينا تغيير النظام الحاكم في السعودية أيضاً).

هذه هي المقالة التي كتبها «مايكل بارون»، ونشرت في السادس من شهر مارس عام 2002، وكما نلاحظ، أنَّها مكتوبة بروح تنم عن الحقد والكراهية للسعودية، كما تسيطر عليها روح الغطرسة والعجرفة، والاستعلاء والتسلط والتهديد. وهي الروح التي يتحدث بها رجال الإدارة الأمريكية بعد الحادي عشر من سبتمبر، وقد واجهتنا تلك الروح كثيراً وتلك النظرات التي كانوا يلاحقونا بها في الجامعات وفي الأسواق التجارية والمطارات. ولكن ليس المهم ما كان يقع علينا من مشكلات وأحداث، لكن المهم بأي عين كنا ننظر لتلك الأحدث.

فوفقاً لتصريحات الأكاديمي الأمريكيليندون لاروش مدير مؤسسة لاروش للدراسات والأبحاث الاستراتيجية المنشورة على موقع المؤسسة على الإنترنت فإن أحداث 11 سبتمبر لم يرتكبها سوى اليمين الأمريكي المتطرف الذي استطاع اختراق الجيش والمخابرات الأمريكية.

وبالعودة لمستقبل المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية، ففي الحقيقة لم تكن الجالية المسلمة من عرب وغير عرب في جميع الولايات الأمريكية قبل أحداث 11 سبتمبر تتصرف وكأنها مستهدفة من قبل قوى صاحبة نفوذ داخل الإدارة والحكومة الأمريكية وخارجها تتحين الفرص لإقصاء العرب والمسلمين من أي دور فاعل في مجرى الحياة السياسية الأمريكية. كان ذلك رغم صدور قانون مكافحة الإرهاب، أو ما عرف بقانون الوطنية «Patriot Act I»، الذي استهدف بصورة خاصة أبناء الجالية العربية والإسلامية. فقد كانت أوهام «المغانم» السياسية والانتخابية المفترضة تسيطر على توجهات أبناء تلك الجالية وتتحكم بسلوكياتها انعكاساً لما جرى في الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام 2000، وفي الوقت نفسه لم تكن تدرك التحولات العميقة التي تجري في الولايات المتحدة وسياستها خصوصاً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، كما لم تتفهم جوهر «دولة الحرب والأمن القومي» التي تتحفز للكشف عن أنيابها داخلياً وخارجياً. ومع هبوب عاصفة 11 سبتمبر، غابت الشعارات الرحيمة والوعود البراقة التي كان يعدهم بها مرشحهم السيد جورج بوش المتضمنة اتباع سياسة خارجية متوازية قائمة على التواضع

وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول، ومثلما يقول المثل العربي الشائع (تمسكن لحد ما تمكن) عندها تحول «الفيل الوديع» إلى «ثور هائج» ينشد الانتقام ويتنقل من دولة إلى أخرى تحت لافتة محاربة «الإرهاب الدولي» من خلال شن حرب انتقامية مفتوحة الجبهات دون حدود زمنية أو جغرافية، وهكذا تحولت هجمات 11 سبتمبر إلى منصة ملائمة وإلى فرصة ذهبية كان يسعى هو أو من كان يمول حملته لإطلاق العنان لمشروعه من خلالها، مشروع دولة الحرب والأمن القومي دون الحاجة إلى التستر أو التمويه.

لقد كان المسرح الدولي والداخلي الأمريكي مهيئاً قبل 11 سبتمبر لبروز تدريجي وبطيء لدولة الحرب والأمن القومي، فهجمات 11 سبتمبر سرعت بوتيرتها. ولم تكن المفصل التاريخي الحاسم لنشوئها كما يعتقد بعضهم. فالمجتمع الصناعي الحربي المكون من 8 آلاف شركة متنوعة ممتدة كالأخطبوط في نسيج الدورة الاقتصادية الأمريكية والعالمية المتقاطع في مشاريعه وشبكة مصالحه مع المجمع النفطي والمالي والتقني والإعلامي الاستشاري في كتلة واحدة، يحتاج لاستحضار بدائل للخطر الشيوعي البائد الذي تم استخدامه لتبرير برامجه ومشاريعه ومبيعاته المهددة بالانخفاض وحتى الانقراض... وكأن هذا المجمع متشابك المصالح يتلقى اللكمات شبه القاتلة إثر انفجار فقاقيع الورم الاصطناعي لأسواق البورصة العالمية الأمريكية، وتواتر فضائح الإفلاس والتزوير بمئات المليارات للشركات الأمريكية العملاقة وانهيار العديد من الأسواق المالية... كاشفةً الغطاء عن عمق

الأزمة البنيوية والأخلاقية التي تعصف باقتصاديات الرأسماليات الحديثة، وتعمق مشاعر الشك والريبة وفقدان الثقة لدى المستثمر والمستهلك على حد سواء.

ويزيد عمق الأزمة استمرار مؤشرات الركود الاقتصادي الأمريكي وقصور المعالجات الحكومية عن وقف التدهور. وقد تمت بعض المحاولات لوقف ذلك النزيف، وذلك بتخفيض الضرائب لزيادة القدرة الشرائية والادخارية للمستهلك، والتخفيض المتكرر لأسعار الفائدة لتحسين شروط الإقراض، وكذلك سنت بعض إجراءات الحماية برفع الرسوم الجمركية عن بعض المستوردات، أو تعزيز برامج الدعم الحكومي لقطاع الإنتاج الزراعي، ولكن كل المحاولات باءت بالفشل الذريع لوقف المسار الانحداري.

إذاً كان لا بد من اللجوء إلى حلول أخرى، فلا بد من التحول إلى اقتصاد هم يتقنوه وهم أهله، إنه اقتصاد الحرب. ولم يعد خافياً أن التحضيرات لشن الحرب على أفغانستان أولاً والعراق لاحقاً كانت جاهزة على طاولة الرئيس الأمريكي، للمصادقة على الأولى في السادس من سبتمبر (أي قبل أيام من هجمات 11 سبتمبر).

إن اللجوء للحرب بصفته وسيلةً رئيسة في تحقيق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية وتحقيق الأمن الاقتصادي ليست أمراً جديداً في التاريخ الأمريكي الحديث، فمنذ الحرب العالمية الثانية، إذ تدخلت عسكرياً الإدارات الأمريكية المتعاقبة في أكثر من 72 حالة على امتداد الكرة الأرضية. ولكن الجديد هو أن يتم التبرير والتسويق للحرب

بصورة علنية صارخة، ملخصة في الحرب الوقائية على كل دولة يضعها في «محور الشر» لأنها للولايات المتحدة وتفكر بامتلاك أو تطوير أسلحة الدمار الشامل، حتى وصل الأمر إلى الحديث عن ضرورة وإمكانية استخدام السلاح النووي التكتيكي. وتتماشى هذه السياسة مع نزعة التفرد الأمريكية في معالجة الأزمات الإقليمية، وفي الانسحاب من المعاهدات الدولية المختلفة (معاهدة عام 72 للصواريخ المضاده للصواريخ الباليستية (ABM)، أو عدم الموافقة على معاهدات أخرى (حظر التجارب النووية، كيوتو للانحباس الحراري، حظر الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، حظر إنتاج الألغام ضد الأفراد، محاكم الجرائم الدولية وغيرها).

يضاف إلى ذلك إحياء برنامج «حرب النجوم» تحت مسمى برنامج الدرع الصاروخي الذي تقدر نفقاته بمئات المليارات من الدولارات. إن كل هذه المؤشرات تدل بما لا يقبل الشك على التوجه الأمريكي لفرض سياسة التدخل العسكري والهيمنة العالمية في محاولة لإنقاذ المجتمع الصناعي الحربي وأخطبوطه المدني من ورطته الخانقة. أما على الصعيد الداخلي فقبل أن يتم تشكيل وزارة الأمن الداخلي Homeland Security، كانت الإجراءات والقوانين الأمنية - مثل قانون ما يسمى بمكافحة «الإرهاب» وقانون الوطنيةPatriot Act وهو اختصار للأحرف الأولى لعبارة طويلة:

Providing Appropriate tools Required To intercept and obstruct Terrorism.

تصادر الحقوق المدنيــة التي يصونها الدستور، وتتحول أمريكا من دولة القانون والدستور إلى دولة الأمن والقمع والطوارئ. فلا حدود

لتدخل أجهزة الأمن في التنصّت والمراقبة والتوثيق واستخدام الأدلة السرية واعتماد المحاكم العسكرية، التي تطال عملياً المسلمين والعرب بصورة خاصة، دون أن ننسى القيود الجديدة على الهجرة والجنسية، وتحويل أفراد المجتمع الأمريكي إلى مخبرين ورجال أمن على جيرانهم ومعارفهم دون أي رادع.. والإيحاء بأن كل عربي أو مسلم متهم ومشبوه دون أن يكون له الحق في إثبات براءته. ولذلك كانت كل الأنظار في الأسواق والطرقات تنصب على كل عربي أو على الأقل ذي السحنة العربية، فتجدهم يتأملونك لدرجة التدقيق والتمعن، فإذا حصل أي شيء يسارعون إلى القنوات والصحف ويتحدثون ويصفون بأنه كان هناك شخص عربي أو مسلم، ولا بد أنه هو من قام بذلك العمل.

لقد جاء تكوين وزارة الأمن الداخلي لتشير إلى أهم وأكبر تحول داخلي في التنظيم الحكومي للولايات المتحدة منذ قيام الرئيس ترومان في عام 1947 بدمج فروع القوات المسلحة في وزارة الدفاع، وإصدار قانون الأمن القومي لعام 1947. لقد نجح الرئيس بوش في دمج أكثر من 22 وكالة ومؤسسة حكومية منفصلة في وزارة الأمن الداخلي الجديدة تشرف على أكثر من 180 ألف موظف حكومي، وتتوفر لديها ميزانية تتجاوز 40 مليار دولار. وتجري محاولات الآن لتمرير قانون جديد معدل يسمى قانون الوطنية Patriot II 2، وفي حالة موافقة الكونغرس عليه فلن يعود هناك أي متنفس للحرية أو ضمان دستوري لأي حق للأفراد ولا سيما العرب والمسلمين.

في ظل هذه الأجواء طغت مشاعر الخوف وفقدان الأمان على أبناء الجالية العربية والإسلامية، وباشرت قيادات معظم منظماتها

تقديم مراسم الطاعة والولاء للإدارة، والتعاقد مع أجهزتها الأمنية.. اعتقاداً منها أن ممارسة التزلف والاسترضاء والانحناء أمام العاصفة ستؤدي إلى حماية الجالية من تعسف السلطات واضطهادهم وتخفيف حملات الكراهية والعداء والتمييز العنصري والاعتقالات العشوائية. وغلب هذا الاتجاه على الجالية على الرغم من دعوة بعضهم إلى ضرورة اتباع منهج الصمود والدفاع الناشط عن الحقوق المدنية التي يكفلها الدستور، والسعي لبناء تحالفات جدية مع الأقليات الأخرى ومنظمات المجتمع المدني الأمريكية التي تعارض السياسة الرسمية التي ستلحق الأذى والضرر بها مما جعلها تتحرك لمواجهتها.

ومن المؤسف أن يلمس المرء غياب منظمات الجالية العربية والإسلامية عن النشاطات الواسعة التي شهدتها الساحة الأمريكية من قوى فاعلة ومعارضة لسياسة الإدارة خارجياً وداخلياً في وقت تتبنى فيه هذه الجماعات الأمريكية المتحركة القضايا العربية بمستوى لم تشهده الساحة الأمريكية، حتى في أوج مرحلة النشاط الفعال للمنظمات العربية في أواخر السبعينيات والثمانينيات ومطلع التسعينيات. في تلك المرحلة كانت القوى الناشطة الأمريكية أقل تقبلاً وحماساً وتبنياً للقضايا العربية، قياساً بالمرحلة الراهنة حيث تتصدر نشاطاتها الشعارات المعادية للحرب الأمريكية في العراق والعدوان الإسرائيلي المستمر على الشعب الفلسطيني، إضافة إلى شعاراتها الخاصة وهي المطالب المتعلقة بالوضع الداخلي الأمريكي.



الخدعة الرهيبة

لعل من شواهد العصر على ذلك الحادث، ما أكده وذكره تيري ميسون المفكر الفرنسي في كتابه (الخدعة الرهيبة) الذي صدر في فبراير 2002، الذي استطاع أن يفتح ثغرة من الشك في الاتهامات الأمريكية المعلنة ضد بن لادن، حين جمع كل البيانات الأمريكية وضم إليها كل ما أذاعته الأجهزة الأمريكية من أشرطة فيديو لبن لادن علاوة على خطب وحوارات وتصريحات الإدارة الأمريكية، ليكشف للقارئ أننا أمام فيلم جرى التحضير له مسبقاً.. مما يسقط كل الروايات الرسمية التي قَبِلَها العالم من أمريكا.

وبقراءة ذلك الكتاب تستطيع أن تخلص بأن الكاتب تيري ميسون يذهب إلى الرأي نفسه الذي قاله لاروش، وهو أحد أكثر المفكرين السياسيين إثارة للجدل في الحياة السياسية في الولايات المتحدة نظراً لأن أفكاره السياسية والاقتصادية والثقافية مخالفة لتوجهات الطبقات والمؤسسات الحاكمة المهيمنة هناك؛ فقد قال لاروش: إن أمريكا ضربت أميركا في 11 سبتمبر. ومن بين الكتب التي تعد مثيرة للجدل بين الأوساط الأمريكية والعالمية وفي الوقت نفسه تمثل مفاجأة مثيرة للتساؤل هو كتاب (الصقور: الدور الخفي للموساد والـ سي آي ايه).

هذا الكتاب ليس لمؤلف عربي أو حتى مسلم، بل هو لصحفي ومؤلف في الوقت نفسه من دوله غربية ولا يدين بدين الإسلام، إنه الكاتب الصحفي الألمانية المعروف (ولفجانج أجيرت)، وللعلم فقد اختفى الكتاب من السوق الألمانية بمجرد صدوره بما يشير لأصابع الاتهام لإحدى السفارات الأجنبية في ألمانيا، أنها وراء ذلك الاختفاء.

وقد ذكر أجيرت أن أجنحة داخل المخابرات الأمريكية وراء أحداث 11 سبتمبر، بالتعاون مع الموساد الإسرائيلي، وعلى الرغم من كل هذه الأصوات الصادرة من الغرب ذاته التي ترفض اتهام المسلمين بالضلوع في أحداث 11 سبتمبر، فإن الإعلام الغربي الذي يسيطر عليه اليهود، استمر في حملته الإعلامية الشرسة ضد الوجود الإسلامي في الغرب وفي الولايات المتحدة تحديداً.

وظهر العديد من الكتب، تصب في الاتجاه التحريضي نفسه.. لعل أخطرها كتاب (الجهاد) لمؤلفه ستيفن إمرسون، وكتاب (الإرهابيون يعيشون بيننا)، وكتاب (الإسلام والإرهاب)، وكتاب المثقف اليهودي توماس فريدمان الذي يحمل عنوان (المواقف والاتجاهات: تصفح العالم بعد 11 سبتمبر).. وهو يقدم تصوراً لخريطة العالم بعد أحداث 11 سبتمبر، ويقسمها إلى حلفاء وأعداء، وقد وصف المسلمين بأنهم (هؤلاء الأعداء الذين يهددون الحضارة الغربية) في زعمه.

وقد أسفرت هذه الحملات المكثفة عن إثارة مشاعر الكراهية ضد المسلمين وتعرض 58٪ منهم لاعتداءات انتقامية، وصلت إلى حد تدمير المساجد وتشويهها، وقد تعرض المركز الإسلامي بكربنديل إلى تشويه

وذلك بكتابات ورسم بعض العبارات على جدران المسجد من الخارج تسيء إلى الإسلام والمسلمين، وقتل بعض الأشخاص وتم التحرش بالنساء المحجبات. وقد أشار إلى ذلك بيان أو تقرير مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية بمناسبة مرور عام على أحداث 11 سبتمبر، الذي أبرز صوراً مختلفة للمساندة الإيجابية التي تلقاها المسلمون من أبناء الديانات الأخرى منذ أحداث سبتمبر، كما أبرزت استطلاعات الرأي العام الأمريكي الإيجابية نحو الإسلام والمسلمين. وفي الوقت نفسه يوثق التقرير تلك الضغوط والانتهاكات التي تعرض لها المسلمون في أمريكا خلال الأسابيع الثمانية الأولى التالية للهجمات، وإلى بعض سياسات الحكومة الأمريكية التي أضرت بحقوق وحريات المسلمين وتنظيماتهم.

التقرير أشار إلى نشاط الإعلاميين والسياسيين المتطرفين الذين دأبوا على تشويه صورة الإسلام والمسلمين وتأليب الرأي العام الأمريكي عليهم، وذلك على الرغم من إدانة مسلمي أمريكا لأحداث 11 سبتمبر، وتعبيرهم عن هذه الإدانة في مناسبات مختلفة. ويقول الدكتور محمد نمر ـ مدير الأبحاث والدراسات بمجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية، الذي أعد التقرير: إن «11 سبتمبر مثلت نقطة تحول للمجتمع الأمريكي المسلم، ولكن لم يتضح بعد ما إذا كانت أصوات التسامح الديني سوف تنتصر على أصوات المتطرفين المنادية بعدم التسامح مع المسلمين وبالتمييز ضدهم».

كما أشار التقرير إلى أن المسلمين الأمريكيين نشطوا بعد تفجيرات سبتمبر في التواصل والحوار مع المجتمع الأمريكي لتوضيح حقيقة الإسلام والمسلمين، وذلك من خلال فتح المساجد والمراكز الإسلامية أمام الزوار للالتقاء بهم في مناسبات عديدة.. وذلك لتصحيح صورة الإسلام والمسلمين.

وعلى غير المتوقع، فإن أحداث 11 سبتمبر كان لها أكبر الأثر في المجتمع الأمريكي بفئاته وطبقاته كافة، وأدت إلى العديد من التساؤلات حول الإسلام ومبادئه ونظرته للغير، وعلاقة المسلمين بغيرهم. ولهذا التغيير مؤشرات ذكرتها مجلة النيوزويك الصادرة في 2002/1/7، منها زيادة مبيعات الكتاب الإسلامي وترجمات معاني القرآن الكريم، وتزايد أعداد الراغبين في التسجيل بالحلقات الدراسية حول الإسلام في الفصل الدراسي المقبل، وازداد الطلب على الأئمة، ليتحدثوا عن الإسلام في الكنائس والمعابد اليهودية.. واعتنقت أعداد كبيرة من الأمريكيين الإسلام يقدرهم بعضهم بخمسين ألف مسلم ومسلمة.

ونشرت صحيفة «نيويورك تايمز» قبل عامين مقالاً ذكرت فيه أن بعض الخبراء الأمريكيين يقدرون عدد الأمريكيين الذين يعتنقون الإسلام سنوياً بخمسة وعشرين ألف شخص، وأن عدد الذين يدخلون دين الله يومياً تضاعف أربع مرات بعد أحداث 11 سبتمبر، وذكر رئيس مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكي أن أكثر من 24 ألف أمريكي قد اعتنقوا الإسلام بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهو أعلى مستوى تحقق في الولايات المتحدة منذ أن دخلها الإسلام.

ولو خرجنا من الولايات المتحدة الأمريكية إلى قلب أوربا، لوجدنا المآذن فيها بدأت تناطح أبراج الكنائس، وصوتُ الأذان يدوي خمس مرات في اليوم عبر تلك البلاد، والحمد لله أن الإسلام يكسب كل يوم أرضاً جديدة وأتباعاً جدداً. فقد بلغ عدد المساجد في أمريكا ما يقرب من ألفي مسجد، ومئة وعشرين مسجدًا في إيطاليا. ونظراً لإقبال الغرب على الإسلام، فقد حذر أسقف إيطالي بارز من (أسلمة أوروبا). بل وصل الخوف ببابا الفاتيكان إلى صراخه بذعر في وثيقة التنصير الكنسي لكل المنصرين على وجه الأرض قائلاً: «هيا تحركوا بسرعة لوقف الزحف الإسلامي الهائل في أنحاء أوربا».

توقعات لزبنغيو بريجنسكي

نحن نؤمن بالقضاء خيره وشره، ونعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، لكننا نؤمن في الوقت ذاته بالتفكر والتدبر والتبصر والمقارنة والتحليل والاستنباط واستخلاص قوانين التطور العامة على ضوء التوجهات الرئيسة لتياراته الكبرى. وفي التاريخ أساس صالح لعلم حقيقي هو علم المستقبليات، الذي يختلف تماماً عن التنجيم وقراءة الطالع، وبهذا الفهم ندرك الأسس التي يستند إليها خبراء أو علماء في رسم ملامح مشاهد مستقبلية، يتوقعون عبرها تطورات معينة، أو تحولات في مسار صراع ما، أو تغيرات في توجهات اقتصادية أو سياسية أو عسكرية أو اجتماعية.

ولو تمعنّا في كتب أولئك الكتّاب أمثال لزبنغيو بريجنسكي، وهنري كيسنجر، وسيمون بيرسون وصمويل هنتنغتون (صاحب كتاب تصادم الحضارات)، وعمر فروخ.. لوجدنا أن العالم بين أيدينا، فهناك فكر الشرق، وفكر الغرب. نعم نحن لم نأخذ من الغرب تفاصيل عريضة من فكره وعلمه، ولكن ما أريد أن نعرفه هو كيف يفكر رجال الغرب حالياً، وكيف ينظرون للعالم وإلينا بشكل خاص. فلا بد من خطوة أولى للحوار مع الآخر، وهي أن تفهم مفردات تفكيره في الحياة حتى لو اختلفت معه... افهم تفكيره أولاً، ثم ادخل في حوار أو جدال وأنت على بينة. فأنا لا أحب الذين يمتلكون نظرة جامدة ويلتصقون بها، ولا يغيرون خطابهم الفكري وطريقة الحوار مع الآخر. هذه العقليات المتجمدة هي كارثة على السلام في العالم، وتقارب وجهات النظر. هذه العقليات موجودة في خطاب الغرب نحو الشرق، وفي خطاب الشرق نحو الغرب.. لا بد إذاً من إيجاد لغة حوار أكثر عقلانية... لغة حوار أقل عدوانية تجاه الآخر.... لغة حوار ناضجة تحترم البشرية وحضارتها ومستقبلها، قال الله تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴿١٥٩﴾ ﴾ (آل عمران: 159). وقال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران: 64).

هذه هي لغة الحوار التي نريد أن ترسخ الخير والسلام لكل سكان الأرض. فالأرض صارت قرية صغيرة، نتواصل مع بعضنا دون حواجز... أتلقى رسائل بريدي الإلكتروني من اليابان والصين والهند وباكستان، مثلما أتلقاه من كندا وأميركا وبريطانيا وفرنسا وأميركا الجنوبية. كلنا نملك رغبة في الحوار... وكلنا بشر... وأهدافنا في الحياة متشابهة. الكل يريد حياة آمنة حرة كريمة... وكفى. وفي الواقع فإن كتب السياسة بصورة عامة مملة. ولكن القارئ مضطر للصبر حتى يفهم في النهاية. وقد أدهشتني نهاية كتاب بريجنسكي (رقعة الشطرنج الكبرى). فعلى مدى الـ (233) صفحة التي يستغرقها الكتاب، يتصدى بريجنسكي، كواحدٍ من أهم الاستراتيجيين الأميركيين، لعرض موقع الولايات المتحدة كقوة عالمية وحيدة حاكمة. وبريجنسكي هو مستشار الأمن القومي الأميركي الأسبق خلال ولاية الرئيس جيمي كارتر (1976 - 1980)، وحالياً هو عضو مجلس أمناء مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن (CSIS)... ومعلوم أن بريجنسكي يعد في الوسط الأكاديمي الأميركي والعالمي وفي عواصم القرار الكبرى أحد أعلى المراجع والخبرات في ميدان العلاقات الدولية والفكر الاستراتيجي والجيوسياسي. ففي حديث أدلى به أخيراً خلال إحدى الندوات في مجلس العلاقات الخارجية الأميركية، عدّ بريجنسكي مصداقية الولايات المتحدة في العالم قد تراجعت في السنتين الأخريين إلى مستويات لا سابق لها. ويعزو هذا التراجع إلى سلسلة من الإخفاقات في رؤية الإدارة الأمريكية الحالية

لقضايا العالم، وفي نقص المعالجات المتوازنة لأزمات معقدة وخطيرة مثل أزمة الشرق الأوسط. ورداً على سؤال حول قوله خلال محاضرة سابقة ألقاها في واشنطن: «إن مكانة الولايات المتحدة الدولية بلغت أكثر مستوياتها انخفاضاً»، قال بريجنسكي: «إنه من الواضح تماماً أن الولايات المتحدة باتت إثر نجاحاتها العسكرية في كل من أفغانستان والعراق، هي القوة الوحيدة التي تمتلك قدرات عسكرية عالمية، وبالتالي فليس هناك دولة أخرى تمتلك قدرات بهذا الحجم. لكن المفارقة هي أنه في الوقت نفسه ـ واستناداً إلى مؤشرات كثيرة، وإلى استطلاعات الرأي عبر العالم، وإلى ردود فعل الحكومات الأجنبية، وإلى تقارير الصحافيين الأميركيين المنتشرين في العالم ـ فإنه يمكن القول إن أمريكا تفتقر إلى المصداقية الدولية التي تتماشى مع مكانتها وإمكاناتها.. مما يجعل هذه المكانة ـ بالمعنى السياسي ـ تقف في نقطة منخفضة لم يسبق أن بلغتها في أي وقت مضى. فقد كان الجزم المطلق بأن العراق يملك أسلحة دمار شامل هو سبب أساسي لتدمير الثقة في الولايات المتحدة وفي كلمتها في العالم. وفي يقيني إن هذا الأمر يشكل تطوراً خطيراً يؤثر سلباً في دور الولايات المتحدة في العالم».. انتهى كلام بريجنسكي.

وقد استعرض بريجنسكي في كتابه، علاقات أميركا مع دول العالم.. أوربا وآسيا وغيرها، ثم بدأ يضع اقتراحات في نهاية الكتاب، وكيف يمكن لأميركا الاحتفاظ بدور سيدة العالم أو قائدة العالم. وأنا أتفهم هذا الطموح البشري في الخلود. ربما منذ أيام

جلجامش قبل التاريخ. لكن ثمة مثلاً شائعاً يقول: (لو دامت لغيرك لما آلت إليك)... فالبشر معظمهم حين يتسلم أحدهم منصباً ما، يظل يفكر بكل الوسائل كيف سيظل ملتصقاً بهذا المكان ولا يعطيه لغيره. وقد ذكر الكاتب أن هناك إحصائية عن الشعب الأمريكي تقول إن غالبيته لا تحب فكرة أن تحكم بلادهم العالم أو تتدخل في شؤون الدول، لأنها دولة ديمقراطية ولا يمكن لدولة ديمقراطية أن تكون إمبريالية استعمارية. وقد ذكر أنه لا بد من حدث عظيم يجمع الأمة الأمريكية على قرار التدخل في دول العالم والتحكم برقعة الشطرنج الكبرى. ولكن كيف يحدث هذا التحول؟

يقول المؤلف: إذا تعرضت أميركا لحادث كارثي مأساوي مثل بيرل هاربر وهجوم اليابان في الحرب العالمية الثانية، وكانت خسائرها البشرية كبيرة، فإن غالبية الأمة الأمريكية ستوافق على تدخل أميركا في العالم وشن حرب جديدة.

وقد أذهلتني هذه التوصيات.. فالكتاب تم نشره في عام 1997 بينما حدثت أحداث 11 سبتمبر عام 2001، وهاقد حدث تماماً ما أوصى به الكاتب! فهو مستشار الأمن القومي سابقاً. ولكن ماذا نقول؟ هل أصبحنا لا نحسن قراءة التاريخ أو لا نحسن القراءة أصلاً؟ وهل الذي قام بأحداث 11 سبتمبر، كان يحب أميركا ويريد لها أن تكون سيدة العالم؟ أم هل من قام بها هم أعداء أميركا حقاً؟ وإذا كانوا أعداء لها.. فيا لهم من أعداء.. إنهم يريدون المجد والسيادة لأميركا على العالم، وقد أعطوها كامل الحجة التي كانت تريدها للتحرك.

أما إذا كان من قاموا بتنفيذ تلك الأحداث من داخل أميركا نفسها، فذاك أمر آخر. وفي الواقع لا أعلم الإجابة الآن، ولكنها أسئلة صعبة ومحيرة.. ومن يملك الجواب الحقيقي هم قلة. ولهذا تجدني لا أحب السياسة ولا المشاركة فيها، لأنها لعبة غامضة غير بريئة.. لعبة يختلط فيها الخير والشر.. لعبة تحكمها نظرية «الغاية تبرر الوسيلة» بما يعني أن أستعمل كل وسيلة ممكنة لتحقيق الهدف.. حتى لو كانت بلا أخلاق، بلا رحمة، بلا عدالة. وما يحدث للعالم اليوم هو ما يدعوني للقول بأنه لا بد من تغيير هذه اللغة الغبية.. القبيحة في الوقت نفسه.. فقد دمرت العالم ولا بد من إيجاد لغة حوار جميلة مهذبة تتسم بالأخلاق.. تزخر بالمبادئ والرحمة والعدالة.



واقع كاربنديل

إننا في عالم مليء بما لا يليق به.. في عالم يضمحل، وتضمحل فيه الأخلاق.. عالم يندثر ويذوب كشمعة الديمقراطية الأمريكية. فكل ما يجري من حولنا هذه الأيام لم يعد أمراً عادياً، حتى الدخول إلى أية مؤسسة حكومية أصبح أمراً يثير الريبة والقلق. فالعربي لم يعد هو نفسه بعد أحداث 11 سبتمبر.. لقد تغير العالم كثيراً وعلت موجات العنصرية والعداء للعرب والمسلمين باسم الحرب على الإرهاب والإرهابيين. ولم تكن تلك الإجراءات العدوانية واردة لولا أحداث 11

أما إذا كان من قاموا بتنفيذ تلك الأحداث من داخل أميركا نفسها، فذاك أمر آخر. وفي الواقع لا أعلم الإجابة الآن، ولكنها أسئلة صعبة ومحيرة.. ومن يملك الجواب الحقيقي هم قلة. ولهذا تجدني لا أحب السياسة ولا المشاركة فيها، لأنها لعبة غامضة غير بريئة.. لعبة يختلط فيها الخير والشر.. لعبة تحكمها نظرية «الغاية تبرر الوسيلة» بما يعني أن أستعمل كل وسيلة ممكنة لتحقيق الهدف.. حتى لو كانت بلا أخلاق، بلا رحمة، بلا عدالة. وما يحدث للعالم اليوم هو ما يدعوني للقول بأنه لا بد من تغيير هذه اللغة الغبية.. القبيحة في الوقت نفسه.. فقد دمرت العالم ولا بد من إيجاد لغة حوار جميلة مهذبة تتسم بالأخلاق.. تزخر بالمبادئ والرحمة والعدالة.



واقع كاربنديل

إننا في عالم مليء بما لا يليق به.. في عالم يضمحل، وتضمحل فيه الأخلاق.. عالم يندثر ويذوب كشمعة الديمقراطية الأمريكية. فكل ما يجري من حولنا هذه الأيام لم يعد أمراً عادياً، حتى الدخول إلى أية مؤسسة حكومية أصبح أمراً يثير الريبة والقلق. فالعربي لم يعد هو نفسه بعد أحداث 11 سبتمبر.. لقد تغير العالم كثيراً وعلت موجات العنصرية والعداء للعرب والمسلمين باسم الحرب على الإرهاب والإرهابيين. ولم تكن تلك الإجراءات العدوانية واردة لولا أحداث 11

سبتمبر، وما تلتها من سياسات أمريكية عنصرية استعلائية حربية. فإدارة البيت الأبيض إدارة عنصرية تستمد حياتها من شعارات معادية للعرب والمسلمين ومن إيديولوجيا عنصرية عدائية تخدم الصهيونية.

فمنذ مجيء بوش للحكم والتعقيدات والمخالفات القانونية تزداد يوماً بعد يوم، ويكاد معظم الأمريكيين من أصول عربية وإسلامية ومشرقية يكونون الرديف للسود في جنوب أفريقيا زمن حكم البيض في نظام الأبارتهايد العنصري. ولم يمر يوم في أمريكا بعد 11 سبتمبر 2001، دونما مخالفة قانونية أو اعتداء عنصري على عربي أو مسلم أو مشرقي. لقد أسهمت إدارة بوش في تعزيز العداء للعرب والعنصرية ضدهم، وما زالت تخترع القوانين من أجل معاقبتهم على أشياء لا علاقة لهم بها. فالذين قاموا بعمليات الطائرات في 11 سبتمبر ليسوا ممثلين شرعيين وحيدين للأمتين العربية والإسلامية، لقد كانوا أفراداً من الأمتين، تصرفوا بمحض إرادتهم وباسمهم شخصياً لقناعتهم أن الأمة الإسلامية ومعها العربية مظلومة بسبب أمريكا وسياساتها المنحازة لإسرائيل ولكل ما هو معادٍ للعرب وللمسلمين.

ومؤخراً عندما اتضحت المخالفات القانونية، والأعمال الإرهابية الأمريكية ضد الأسرى والأسيرات والمعتقلين والسجينات في سجن أبو غريب وفي السجون الأمريكية العراقية الأخرى، سارع أركان إدارة بوش وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي نفسه للقول بأن الذين قاموا بها

لا يمثلون الشعب الأمريكي، واعتبرها أعمالا فردية. لكنه لم يتفهم قط ولم يقبل اعتبار ما حدث في 11 سبتمبر أعمالاً فردية، ولا تمثل الأمة العربية أو الشعوب الإسلامية. بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث اعتبرها حرباً صليبية جديدة، ثم نصّب نفسه بمكانة المخلص على الأرض معتبراً أنه يمثل العدالة الإلهية.

وفي الحقيقة.. فإن مدينة صغيرة بحجم كاربنديل، التي تقع في جنوب ولاية إلينيوي، لم يستوعب سكانها كثيراً مما حصل في مدينة نيويورك.. فكل ما كان يعرفه الأفراد هو (America under attack)، بعضهم قال: إن أمريكا تتعرض لغزو، وبعضهم كان خيالياً لتأثرهم بأفلام هوليود فقال: إن هناك غزاة من الفضاء. وهذا يدل على سطحية التفكير لأغلب الأمريكان. في المقابل بدأت الاتصالات بين الإخوان السعوديين في مدينة كاربنديل وكذلك في المركز الإسلامي بالمدينة، فقد كثرت الأسئلة وبدأت التكهنات والتحليل لما هو متوقع من الجانب الأمريكي للمسلمين والعرب بشكل خاص. استمرت الحياة ولكن كان هناك كثير من التحفظ من قبلنا.. كذلك كانت الحكومة الأمريكية قد أعلنت حالة الطوارئ، فأمرت بإخلاء بعض المباني التجارية في كل من شيكاغو، ولوس أنجلوس طيلة الأيام التي تلت 11 سبتمبر.

وفي الواقع بدأت تسير الأمور إلى الأسوأ، لا سيما بعدما أعلنت قائمة أسماء الذين نفذوا العملية ومن ضمنهم تسعة من المملكة العربية السعودية. إذ بدأت الأحداث تتسارع وبدأت الوجوه تتجهم،

وبدأت القوانين الجديدة تُسن.. عندها قامت السفارة السعودية بإرسال بريد إلكتروني إلى كل الطلاب تخيرهم بين العودة إلى الوطن وبين البقاء، حيث أمنت لهم تذاكر إضافية، وذكرت أن بإمكانهم حذف ذلك الفصل الدراسي ولن يتم احتسابه من مدة البعثة.



هموم ومشكلات الطلاب

كلنا نتفق على أن الغربة هي في حد ذاتها همٌّ كبير، فما بالك بمن تكالبت عليه هموم الغربة، والوحدة والشعور بالخوف في كل لحظة. كان ذلك الشعور صعباً للغاية.. صعباً وأنت تواجه الكل وحيداً، صعباً وأنت تشعر أن الكل يلاحقك بعينيه.. يرصد كل تحركاتك.. يعد خطواتك. وقت عصيب لدرجة أن تحسب عليك البسمة، والنظرة، وحتى الإيماءة. تمشي وأنت تترقب بين الفينة والأخرى أن أحداً سيوقفك، أو أنك ستسمع كلمات لا تستطيع أن ترد عليها، ترى نظرات الاستغراب والتهكم. كل ذلك كان بعد الأحداث مباشرة ولا سيما بعد أن تم ربطها بالإسلام والمسلمين. كانت حقبة صعبة جداً عندما صدرت قرارات داخلية ودولية غيرت نمط حياتنا. بدأنا نشعر أننا فعلاً غرباء غير مرغوب فيهم.

ولكن بعد أن علم كل الإخوة السعوديين بقرار السفارة، اتخذ أغلب من نعرف من السعوديين المقيمين في مدينة كاربنديل قرار العودة إلى أرض الوطن، ولم يبقَ سواي وأحد الإخوة السعوديين مع أسرنا.

فلازمتنا مشاعر يعتريها الخوف تارة والرغبة في العودة تارة أخرى، وأحياناً كثيرة تمنينا لو أننا اتخذنا قرار العودة كالباقين ولكن.. قدر الله وما شاء فعل!

المهم أن قراري بالبقاء كان قراراً عقلانياً؛ لأن تحكيم العقل كان يحتم عليَّ إكمال دراستي والنجاح فيما قدمت لأجله. والحمد لله أنني لم أتسرع في العودة رغم ضغط الأهل في السعودية وخوفهم ومطالبتهم لي بالعودة.

كانت الوالدة تتصل بي يومياً، وتحثني على العودة وترك بلاد الكفار على حد تعبيرها، وأن أبحث عن مكان آخر للدراسة. كم أنتِ عظيمة يا أمي.. فقد أتعبتك صغيراً وكبيراً.. كم كنت قاسياً في بعدي عنك. ولكن كان هناك في الجانب الآخر صوت للعقل هو صوت قدوتي.. صوت معلمي الأول.. صوت شيخ ملأ فكره كل كياني، إنه أبي الشيخ عبد الله ابن معبر.. ذلك الشيخ الذي كان يدعو لي بالتوفيق ويرفع من معنوياتي ويحثني على النجاح، رغم علمي التام بأن قلبه كان يتقطع، ولكنه كان ينصحني أثناء حديثه معي في كل مرة يتصل بي فيها قائلاً: «إذا وجدت أنه لا بد من العودة، فالدنيا مليئة بالجامعات يا ولدي، وبإمكانك أن تجد مكاناً آخر». كل ذلك وأنا أعلم مدى خوفه، وكان ذلك يتجلى عند حصول حدث معين فيبادر بالاتصال بي للاطمئنان عليَّ.

لقد أثرت أحداث 11 سبتمبر كثيراً، بشكل مباشر أو غير مباشر، في الطلاب السعوديين في الولايات المتحدة، الذين يقدر عددهم بثمانية آلاف. فمنهم من سجن وحقق معه، ومنهم من عانى مشكلات

التأشيرة واضطر لقطع دراسته على الرغم من تفوقه، وانتقل آخرون إلى دول أخرى.. مع ما في ذلك من تكاليف مضنية، ومنهم من قرر طائعاً ترك دراسته والعودة إلى الوطن، وما تبع ذلك من تضحية وخسارة.

فلقد عانى الطالب السعودي كثيراً في تلك المدة، فأصبح قلقاً ومضطرباً من بقائه داخل الولايات المتحدة ولا سيما بعد التعليمات المشددة بتزويد الجهات المسؤولة بأي تحرك أو تغيير في العنوان خلال عشرة أيام.. مما يعني الحد من حرية الحركة، فيشعر الشخص بأنه مراقب طوال الوقت، كما أن الجامعات ترفع تقاريرها الدورية عن الطالب الموفد، فيما تشعرنا زيارات المحققين الفيدراليين المتتالية بالقلق على الرغم من أنها كانت ودية في ظاهرها. كما أن الطالب يُساءل إذا لم يسجل عدداً معيناً من الساعات خلال الفصل الدراسي، وبعضهم سئل بأثر رجعي عن فصل لم يسجل الحد الأدنى من ساعاته قبل أحداث 11 سبتمبر! وعندما نسمع بخبر عدم حصول أحد الإخوة على التأشيرة أو تأخر حصوله عليها، فإن ذلك يرعب الجميع. لذا.. فقد قرر أغلب الطلاب السعوديين البقاء إلى حين الانتهاء كلياً من دراستهم تجنباً لمشكلات عدم الحصول على التأشيرة. فعدم الحصول على التأشيرة أو تأخرها حال دون استكمال العديد من الطلاب لدراستهم. وقد عانى أحد الزملاء من ذلك حين عاد إلى السعودية بعد أربعة أشهر من أحداث سبتمبر، وتوجه فوراً إلى السفارة الأميركية في الرياض لتجديد التأشيرة، إلا أنه لم يتمكن من ذلك، على الرغم من

إجراء ثلاث مقابلات معه في مبنى السفارة الأمريكية بالرياض.. وفي كل مرة كانوا يعدون بالاتصال به دون جدوى. فلم يتصل به أحد رغم انتظاره عاماً كاملاً. مما اضطره للاتصال ببعض الزملاء في أميركا لبيع سيارته وحفظ أغراضه في مستودع إلى أجل غير مسمى. أما عن سبب رفضهم منحه التأشيرة فلا أحد حتى اليوم يعلم سبباً للرفض.!

ولعل من أصعب الأمور التي تواجه السعوديين في أميريكا هي المرور على نقاط التفتيش المختلفة في المنافذ والمطارات. فعلى الرغم من أن التفتيش ليس خاصاً بالعرب والمسلمين، إلا أن بعض الأشخاص يدقق، ويخرجنا من السير للتفتيش الشخصي، ويقول لك إنه قد تم اختيارك بشكلٍ عشوائي، مما يشعرك بالخوف والرهبة على الرغم من تأكدك أنك لا تحمل شيئاً مخالفاً للقانون، كما أن إلزام الطلاب بالسفر عبر الخطوط السعودية التي لا تصل إلا إلى محطتي نيويورك وواشنطن زاد من مشكلات الطلاب.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، تخيل أنك في إحدى الولايات البعيدة مثل إلينوي، أو كولورادو، أو كاليفورنيا، أو غيرها من الولايات البعيدة عن محطات الخطوط السعودية، فإن هذا يعني أنك ستكون مضطراً للسفر ست أو سبع ساعات للوصول إلى المحطات السعودية.. وهو ما يعرضك للتفتيش غير المبرر في أغلب الأحيان. إما لكونك مسلماً، أو سعودياً على وجه الخصوص، ناهيك عن المساءلة وتلف الأعصاب في كل محطة.. فما بالك إن يحدث ذلك لأصحاب الأسر الكبيرة.

وللسنة الرابعة على التوالي استمر الطلبة في التحوّل عن الجامعات الأمريكية، في عملية تغيير واضحة ربما تنعكس على حياتهم ومستوى تعليمهم. والأخطر من ذلك على المستقبل التنموي والتربوي في بلدانهم، بعد أن جرى الاعتقاد ولسنوات خلت أن الطلبة المتعلمين في الغرب هم عماد التطوير والتحديث في المجتمعات والإدارات في الخليج العربي. ومع استمرار النظرة التي ترفض إرسال هؤلاء الطلبة إلى بعض الدول الأخرى على سبيل المثال (بريطانيا)، وذلك لوجود بعض القصور في تعليم اللغة الإنكليزية لطلاب الدراسات العليا، حيث إن الدراسة في بريطانيا تقتصر على الأسلوب البحثي دون التركيز على المواد الدراسية التي تكسب الطالب نوعاً من الطلاقة في التحدث والاختلاط مع طلاب من جنسيات مختلفة.

لذلك برزت أسئلة عدة على السطح ومنها: كيف يمكن مواجهة المشكلات وحتى الأزمات التي يعاني منها الطلبة في الغرب؟ وهل البدائل المطروحة مناسبة؟ وما هو تأثير ذلك في مستقبلهم وفي المستقبل التعليمي والتربوي في دولهم؟ ومع وجود تلك العراقيل والطلبات التي لا تنتهي، انتهت الإجراءات الشاقة إلى حد التبصيم (أخذ بصمة كل أصابع الأيدي) وكأنك ستدخل أكبر سجن عرف في التاريخ (غوانتنامو أو أبو زعبل) ناهيك عن إجراء المقابلات مع كل أفراد العائلة نساءً ورجالاً، فنجد أن السفير الأمريكي في المملكة العربية السعودية يظهر ويطمئن الطلاب وأهليهم بأن إجراءات

الحصول على التأشيرة لدخول أمريكا قد تم تسهيلها ولن تستغرق سوى أيام معدودة، فيفرح الطلاب ويستبشرون خيراً، إلا أن الأمر لا يلبث أن يزداد سوءاً.

ومن المؤسف حقيقةً ما حصل لي ولبعض الأصدقاء، فقد عدنا لتجديد التأشيرة، فأجبر بعضنا على الانتظار أو استبعاد فكرة مواصلة الدراسة بعد أن قطعوا مشواراً كبيراً لتحقيق ما كانوا يصبون إليه. ومن الجدير بالذكر أن الالتحاق بالجامعات الأجنبية ولاسيما الجامعات الأمريكية لم يعد طموحاً يراود الشباب السعودي بعد أن بات عرضة للتمييز والشكوك، إلى جانب تعقيداته الإجرائية والأمنية، وإحجام السفارة الأمريكية عن منحهم تأشيرات دخول إلى أراضيها، إلى جانب ما يرد من أخبار غير مشجّعة حول ما يتعرّض له العرب والمسلمون في المجتمعات الغربية. فقبل 11 سبتمبر لم يكن الأمر يحتاج إلى كل هذه التعقيدات، إذ لم يكن الأمر يحتاج إلا إلى أيام بسيطة، يتم فيها حصول الموفد أو الطالب على التأشيرة. أما الآن، وبعد أحداث 11 سبتمبر، فقد بدأت التعقيدات تزداد يوماً بعد يوم، أضف إلى ذلك مشكلة العراق، والإرهاب، كما بدأت تزداد الطلبات والتعقيدات من قبل السفارة، ومن ضمنها منح التأشيرات وشروط المنح، والدفع المسبق، وإثبات الدفع... إلخ. ومع كثرة تلك الطلبات، فإنها لم تكن كافية لضمان الحصول على التأشيرة، بل قد يصل الأمر أحياناً إلى أن يعلق أمر الطالب، فيظل دون قبول أو رفض.. وإذا كان هناك رد معين، فيكون على الأرجح رفضاً غير مبرر دون إبداء للأسباب.

وفي ظل عدم توافر بعض التخصصات العلمية في الجامعات السعودية، يبقى خيار الدراسة في الخارج حاجة ملحة يتطلّبها سوق العمل، ليصبح الطالب السعودي أمام خيارات جديدة لجامعات عربية وآسيوية لم تكن مدرجة في قائمة الاعتراف من قبل وزارة التعليم العالي. ولعل بعض الدول العربية أصبحت هي الوجهة المفضلة لدى الكثير من الموفدين، ولا سيما فيما يتعلق بالدراسات الخاصة بالبكالوريوس، إذ تعتبر مصر والأردن من الوجهات المفضلة بالنسبة للموفدين، وكذلك دول الخليج في الآونة الأخيرة، حيث توفر الأخيرة بيئة مشابهة للبيئة التي يعيشها الموفد السعودي. ولو عدنا إلى ما وصل إليه الوضع الحالي الخاص بالطلاب السعوديين في أمريكا، نستطيع أن نقسم هؤلاء الطلاب إلى فئات ثلاث:

* الطلاب الموفدين على حساب الدولة من قبل المؤسسات التعليمية والمؤسسات الحكومية والوزارات (الجامعات، الكليات العسكرية، البنوك..... إلخ).

* الطلاب الملتحقين بالبعثة من أمريكا (وذلك بعد أن كان قد بدأ على حسابه الخاص وحقق الشروط المطلوبة للالتحاق بالبعثة) عن طريق السفارة السعودية والملحق الثقافي السعودي بأمريكا.

* الطلاب الدارسين على حسابهم الخاص.

إجمالاً.. فإن عدد الطلاب السعوديين الدارسين في الخارج يتجاوز 16 ألف طالب، وفقاً لإحصائية وزارة التعليم العالي، التي شملت الطلاب والطالبات الدارسين على حسابهم الخاص، والموفدين

من قبل الدولة. وتقدر تكلفة دراسة الطالب السعودي في الخارج بنحو 200 ألف ريال سعودي على الأقل سنوياً. وبهذا يبلغ إجمالي ما ينفقه السعوديون على التعليم في الخارج أكثر من 3,2 مليار ريال سنوياً.



فلسفة 11 سبتمبر وتداعياتها

آن الأوان بعد مرور أربع سنوات تقريباً على حوادث الحادي عشر من سبتمبر لإجراء جرد أولي بكل ما تغير على الصعيد الجيوسياسي العالمي الذي سوف يؤثر على حياتنا، فبعد الحلقة التي بدأت في التاسع من نوفمبر 1989 مع سقوط جدار برلين، ها هي مرحلة تاريخية تنطلق اليوم بما لا يقبل الجدل.

بدأ كل شيء مع يوم الثلاثاء 11 سبتمبر عادياً، وغير مستغرب.. ولكن مع ضحى ذلك اليوم تم اكتشاف سلاح جديد.. طائرة ركاب مليئة بالوقود تتحول إلى صاروخ مدمر، هذا الصاروخ المدمر ـ غير المعروف قبل هذا التاريخ ـ ضرب أميركا على حين غرة ولمرات عدة في الوقت نفسه. كانت الصدمة من العنف بحيث أدت في الواقع إلى زعزعة العالم وزعزعة الكيان الأمريكي والغرور الذي يسبق السقوط.

ما تغير للوهلة الأولى هي النظرة إلى الإرهاب في حد ذاته، فبدأ مباشرة الكلام عن إرهاب مفرط للإشارة إلى أن الأمور لم تعد كالمعتاد ولن تكون كما هي في السابق. فلقد تم اجتياز عقبة لم تكن

من قبل الدولة. وتقدر تكلفة دراسة الطالب السعودي في الخارج بنحو 200 ألف ريال سعودي على الأقل سنوياً. وبهذا يبلغ إجمالي ما ينفقه السعوديون على التعليم في الخارج أكثر من 3,2 مليار ريال سنوياً.



فلسفة 11 سبتمبر وتداعياتها

آن الأوان بعد مرور أربع سنوات تقريباً على حوادث الحادي عشر من سبتمبر لإجراء جرد أولي بكل ما تغير على الصعيد الجيوسياسي العالمي الذي سوف يؤثر على حياتنا، فبعد الحلقة التي بدأت في التاسع من نوفمبر 1989 مع سقوط جدار برلين، ها هي مرحلة تاريخية تنطلق اليوم بما لا يقبل الجدل.

بدأ كل شيء مع يوم الثلاثاء 11 سبتمبر عادياً، وغير مستغرب.. ولكن مع ضحى ذلك اليوم تم اكتشاف سلاح جديد.. طائرة ركاب مليئة بالوقود تتحول إلى صاروخ مدمر، هذا الصاروخ المدمر ـ غير المعروف قبل هذا التاريخ ـ ضرب أميركا على حين غرة ولمرات عدة في الوقت نفسه. كانت الصدمة من العنف بحيث أدت في الواقع إلى زعزعة العالم وزعزعة الكيان الأمريكي والغرور الذي يسبق السقوط.

ما تغير للوهلة الأولى هي النظرة إلى الإرهاب في حد ذاته، فبدأ مباشرة الكلام عن إرهاب مفرط للإشارة إلى أن الأمور لم تعد كالمعتاد ولن تكون كما هي في السابق. فلقد تم اجتياز عقبة لم تكن

في البال ولا في الحسبان. وبلغ العدوان مستوى من الضخامة بحيث لم يكن يشبه حدثاً معروفاً. حتى إنه يصعب تسميته أهو اعتداء أم هجوم أم حرب؟ لقد تم تجاوز حدود العنف الأقصى ولا يمكن بعده العودة إلى الوراء، ويعرف الجميع أن حوادث 11 سبتمبر هي افتتاحية سوف تتكرر في مكان آخر وفي ظروف مختلفة ربما، لكنها ستتكرر وهذا ما حصل بالفعل، ومن لا يتعلم، فالتاريخ يعلمه أن ثمة سلاحاً جديداً مهما كانت أضراره رهيبة فإنه سيعاد استعماله مرة ثانية. وقد صح ذلك مع استخدام الغاز القاتل بعد 1918، وتدمير المدن بالقصف الجوي بعد غيرنيكا عام 1937، وهذا ما زال يغذي الخوف من الرعب النووي بعد 56 عاماً على هيروشيما.

ويكشف اعتداء 11 سبتمبر عن قسوة عجيبة لدى منفذيه وعن درجة عالية جداً من القدرة المعقدة. ضربوا بقوة، ضربوا القلب وضربوا العقول، وقد سعوا إلى خلق ثلاثة أنواع من النتائج: خسائر مادية، وصدمة رمزية، وضربة إعلامية كبيرة.

الخسائر باتت معروفة: سقوط ثلاثة آلاف قتيل، انهيار برجي مركز التجارة العالمي، وأحد أجنحة وزارة الدفاع الأميركية.. البنتاغون، ولولا تحطم الطائرة الرابعة فوق بنسلفانيا لكان ـ ربما ـ البيت الأبيض في عداد هذه الخسائر. لكن هذا الخراب لم يكن بالتأكيد الهدف الرئيس للاعتداء. وإلا لكانت الطائرات استهدفت مثلاً محطات نووية أو سدوداً كانت تسببت بدمار أقرب إلى صور نهاية العالم وسقوط عشرات الألوف من القتلى.

كان الهدف الثاني توجيه صدمة للنفوس من خلال تحقير الرموز الرئيسة للعظمة الأميركية وإتلافها، تلك التي تدل على سيطرتها الإمبراطورية في المجالات الاقتصادية (مركز التجارة العالمي) والعسكرية (البنتاغون) والسياسية (البيت الأبيض).

أما الهدف الثالث الذي لم يلفت إليه الأنظار مثل سابقيه، فهو من الصنف الإعلامي. ففي نوع من الانقلاب التلفازي، سعى أسامة بن لادن، الدماغ المفترض لهذا الاعتداء، إلى احتلال الشاشات وفرض صوره ومشاهد دماره. فسيطر رغم أنف الإدارة الأميركية، ورغم قوة إعلامها القوي جداً والمعادي للإسلام والمسلمين على جميع شاشات الولايات المتحدة، ومن ورائها على شاشات العالم أجمع. وتمكن هكذا من كشف الهشاشة الأميركية غير المتوقعة وتبيانها.

إنه شكل من أشكال النرجسية يكتمل بوساطة الصورة المسيطرة في بداية الأزمة، وها هي صورة بن لادن نفسه، على خلفية كهف أفغاني، ظهر رسم الرجل ذو النظرات الغريبة، هذا الرجل الذي كان مجهولاً إلى حد بعيد عشية 11 سبتمبر، لكن هذه الصورة جعلت منه بين ليلة وضحاها أشهر رجل في العالم.

وقد باتت التجهيزات التقنية الشاملة تسمح ببث الصور مباشرة إلى أنحاء الأرض كافة. كان كل شيء جاهزاً للظهور، ولقد علمتنا قضية الأميرة ديانا بشكل خاص أن وسائل الإعلام المتزايدة أكثر من أي وقت مضى، موحدة ومتناسقة أكثر بكثير من السابق. وأن كل ذلك سوف يستخدم ذات يوم على يد نوع من الإعلام الإلكتروني.

ابن لادن.. هو الأول، فمن خلال اعتدائه في 11 سبتمبر، دخل إلى جميع شاشات العالم، وتمكن من بث رسالته الكونية. نابغة الشر أو دكتور مابوز جديد.. على الأقل في نظر الملايين وخصوصاً عبر العالم العربي الإسلامي. لا بل أكثر من بطل، إنه نوع من مهدي «يختاره الله ويرسله لتخليص الإنسانية من الشر».

ولا يتردد في سبيل هذا الهدف في اختراع إرهاب من نوع جديد، مهما بدا في ذلك من تناقض. يدرك الجميع أننا بتنا نواجه إرهاباً شمولياً في تنظيمه، وأيضاً في أبعاده وأهدافه، وهو لا يحمل مطالب محددة. لا استقلال أرض ولا تنازلات سياسية ملموسة ولا المطالبة بقيام نظام من نوع خاص. حتى إنه لم يصر حتى اليوم على تبني اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر بصورة رسمية، فيظهر هذا الشكل الجديد من الرعب وكأنه نوع من عقاب أو قصاص بسبب «سلوك عام» غير محدد تتهم به الولايات المتحدة وفي صورة عامة البلدان الغربية.

وقد عمد كل من الرئيس جورج بوش الذي تحدث عن «حملة صليبية» قبل أن يتراجع عن حديثه، وأسامة بن لادن، إلى وصف المواجهة بعبارات صدام الحضارات لا بل حرب الأديان. وقد أكد بن لادن أن العالم انقسم إلى «فسطاطين»، واحد تحت راية الصليب كما قال زعيم الكفرة بوش، والثاني تحت راية الإسلام.. أي تحت قيادته هو.

بعد تعرضها للمرة الأولى لهجوم بالغ الوحشية فوق أراضيها وفي حرم أكبر مدنها، قررت الولايات المتحدة الرد من خلال قلب معطيات السياسة الدولية. وقد حبس العالم أنفاسه في مرحلة أولى خشية إقدام الأميركيين على رد متسرع وعفوي. لكنهم تمكنوا من المحافظة على رباطة جأشهم بتأثير من وزير الخارجية كولن باول الذي تبين أنه أكثر شخصيات الإدارة الأميركية صفاء ذهن في ذلك الوقت، وقد نجحوا في استغلال التعاطف الدولي وتضامن الجميع خوفاً من ضغوطها ونفوذها ومن أجل ترسيخ سيطرتهم العالمية.

وكان واضحاً منذ ديسمبر 1991 وزوال الاتحاد السوفيتي، أن الولايات المتحدة باتت القوة العظمى الوحيدة، لكن بعض المعاندين هنا وهناك من أمثال روسيا والصين وفرنسا على طريقتها، كانت تتردد في قبول الفكرة. فجاءت حوادث الحادي عشر من سبتمبر لتمحو جميع الشكوك، حيث أقرت كل من موسكو وبكين وباريس علانية بالتفوق الأميركي. وهرع العديد من زعماء العالم وأولهم الرئيس الفرنسي جاك شيراك إلى واشنطن لتقديم تعازيهم رسمياً وإعلان تبعيتهم غير المشروطة عملياً... وبعدها أدرك الجميع أن الوقت ليس وقت مخادعة، فالرئيس بوش كان قد أنذر أن «من ليس معنا فهو مع الإرهابيين» وأضاف أنه سوف يتذكر الذين اتخذوا في هذه اللحظة بالذات موقفاً سلبياً وهو نوع من التهديد المبطن.

وبعدما أحاطت واشنطن الآخرين علماً بهذه التبعية العالمية، بما فيها الأمم المتحدة وحلف شمال الأطلسي، تصرفت بسلطة مطلقة ودون أي اعتبار لتوصيات حلفائها أو رغباتهم. فالتحالف المكون

يخضع لمعايير متحركة. فواشنطن تختار دائماً شريكها وتحدد له من طرفها المهمة المنوطة به دون أن تترك له أي هامش للمناورة. وقد ذكر أحد المحللين الأميركيين أنه «تقوم مشاركة أوروبا في هذه الحرب على قواعد من جانب واحد تفترض الموافقة الصريحة على وجود سلطة واحدة هي القيادة الأميركية». وهذا لا يقتصر على المجال العسكري فقط. ففي مجالات كثيرة نجد أن السيطرة تعود لأمريكا، وفي مجال المخابرات أو «الحرب الخفية» تجد أن الأمريكان هم المسيطرون، فقد وضعت أكثر من خمسين بلداً خدماتها في تصرف وكالة المخابرات المركزية الأميركية ومكتب التحقيقات الفيدرالية. وبناء عليه فقد تم عبر العالم توقيف أكثر من 350 مشتبه به ومتهم بالتعاون مع تنظيم «القاعدة» وبن لادن.

كان تفوّقُ الولايات المتحدة كبيراً فبات ساحقاً، وتبدو بقية الدول الغربية (فرنسا، ألمانيا، اليابان، إيطاليا وحتى بريطانيا) إلى جانبها في هيئة أقزام. وقد برهنت الولايات المتحدة عن قدرتها الكبيرة على فرض أمرها غداة الحادي عشر من سبتمبر.

أما على الجانب الآخر فقد اعتقد بن لادن من خلال تدبير اغتيال القائد شاه مسعود ـ وهو الزعيم العسكري لتحالف الشمال في أفغانستان ـ يوم التاسع من سبتمبر، أنه ينتزع بذلك ورقة حاسمة من يد واشنطن بعد الاعتداءات. واعتقد أنه لم يعد في إمكان الولايات المتحدة الاعتماد على تحالف الشمال، وإذا أصرت على ذلك للإطاحة

بنظام «طالبان» فإنها ستصطدم بباكستان، صاحبة القوة العسكرية الكبيرة التي تضم 150 مليون نسمة التي تملك سلاحاً نووياً. واعتقد بن لادن هكذا أن إسلام أباد لن توافق أبداً على تفكيك نظام حركة «طالبان» التي حققت من خلالها طموحاً تاريخياً هو السيطرة أخيراً على أفغانستان وتحويلها عملياً إلى محمية.

وإلى الشمال، حيث كانت العلاقات بين روسيا وأمريكا تتسم بالبرودة بسبب مشروع الدرع الصاروخية العزيز على قلب الرئيس بوش، كان من المفترض ألا تسهم موسكو أيضا مع واشنطن، وألاّ تقدم لها أي تسهيلات لدى حلفائها في آسيا الوسطى أي أوزبكستان و طاجيكستان. وبحسب هذا التفكير الذي لا يخلو من المنطق، يكون على الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر أن تنصاع للقصف عن مسافة بوساطة صواريخ بعيدة المدى. هكذا يكون الرد مذهلاً لكن دون نتائج فعلية.

ومن خلال مجرى الأحداث تأكد أن حسابات بن لادن كانت كلها خاطئة. ففي أقل من أربع وعشرين ساعة وأمام الخيارات الحازمة التي وضعتها الولايات المتحدة أمام باكستان بمساعدتها أو بتحمل أخطار جسيمة في المجالات الاستراتيجية الرئيسة مثل كشمير والنزاع مع الهند وامتلاك السلاح النووي، لم تتردد القيادة الباكستانية العليا بل أقدمت كما هو معروف على التضحية بأفغانستان.

من جـهـتـهـا، لم تتـردد روسـيـا لحظة واحـدة. وقـد بـادر السـيـد فلاديمير بوتين إلى الاتصال بالسيد بوش يوم 11 سـبـتمبـر ليعرب له عن تضـامنه. وقد وصل هذا التضـامن في آسـيـا الوسطى حـداً أقلق القيادة العسكرية حتى بات الحديث يدور حول احتمال انضمام روسيا إلى حلف شمال الأطلسي.

ويعنـي هذا الموقف الروسي الجـديد بوضـوح أنه لم يعـد هـناك على مسـتوى العـالم أي إمكان لتشكيل تحـالف عـسكري من شـأنه الوقوف في وجه الولايات المتحدة التي دانت لها السيطرة العسكرية المطلقة، وفي هذا السـيـاق يمثل «العـقـاب» الذي أنزلته منـذ السـابع من أكتوبر 2001 بأفغانسـتـان بقصـفـها ليـلاً ونهـاراً، تحذيراً مـخـيفـاً لبقية دول العـالم، فمن هو ضـد الولايات المتحـدة يجد نفسه وحيداً دون حليف ويعرض نفسه للقصف حتى يرجع إلى العصر الحجري. أما لائحة «الأهداف» التالية المحتملة فقد أعلن عنها في صفحات الجـرائد الأمـيـركيـة وهي العـراق وإيران وسـوريا واليمن والسـودان وكوريا الشمالية.

الدرس الآخـر بعـد 11 سـبـتـمـبـر هو أن العـولمة مـسـتـمـرة لتـمـثل إحـدى ميزات العـالم المعـاصـر الرئيسـة. لكن الأزمـة الأخـيرة كشـفت هشاشتها، لذلك تشدد الولايات المتحدة على الضرورة الملحـة لإقامة مـا يمكن تسـمـيـتـه جـهـاز أمن العـولمة. ومع التـحـاق روسـيـا ودخـول الصين منظـمـة التـجـارة العـالمية وتوفـر حـجـة مكافحـة الإرهـاب على المســتـوى الدولـي التـي تبــيح الحــد من الحــريات وتقليص دائرة

الديمقراطية، يبدو أن الشروط قد اجتمعت للإسراع في إيجاد هذا الجهاز الأمني الشامل ووضعه على الأرجح تحت إشراف حلف شمال أطلسي جديد.

لكن أصواتاً ترتفع لترمي مسؤولية حوادث الحادي عشر من سبتمبر ولو جزئياً على العولمة الليبرالية من جهة لأنها فاقمت من حدة الظلم والتفاوت والفقر على مستوى الكرة الأرضية، وزادت من أحوال اليأس والقهر لدى ملايين الأشخاص المستعدين للتمرد في العالم العربي والإسلامي، للالتحاق بمجموعات إسلامية متطرفة من أمثال تنظيم «القاعدة» التي تدعو إلى العنف الأقصى.

من خلال إضعافها للدول وافتقارها للسياسة وتفكيك القوانين، شجعت العولمة ازدهار المنظمات ذات التنظيم الرخو، غير التراتبي وغير العمودي، الأشبه بالشبكة، وقد استفادت الشركات العالمية، كما المنظمات غير الحكومية مثلاً من هذا المعطى الجديد لتتكاثر. لكن منظمات طفيلية تكاثرت أيضاً ضمن الشروط عينها مستفيدة بطريقة فوضوية من الهامش الحر: المافيات وشبكات الجنوح والإجرام على أنواعه، والطوائف والمجموعات الإرهابية.

وتعتبر «القاعدة» في هذا المجال منظمة منسجمة تماماً مع عصر العولمة مع تشعباتها المتعددة الجنسية وشبكاتها المالية وارتباطاتها في حقلي الإعلام والتواصل مع أطراف لتموينها وواجهات العمل الإنساني ووسائط الدعاية وفروعها، وفروع تابعة للفروع... إلخ.

عرف العالم خلال تاريخه (الدولة المدينة)، وكانت ممثلة في أثينا، والبندقية، وكذلك (الدولة المنطقة) مثل (الحقبة الإقطاعية) وأخيراً (الدولة القومية) ممثلة بما كان يحدث في القرنين التاسع عشر والعشرين. لكن مع العولمة بدأت تظهر الآن (الشبكة الدولة) أو حتى (الفرد الدولة). وأول مثال جلي على ذلك هو السيد بن لادن، ولو أن هذا الأخير مازال في حاجة إلى دولة فارغة (الصومال في الأمس وأفغانستان اليوم) يقيم فيها ويوظفها في خدمة مطامعه.

وبالتالي فإن العولمة تشجع ذلك كما ستشجع غداً ظهور الشركات التي ستنزل على طريقة بن لادن في دولة فارغة، تعاني الفوضى المزمنة وتستخدمها على هواها. في هذا المجال أيضاً يكون بن لادن نوعاً من الرائد المخيف.



قصص واقعية

الحكومة الأمريكية :

تابع الكثيرون من النخب الفكرية والإعلامية في أنحاء العالم بقلق وحيرة، معالم جديدة ومثيرة في المجموعة الجديدة التي تحكم الإدارة الأمريكية، ولا سيما تلك الروح الدينية المتشددة، على الرغم من أنهم يدعون أننا نحن المتشددون والمتعصبون لديننا، ومن الطرائف التي سمعتها حينما صبوا جام غضبهم على مناهجنا الدراسية قولهم إنها هي السبب في 11 سبتمبر، ودعوا إلى تغييرها مع تغيير الخطاب الديني تجاههم، والطريف أنهم طالبوا بحذف الآيات القرآنية الداعية إلى الجهاد والداعية إلى حربهم أو تعديلها، وقد قال الله تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)** ﴾ (البقرة: 75).

ما يريدونه هو أن نحرف ونعدل في كتاب الله: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)** ﴾ (النساء: 46) ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)** ﴾ (المائدة: 13).

وحينما أستشهد بهذه الآيات إنما أذكر بأنهم كما يقول المثل: (كل إناء بما فيه ينضح)، وكذلك المثل الشعبي القائل: (يعاملني بلسان طبعه)، فقد قاموا بتحريف كتبهم وسهل عليهم أن يقولوا: حرفوا أو بدلوا. ولكن لعل من الضار نافعاً، أن أدى ذلك إلى أن يلتفت العالمان العربي والإسلامي إلى بعض مناهجهم التي أكل الزمان عليها وشرب، فقد قامت المؤتمرات الداعية إلى تطوير شامل لمناهج العلوم الإسلامية وإلى تعزيز ثقافة الحوار مع الثقافات الأخرى من منطلق الخصوصية لا التبعية.

ورغم الحملة الشرسة على الإسلام والمسلمين وخصوصاً بعد 11 سبتمبر، إلا أنه لا يجب أن تقف أمامنا عائقاً أو تمنعنا من الإقرار بضرورة أن يتم تطوير شامل يحقق غرس القيم الإسلامية في نفوس الناشئة وفق مناهج شاملة، وبرامج تربوية معدة لتكوين جيل عالم بأمور دينه، وأن تحرص مناهج العلوم الإسلامية على منهاج الوسطية والاعتدال، وأن تكون بعيدة عن التطرف والغلو والإرهاب، وأن تؤكد قيم السلام والتسامح بين المسلمين وغيرهم من الشعوب، ولتحقيق مقاصد التعليم الإسلامي يجب أن يتم تطوير المناهج وفق ما يحتاج إليه واقع المسلمين دون رضوخ لأي ضغط خارجي أو دعوة هدفها تقليص التعليم الإسلامي، بحيث تنشأ الأجيال المسلمة جاهلة بأمور دينها.

ومن النقاط المهمة جداً التي يجب أن يهتم بها القائمون على مسؤولية التعليم، هي تعزيز ثقافة الحوار مع الثقافات الأخرى من منطلق الخصوصية لا التبعية، مع تضمين المناهج مقررات لها ارتباط

وثيق بأصول الدعوة ومناهج الدعاة وأساليب الوعظ والإرشاد؛ لأن أهم المقاصد من العلوم الإسلامية هي المعرفة الصحيحة بتوحيد الله سبحانه وتعالى والطريق الصحيح إلى عبادته وحده، ولعمري فإن ذلك من أشرف المقاصد، وكذلك تطبيق شريعة الله والدعوة إليه سبحانه، على بصيرة مع نشر المعرفة الصحيحة التي تُعين الناس على التعامل الصحيح مع شؤون الحياة، ليحيا الناس حياة إسلامية كريمة، يعمها الأمن والسلام مع التنبيه إلى مخاطر العولمة الثقافية على ذات الأمة وضرورة مواجهة تحدياتها المناوئة، لحماية الذات الإسلامية من خلال منهاج إسلامي تأخذ به مؤسسات الدعوة ومؤسسات التعليم والإعلام لتقديم البرهان بأن المسلمين أمة نشرت حضارة المعرفة والحق والخير والتعاون والعدل والسلام، وأنها بعيدة عن التطرف والإرهاب والعنف في التعامل مع غيرها، وأن ما يقوم به بعض الأفراد منها لا صلة له بجوهر الثقافة الإسلامية الصحيحة.

وبالعودة إلى تلك الروح الدينية المتشددة لدى الغرب ولا سيما أمريكا، فقد نقلت مجلة دير شبيخل الألمانية أخباراًعن عقد حلقات أدعية وصلوات في البيت الأبيض، يحضرها أركان الإدارة وعدد من القساوسة قبل اتخاذ أي قرار مهم، وقد ذكر أيضاً الكاتب الخاص لخطب الرئيس بوش «ديفيد فروم» في كتابه الأخير أنّه فوجئ بأن أول سؤال وجِّه إليه من مسؤول دخل يومه الأول للبيت الأبيض هو: «افتقدناك في صلاة الصبح»!، فهو سؤال أظن أن حركة طالبان ذاتها لم تكن توجهه إلى موظفيها!، كما كان لافتاً للجميع استخدام أركان

الإدارة الأمريكية في خطبهم ألفاظاً وأساليب دينية لم يسبق لها مثيل في أحاديث الساسة في الغرب على الإطلاق، بعضها وصل إلى حد استخدام «الحملة الصليبية» على لسان بوش الابن نفسه أو ما قاله مؤخراً (الإسلام الفاشي).

كما أن خطبه وخطب وزير العدل الأمريكي «جون أشكر وفت» وغيره أصبحت مشحونة بالتعبيرات المسيحية وعبارات من الإنجيل بصورة لافتة جداً، حتى قال عنها بعض المحللين الأمريكيين إنها تشبه خطب الكنائس وليست خطب رجال السياسة، مثل هذه التوجهات والروح الدينية المتشنجة كانت مثار قلق لدى دوائر عربية وإسلامية مختلفة على الرغم من وجود من «يعوم على عومهم» من الكتّاب العرب والمسلمين وينادي بتلطيف الخطاب تجاههم رغم أن الخطاب الديني أصلاً قد ذكر في القرآن الكريم ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران: 64) ولكنهم كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴿٤﴾ ﴾ (المنافقون: 4).

ولكن مثل هذه التوجهات زاد فزعها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ثم تحققت المخاوف من خلال موجة جديدة من القمع والترويع والتدمير لأي وجود إسلامي في أمريكا، مهما كان مسالماً، ومهما كان قانونياً، حتى إن الشغل الشاغل الآن هو البحث عن أي

هفوة أو شبهة مخالفة للقانون ـ مرورية كانت أم تعليمية ـ لتصفية حسابات قديمة مع المسلمين في أمريكا، وقد بدأت رسالة الرعب بعد أحداث سبتمبر مباشرة فقد تم اقتحام قوات الأمن الأمريكية لمكاتب المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن، وإهانة العاملين فيه ومصادرة الأوراق وأجهزة الكومبيوتر والمتعلقات كافة . ومن الجدير بالذكر أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن مشهور عنه تبني أفكار ومفاهيم أكثر تماشياً مع الفكر الغربي، ولا يرضى عنها الجمهور الوسطي الأكبر في العالم الإسلامي، والأهم من ذلك أن المعهد من خلال قادته مرتبط وظيفياً بالإدارة الأمريكية، من خلال خدمات رسمية يقدمها، منها على سبيل المثال تقديم خدمات لوزارة الدفاع الأمريكية تخص الجنود المسلمين في الجيش الأمريكي، ومع ذلك فوجئ الجميع بهذه الهجمة العنيفة على المعهد. من هذا المنطلق نجد أن ذلك أعطى مؤشراً على أن هناك موجة عنف مؤسسي مقبلة لتصفية الوجود الإسلامي في أمريكا، لا سيما بعد التقارير التي انتشرت حول تزايد معدلات انتشار الإسلام في أمريكا لا سيما بين السود، وتجاوز الرقم مؤخراً العشرة ملايين.

وكان قد تردد سؤال في تلك الحقبة عن أسباب انتشار الإسلام بين المواطنين السود بسرعة وداخل السجون الأمريكية. ولتسليط الضوء على تلك الظاهرة وحجم مشكلة السجون في الولايات المتحدة يجدر أن نشير إلى أن الولايات المتحدة تشكل 5٪ فقط من سكان العالم، لكن لديها 25٪ من سجناء العالم. ويقبع في السجون الأمريكية

ما يقرب من 2.3 مليون شخص حالياً، وهي النسبة الأعلى لعدد المساجين مقارنة بعدد السكان في كل دول العالم. وقد أصبح الإسلام جزءاً مهماً من ثقافة الأمريكان السود وثقافة السجون الأمريكية لا سيما في العقود الثلاثة الأخيرة. وتبلغ نسبة المساجين المسلمين في السجون الفيدرالية ما نسبته 6٪ من إجمالي 150 ألف سجين. هذا على الرغم من أن عدد المسلمين في الولايات المتحدة لا يتجاوز 2.5٪ من إجمالي عدد السكان. ففي سجن جزيرة ريكرزRikers Island بولاية نيويورك المخصص لأخطر المجرمين، تبلغ نسبة المساجين المسلمين 25٪ من إجمالي المساجين. وكان أغلبهم قد تم اعتقالهم خلال الشهور التي تلت أحداث سبتمبر.

وينتشر الإسلام بصورة كبيرة بين من يقضون مدة في السجون الأمريكية، بنسبة تصل إلى أكثر من مثيلاتها خارج هذه السجون. أما في سجون الولايات المختلفة، فلا توجد بيانات عن أعداد المساجين المسلمين فيها. وعلى الرغم من وجود خلاف كبير حول إجمالي عدد المسلمين في السجون الأمريكية، فإنه يوجد اتفاق عام على أن نسبة المساجين المسلمين تفوق بصورة كبيرة نسبة المساجين من أي ديانة أخرى. وكان لما توفره تعاليم الإسلام بصفة عامة من مبادئ المساواة بين البشر، وعدم التفرقة بين البشر على أساس اللون دور كبير في جذب الأمريكيين الأفارقة السود بصورة أكبر من غيرهم لتبني الإسلام ديناً.

ومن أشهر النماذج الإسلامية في أمريكا أنموذج إسلام خوسيه باديلا Jose Padilla، فقد أعلن وزير العدل جون أشكروفت في 8 مايو 2002 عن إلقاء القبض على مواطن أمريكي يدعى خوسيه باديلا ـ ترجع أصوله لبورتوريكو، وكان قد أشهر إسلامه وأطلق على نفسه اسم عبدالله المهاجر ـ واتهم بتدبير مؤامرة لتفجير قنبلة إشعاعية قذرة في العاصمة واشنطن، حيث تتواجد أهم مؤسسات الإدارة الأمريكية مثل البيت الأبيض وجميع الوزارات الفيدرالية الأمريكية. وأشارت المعلومات التي كشفتها السلطات الأمريكية حول شخصية خوسيه باديلا الكثير عن كيفية اعتناق بعض أفراد الأقليات العرقية الإسلام في السجون الأمريكية. ولكن في عام 1992، حدث تطور مهم في حياته، عندما عمل مع صديقة له تدعى شيري «ماريا شولتز» في مطعم باكستاني بولاية فلوريد، حيث اعتنق الإسلام وتزوج منها. ثم أسلمت أيضاً صديقته وأصبح اسمها مروة. ووفقا لما ذكره عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي، سافر باديلا إلى مصر وتزوج من فتاة مصرية وعاش معها في إحدى المناطق الشعبية بضواحي القاهرة. وتقول مصادر مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI، إن خوسيه باديلا سافر بعد ذلك إلى أفغانستان وباكستان حيث التقى بمسؤولين في تنظيم القاعدة وتلقى تدريبات على شن الهجمات ضد المنشآت والفنادق واستخدام السلاح وصناعة القنابل والشحنات الناسفة بمختلف أنواعها. وتمثل هذه الحالة قلقاً كبيراً لخبراء الأمن الأمريكيين ولا سيما مع وجود حالة أخرى لشخص آخر يدعي

ريتشارد ريد Richard Reid، الذي كان قد اتهم بمحاولة تفجير طائرة أمريكية فوق المحيط الأطلنطي عن طريق مفرقعات خبأها في حذائه. وهو بريطاني كان قد اعتنق الإسلام في سجون بريطانيا.

وعادةً ما تطلب المباحث من أئمة مساجد السجون الأمريكية تقارير عمن يشتبه في تبنيهم إيديولوجيات متطرفة، وتتهم إدارة السجون الأمريكية على المستوى الفيدرالي ومستوى الولايات، بأن أسلوب الإدارة فيها يغذي ثقافة تقوم على العنف والوحشية والتطرف لدى المساجين، إذ غالباً ما تنتج عصابات عنيفة تقوم على أساس إيديولوجيات عنصرية ومتطرفة. والسجناء الضعفاء يتعرضون لسوء المعاملة والاعتداءات الجنسية، لذا يتجمع المساجين مع بعضهم تحت ستار ديني أو لغوي أو اجتماعي أو إقليمي داخل السجون من أجل الحصول على ميزات عضوية إحدى هذه الجماعات، وما يوفره هذا من أمان وحماية، وشعور بالانتماء. وهكذا أصبح الإسلام خلال العقود الثلاثة واحداً من هذه الألوية التي يتجمع تحتها أعداد كبيرة من المساجين. وتخلق هذه القضية - إلى جانب بعدها الأمني الخطير - معضلة عميقة فيما يتعلق بانتشار الإسلام في الولايات المتحدة واندماج الجالية الإسلامية مع بقية فئات المجتمع الأمريكي. ولأن الإسلام ليس له سلطة أو مؤسسة مركزية تدير شؤونه لا في الولايات المتحدة، ولا في سجونها، فإنه يتم الاستعانة بمسلمين من كل ولاية لتقديم خدمات دينية مثل الوعظ والإصلاح وإمامة الصلاة في بعض الأحيان. ولا يعرف أحد على وجه اليقين خلفيات هؤلاء الوعاظ

أو مؤهلاتهم الأكاديمية أو المعرفية. كما أن منظمات المسلمين الأمريكيين ليس لديها بيانات دقيقة عن المسلمين في السجون الأمريكية. وتحاول بعض هذه المنظمات رصد ما قد يتعرض له المسلمون من حالات تفرقة أو سوء معاملة بسبب الدين. ورصد مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية ـ منظمة «كير» ـ في تقريره عن وضع الحقوق المدنية لمسلمي أمريكا عام 2004 وجود ما يقرب من 1522 حالة انتهاك لحقوق المسلمين في السجون الأمريكية.

من ناحية أخرى، تقوم منظمات صغيرة مثل التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية بإمداد مكتبات السجون بالكتب والمصاحف سعياً للتعريف بالإسلام، ويدعم هذا التجمع الجهود الفردية لنشر الإسلام بين المساجين، لأنهم أكثر فئات المجتمع إقبالاً على الإسلام. وتحتوي معظم مكتبات السجون على نسخ من ترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيرها باللغة الإنكليزية، وعدد من الكتب وأشرطة تعليمية تتناول المبادئ العامة والمفصلة التي يحتاجها المسلم الجديد في أمور العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، بلغة وأسلوب ميسرين، بالإضافة إلى أشرطة فيديو لتعليم الوضوء والصلاة.

ومن ناحية أخرى.. لم تخيب الإدارة الأمريكية الجديدة الظنون فيها، إذ بدأت حملة موسعة لترويع وإرهاب أي نشاط إسلامي خيري أو ثقافي أو روحي في أمريكا، وقاد وزير العدل الأمريكي «جون أشكروفت» وهو رجل دين بالأساس شديد التعصب ووالده قسيس، قاد الحملة بضراوة، وكان من ضحيتها مؤسسة النجدة، حيث تم

اعتقال أحد مؤسسيها في عملية تصفية حساب معها لجهودها الكبيرة في إعاقة نشاطات التنصير في ألبانيا والبوسنة من خلال خدمات إنسانية كبيرة قدمتها في تلك المناطق، اشتكت منها مؤسسات تنصيرية متعددة. ولا يوجد دليل واحد علني مقنع على الإطلاق قدم ضدها حتى اليوم، إلا مجرد ادعاء وجود شبهات بدعم العنف، وهي سخافات على طريقة الحادثة المشهورة التي اتهمت فيها الإدارة الأمريكية الطيار المصري جميل البطوطي بأنه انتحر في طائرته، وكان الدليل الحاسم لديهم أن شريط التسجيل في الصندوق الأسود سمع فيه الرجل وهو يقول: توكلت على الله!

كذلك طالت حملة تصفية الحسابات القديمة كل من كان له موقف من نصرة قضية الشعب الفلسطيني ومعارضة الإرهاب الصهيوني في فلسطين، فتم اعتقال الدكتور سامي العريان، الذي طالما حاولوا إلصاق التهم به ففشلوا وطردوه من الجامعة التي يعمل بها، ثم تم اعتقال الطبيب والداعية الدكتور رافل ظافر.. وهو طبيب مرموق متخصص في الأورام.. أمريكي الجنسية منذ أكثر من ربع قرن، اعتقل بتهمة تقديم العون لأطفال العراق وقت الحصار، وقد كان الدكتور رافل يقوم بالدعوة للتبرع لأطفال العراق علانية وعلى مدار سنوات طويلة تحت سمع وبصر الأجهزة الأمريكية، ثم اعتقلوه أخيراً بتهمة خرق قرارات الحصار على العراق. ولأن سبحة التطرف والإرهاب تم فرطها دون توقف، فقد تم اعتقال الشاب السعودي المتميز سامي الحصين، وهو يحضر الدكتوراة في مجال علوم الكومبيوتر، وكان آية

في العطاء الخير بطيب نفس، بعيداً عن أي ارتباطات تنظيمية.. كان لا يرد طلباً لأحد.. شخصاً كان أم مؤسسة قانونية تطلب منه مشورة فنية، ومن أعماله التطوعية قيامه بتطوير موقع مجلة المنار الجديد على الإنترنت كنوع من المجاملة، كما تطوع بالتبرع بالدم في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر كنوع من التضامن مع الشعب الأمريكي، ولكن حملة الإرهاب الأمريكي رأت أنه يدعم العنف ضد الولايات المتحدة من خلال دعمه ـ حسب ما هو معلن ـ لمواقع التجمع الإسلامي على الإنترنت، وهو كلام لو قلنا إنه نكتة سخيفة لكان التعبير أقل من وصف حجم الهزل، والكذب الفاضح في هذا الاتهام، وهذا هو طبع الإعلام الأمريكي دائماً؛ إذ يضلل الشارع الأمريكي، ويحاول دائماً أن يغطي على هفوات الساسة الأمريكان وفشلهم الذريع في التعامل مع الأحداث، بتزييف الحقائق وتلبيس الأبرياء التهم دون أدلة ودون حتى احترام للحقوق المدنية التي كانوا يتشدقون بها دائماً.

إنها إذاً حقيقة السياسة الأمريكية شئنا أم أبينا، فلقد تدافع عشرات الصحفيين الأمريكيين لمراجعة تلك المواقع ـ مواقع التجمع الإسلامي على الإنترنت ـ فلم يجدوا شيئاً، ولربما أزعجهم نشر مقالات المفكرين العرب والمسلمين التي كانت توضح الأمور وتجلي الأبصار ولا سيما الأمريكية منها، رغم أنها منشورة سابقاً في صحف خارج أمريكا.

وقام مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد أحداث سبتمبر بعملية حصر واسعة النطاق لجميع المساجد الموجودة في أنحاء الولايات المتحدة، لتوزيعها على ستة وخمسين فرعاً لها لإخضاعها للمتابعة والتفتيش والمراقبة المستمرة كأماكن مشبوهة! كما قام مكتب التحقيقات بتعميم خطاب إلى جميع المراكز الإسلامية والمساجد بإعطاء الفروع الأمنية لمكتب التحقيقات قوائم بجميع المسلمين المترددين على هذه المساجد والمراكز، مع بيانات عنهم. وهو إجراء إرهابي لا مثيل له مع طائفة أو دين في تاريخ أمريكا منذ نشأتها. وقد نالنا في كاربنديل ذلك الإجراء حيث تم استدعاء بعض الإخوان العرب والمسلمين والسعوديين خاصة، وقد داهموهم في بيوتهم وشققهم وتمت مساءلتهم حول أمور غريبة جداً، منها ـ على سبيل المثال لا الحصر: هل لديك سلاح أو قنبلة؟ هل لك علاقة بأحداث سبتمبر أو مع من قام بها؟ على تعرف فلاناً وفلاناً؟ وما هي علاقتك بهذا وذاك؟ ثم يطلب من الشخص تدوين كل معلوماته وكتابة عنوانه كاملاً في أوراق تم توزيعها من قبلهم. وفي النهاية يتم أخذ أجهزة الحاسب الشخصية وجميع الأقراص المتواجدة في البيت أو الغرفة بعد أن يقوموا بتفتيش البيت تفتيشاً مزعجاً جداً. لكن ما كنا نخشاه هو أن تكون مثل هذه الاندفاعات المهووسة التي يقودها اليمين المسيحي المتطرف في الإدارة الأمريكية وسيلة أو طريقة لتصفية الحساب مع الوجود الإسلامي في أمريكا مع تقديم

دعم معنوي هائل لقوى العنف والتطرف الحقيقي، تلك التي قامت، أو ظهرت بعض أفعالهم خلال تلك الحقبة من خلال برهانها العملي الواضح على أن الحملة الأمريكية ليست كما يروجون «مجرد حملة على الإرهاب والعنف» إنما هي حملة على الوجود الإسلامي ذاته، وأخشى أن تتعاظم هذه الحملة التي يندفع فيها فريق «جون أشكروفت» لتشعل حريقاً إنسانياً يجتاح العالم كله، وتؤسس عهداً جديداً يحيي في الأرض صراعات وأحقاداً قديمة، ظن العالم - وما زلنا نظن معه - أن مسيرة الرشد في عالم البشر قد تجاوزتها، وطوتها إلى الأبد.

الدكتور وليد فتحي:

يأبى الله إلا أن يتم نوره، فقد اطلعت على قصة كتبها صاحبها وكتب عن وضع الإسلام والمسلمين في إحدى المدن الأمريكية المهمة جداً.. ولعلي أسترجع ما ذكرت سابقاً وأقول: «لعل الأمر فيه خير» فلقد أضرت تلك الحوادث بالإسلام والمسلمين.. ليس في هذا جدال، ولكن كان فيها أيضاً خير، عن طريق تلك الأمور غير المباشرة التي سهلت على الدعاة واختصرت سنين طوالاً للوصول إلى عقول جميع مستويات المجتمع الأمريكي.. فرب ضارة نافعة. فقليل جداً الآن من الشعب الأمريكي من لا يعلم ولا يعرف عن الإسلام شيئاً. وإليكم قصة الدكتور وليد أحمد فتحي وهو استشاري غدد صماء وسكر ورئيس برنامج في مركز جوزلن للسكر وعضو هيئة تدريس كلية طب جامعة هارفرد ـ بوسطن. فقد قال الدكتور فتحي:

«استيقظت صباح الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر على رؤيا رأيتها قبل صلاة الفجر، فقد رأيت جبالاً جرداء تهتز من حولي كأنها زلزال عظيم، وأنا أتلو في منامي قول الله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ (الأنعام: 91) وذهبت إلى عيادتي وسمعت من أول مريض لي عن الطائرة الأولى التي ارتطمت بمركز التجارة العالمي، وسمعت بالطائرة الثانية من مريضي الثاني. وبدأ الإعلام منذ اليوم الأول يلمح بأن هناك أيدي مسلمة وعربية خلف ما حدث.. وفي تمام الساعة الثانية عشرة اجتمع أمناء المركز الإسلامي في بوسطن وإدارته ولجانه وإمامه اجتماعاً طارئاً، وكنت معهم على الهاتف من عيادتي، وقررنا القيام بحملة تبرع بالدم، وكوّنّا لجنة للاتصال بالصليب الأحمر الأمريكي والترتيب معهم، ودعونا الإعلام لتغطية الحدث، واتصلنا بسلطات المدينة والولاية فسارعوا بتسخير رجال الأمن لحماية المركز الإسلامي وممتلكاته وزائريه. وقد كان يوماً عصيباً علينا جميعاً، وكنا نتلهف على أية معلومة تبعد التهمة النكراء عن الأيدي المسلمة العربية. وفي يوم الأربعاء 12 سبتمبر، انهالت علينا الصحف وقنوات التلفاز والمذياع تمطرنا جميعها بالأسئلة من كل مكان، ودعيت إلى قناتين تلفازيتين وصحف محلية ودولية عدة مثل: WALL STREET JOURNAL وBOSTON GLOBE، ونحن نحاول أن نثبت إنسانيتنا بصفتنا بشراً، وأننا أبرياء مما حدث.. نعم إخوتي وأخواتي.. كنا نحاول أن نثبت إنسانيتنا وفي يوم واحد وجدنا أنفسنا نقف على ثغر مفتوح، وينهال علينا الهجوم من كل مكان، وقلوبنا تدمى ولسان حالنا يقول: إن الدعوة إلى الله قد تراجعت خمسين

عاماً في أمريكا والعالم أجمع. وفي يوم الخميس الموافق للثالث عشر من سبتمبر، اجتمع في الساحة المقابلة لمقر عمدة مدينة بوسطن CITY HALL عشرة آلاف شخص، وتحدث رؤساء الديانات بمن فيهم المسلمون، الذين شرحوا موقف الإسلام من هذه الجريمة.. وشاهد الملايين ذلك واستمعوا إلى القرآن الكريم أيضاً، وحدث مثل هذا في كل ولايات أمريكا.

وفي يوم الجمعة دعينا مرة أخرى للمشاركة في برامج تلفازية عدة، فشاركت في أحد هذه البرامج. كما شارك في صلاة الجمعة في المركز الإسلامي للجمعية الإسلامية في بوسطن (في خيمة مخصصة لذلك) رؤساء الكنائس المجاورة وعمدة مدينة كامبردج وساروا مع المسلمين تضامناً معهم حتى مقر عمدة مدينة كامبردج، وشرح الإسلام للحاضرين تحت تغطية إعلامية تناقلتها وسائل الإعلام.

في يوم السبت الموافق 15 سبتمبر اصطحبت زوجتي وأولادي - أحمد ومريم ويوسف - إلى أكبر كنيسة في بوسطن COPLEY SQUARE - تلبية لدعوة رسمية للجمعية الإسلامية في بوسطن لتمثيل الإسلام في دعوة خاصة لأعيان مدينة بوسطن. فحضر عمدة المدينة وزوجه ورؤساء جامعات، وزاد عدد الحاضرين عن الألف تحت تغطية إعلامية من إحدى القنوات التلفازية الرئيسة في بوسطن. واستقبلنا استقبال السفراء وجلست وزوجتي وأولادي في أول صف بجوار زوجة عمدة مدينة بوسطن، وتحدث كبير القساوسة في خطبته

فدافع عن الإسلام بصفته ديناً سماوياً، وأعلم الحاضرين بوجودي ممثلاً للجمعية الإسلامية في بوسطن. وبعد الانتهاء من المحاضرة وقف بجواري كبير القساوسة وقرأت البيان الرسمي الذي صدر من كبار علماء المسلمين الذي يدين العمل الشائن ويشرح موقف الإسلام و يبين مبادئه وتعاليمه السامية، ثم قرأت ترجمة آيات من القرآن الكريم باللغة الإنكليزية أولاً ثم رتلتُ ترتيلاً مرتفعاً قوله تعالى: ﴿ ... **أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ (المائدة: 32) وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** (١٣) ﴾ (الحجرات: 13) وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (٨) ﴾ (المائدة: 8).

لقد كانت لحظات لن أنساها، تلك التي انقلبت فيها الكنيسة إلى بكاء عند سماع آيات من كلام الله تعالى تتلى على الحاضرين، وانهالت المشاعر الفياضة علينا فيقول أحدهم لي: (إنني لا أفهم اللغة العربية ولكن ما نطقت به هو من كلام الله لا شك)، وأخرى تضع في يدي ورقة وهي تغادر الكنيسة باكية وتكتب فيها: (اغفروا لنا ماضينا وحاضرنا وادعوا لنا)، وآخر يقف على باب الكنيسة وينظر إليّ بعينين دامعتين ويقول: (أنتم مثلنا .. بل أنتم خير منا)، وطلب كثيرون مني عنوان الجمعية الإسلامية في بوسطن لزيارتها والاستماع

للمحاضرات الأسبوعية وسماع القرآن يتلى أثناء الصلاة. وفي لحظات قليلة أحسست بحكمة الله تعمل بطريقتها التي لا يدركها ولن تدركها عقولنا المتواضعة، وقامت أكبر القنوات التلفازية بتغطية الحدث وإجراء مقابلة معي بعدها.

في يوم الأحد 16 سبتمبر قامت الجمعية الإسلامية في بوسطن بتوجيه دعوة مفتوحة في مقر المركز الحالي في كامبردج والموجود بين جامعتي هارفارد، وMIT، ولم نتوقع أن يحضر أكثر من مئة شخص، وكانت مفاجأة لنا أن يحضر أكثر من ألف شخص من الجيران ومن أساتذة جامعات ورجال دين.. بل وحضر كبار القساوسة من الكنائس المجاورة التي دعينا إليها لإلقاء كلمات عن الإسلام. وتحدث الجميع تضامناً مع المسلمين. لقد انهالت علينا أسئلة كثيرة تريد أن تعرف عن الإسلام وتفهم تعاليمه، ولم يكن بين الأسئلة سؤال واحد تهكمي بل على العكس من ذلك فقد رأينا الأعين تدمع وهي تسمع عن الإسلام ومبادئه السامية، ومنهم الكثيرون ممن لم يسمعوا من قبل عن الإسلام.. نعم.. لم يسمعوا عن الإسلام إلا من وسائل الإعلام المغرضة. وفي اليوم نفسه دعيت مرة أخرى لأشارك في اللقاء الذي عقد في الكنيسة التي شاركت فيها في اليوم السابق، وتكرر الحدث وتكرر المشهد وتكررت المشاعر وتكررت رغبة الكثيرين في زيارة المركز الإسلامي لمعرفة المزيد عن الإسلام وسماع كلمات الله تتلى، وتكررت الدعوات التلفازية والتغطية الإعلامية والمشاركة يومي الإثنين والثلاثاء، فاستضافتنا أكثر من خمس قنوات تلفازية.

دعيت مرة أخرى في يوم الأربعاء من قبل عمدة المدينة المجاورة لشرح موقف الإسلام أمام آلاف من سكان المدينة، وتلي القرآن على الآلاف وغطى الإعلام كل ذلك. وفي يوم الخميس زار مركز الجمعية الإسلامية في بوسطن بعثة من ثلاثمئة طالب وطالبة وأساتذة جامعة هارفارد برفقة سفيرة الولايات المتحدة في فيينا، وجلسوا جميعاً على أرض ساحة المسجد. وامتلأ المكان وشرحنا تعاليم الإسلام الغراء، ودفعنا الشبهات التي تثار حوله، وقرأت آيات الله عليهم مرة أخرى، ودمعت العيون وتأثر الحاضرون، وطلب كثير منهم الحضور للمشاركة والاستماع للدروس الأسبوعية التي يعقدها المركز الإسلامي لغير المسلمين. ودعيت في مساء اليوم نفسه للمشاركة في برنامج على مستوى أمريكا كلها مع البروفسور ALAN DERSHOWITZ من جامعة هارفارد لمناقشة الحقوق المدنية والإنسانية في القوانين الأمريكية والدولية، وشارك في البرنامج إخوة وأخوات لنا من المسلمين حول أمريكا.

وفي يوم الجمعة 21 سبتمبر، شارك المسلمون في اجتماع مغلق مع حاكمة ولاية ماستشوستس، وتمت مناقشة إدخال مادة لتعليم الإسلام في المدارس كمنهج دراسي لتوعية الشعب ومحاربة العنصرية ضد المسلمين الناجمة عن جهل الشعب الأمريكي بالدين الإسلامي، وتمت الموافقة والتأييد من حاكمة الولاية وبدأت الخطوات لدراسة كيفية تحقيق هذا الهدف. أما صلاة الجمعة في مركز الجمعية الإسلامية في بوسطن فقد تمت تغطيتها بالكامل من قبل قناة CNN، وكذلك

الحال بالنسبة للدرس الأسبوعي ليلاً. وما ذكرت لكم ليس إلا أمثلة لما حدث ويحدث في مدينة بوسطن هذه الأيام، ويحدث مثل ذلك في كثير من المدن الأمريكية الأخرى. إن الدعوة إلى الله لم تتقهقر وتتراجع خمسين عاماً كما كنا نحسب في الأيام الأولى من جريمة الحادي عشر من سبتمبر، وإنما شهدنا أحد عشر يوماً هي بمثابة أحد عشر عاماً من تاريخ الدعوة إلى الله. وها أنا أكتب إليكم اليوم هذه الكلمات وكلي ثقة أن الإسلام سينتشر إن شاء الله في أمريكا والعالم أجمع خلال الأعوام القادمة أسرع مما كان ينتشر سابقاً؛ إذ إن العالم أجمع يسأل: (ما هو الإسلام؟) ومن يرى بأم عينيه ليس كمن يقرأ ويسمع.

المهندس سامي الحصين..

من هو وماذا جرى له؟

* متزوج ولديه 3 أطفال.
* حاصل على شهادة البكالوريوس عام 1992 م من جامعة الملك سعود.
* حاصل على الماجستير من أمريكا 1997 م.
* عضو اللجنة الفنية في «الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا IANA» التي تهدف إلى نشر برامج عن الإسلام عن طريق الإنترنت.
* تمت براءته من تهمة الإرهاب في 2004/6/10 م.

تلقى سامي عمر الحصين تعليمه الابتدائي والمتوسط والثانوي في مدينة الرياض. حصل على درجة البكالوريوس في هندسة الحاسب الآلي من جامعة الملك سعود، أوفد إلى أمريكا لمدة ثلاث سنوات لغرض الحصول على درجة الماجستير من جامعة بول ستيت في ولاية إنديانا الأمريكية، فحصل على الدرجة خلال سنة ونصف بتقدير امتياز مما أهله للحصول على جائزة الأمير بندر بن سلطان، سفير خادم الحرمين الشريفين في الولايات المتحدة للتفوق العلمي. عاد إلى المملكة، ثم أرسل مجدداً لنيل درجة الدكتوراة في علوم الحاسب الآلي، من قسم علوم الحاسب في جامعة آيدهو، وخلال دراسته في جامعة آيدهو أنهى جميع مواده الدراسية بتقدير امتياز، كما عمل معيداً في القسم. كان في طور وضع اللمسات الأخيرة على أطروحته وذلك استعداداً لمناقشتها في نهاية مايو 2003 م الموافق لربيع الثاني 1424هـ.. رجل ذكي جداً.. متميز في مجال تخصصه (أمن الشبكات).. في تقديري إنه أحد الكفاءات الوطنية والعربية، التي سنخسرها لو سمحنا لهذا الظلم الواقع عليه، أن يمر.. ويمرر مخططاته..!!

رجل كرس وقته لخدمة دينه وأمته.. أحسبه والله حسيبه، من الرجال القلائل، الذين عاشوا هَمَّ الأمة، وامتزجوا بآمالها وآلامها.. وعاش نهاره يفكر في واقعها، وأيقظ ليله يخطط لمستقبلها. وقد تحدث الدكتور محمد الحضيف عن سامي الحصين في إحدى الصحف السعودية، وهنا أنقل لكم ما ذكره الدكتور الحضيف عن

سامي في جريدة الوطن: ترجع الأسباب الرئيسة لاعتقال الطالب السعودي سامي عمر الحصين لإسهامه في تسجيل عدد من مواقع الإنترنت الإسلامية، على الرغم من عدم صلته بما في هذه المواقع من مواد أو آراء. واتضح أنه عندما يشك مكتب التحقيقات الأمريكي في أمر شخص ما ولا يملك القرائن الكافية، يبدأ بالبحث في قانونية إقامته في أمريكا، وهو ما حرصت عليه السلطات الأمريكية من خلال اتهامها للطالب السعودي سامي عمر الحصين بأنه يعمل على الرغم من أن تأشيرته للدراسة فقط. واعتبر مكتب التحقيقات أن تسجيل مواقع الإنترنت عمل غير مشروع، وأن ممارسته للعمل هي بهدف الربح، وأنه انتهاك من الطالب لتأشيرة الدراسة.. إلى آخر الاتهامات التي تسجل عندما تفقد السلطات الدلائل على اتهاماتها. ويقول الاتهام الموجه إلى الحصين إنه طوَّر مواقع إنترنت، وهي مواقع من النظرة الأمريكية تدعم الإرهاب. وقالت مصادر مطلعة إن أحد المواقع التي ورد اسمها في الاتهام الموجه للحصين سمى في أحد موضوعاته أحداث 11 سبتمبر بـ «غزوة مانهاتن»، مما اعتبرته السلطات الأمريكية تشجيعاً على الإرهاب. وعلى الرغم من أن الحصين لم يكن مسؤولاً عن مواد هذه المواقع، وإنما مساعداً في تسجيلها، إلا أن السلطات اعتبرت ذلك دعماً للإرهاب كما أن كثيراً من هذه المواقع تكتب في صفحتها الرئيسة أن المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الموقع.

ومن هذه المواقع التي ورد ذكرها في الاتهام موقعان للشيخ سفر «الحوالي»، وموقع باللغة الإنكليزية باسم «لواء الهجرة»، وموقع عربي

آخر باسم «مجلة العصر»، إضافة لمواقع «الموارد»، و«العصر دوت نت» و«الإسلام على الهواء ـ لايف إسلام». وقد عدّ مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي هذه المواقع تحرض على الإرهاب، مستشهداً بمقطع من إحدى المقالات المنشورة في موقع «العصر» بعنوان: «العمليات الاستشهادية».. نشر في شهر 6 عام 2001، أي: قبل أشهر من أحداث 11 سبتمبر. وتضمنت المقالة «أن العمليات الاستشهادية في هذا العصر قد تشمل تفجير طائرة على موقع مهم مما يسبب للعدو خسائر فادحة»، كما عدّ مكتب التحقيقات أن هذه المواقع قد أسست لصالح إحدى الشركات السعودية «دار العصر» أو بالتعاون معها. وفي الواقع إنه لو لم يثبت عليه تهمة مخالفة شروط الإقامة لوجدوا عليه مخالفات مرورية غير مسددة أو إزعاج الجيران، أو حتى لفقوا له تهمة. فالمواقع المناهضة لواشنطن من وجهة نظرهم كثيرة ومتجددة ومزعجة والهدف هو إسكات هذه المواقع.

وقد نشرت قصة السيدة مها وزوجها سامي في أكثر من موقع، وفي أكثر من صحيفة، وقد قرأت مقالة نشرتها صحيفة الحياة اللندنية في العدد (12/5) كتبها الدكتور أحمد بن راشد بن سعيد ـ أستاذ في جامعة الملك سعود ـ وحين فرغت منها أحسست أن كماً من الظلم قد وقع على الأخ سامي وعائلته الكريمة، ذلك الظلم الذي يعاني منه في الولايات المتحدة الشباب العربي الوفي لأمته ودينه وبعض الشباب السعودي بشكل خاص. علمت أيضاً كيف أهدرت حقوق الإنسان وضمانات العدالة في ذلك البلد الذي كان يضرب به المثل في هذه وتلك.

ومن هذا المنطلق أحببت أن أورد هذه القصة التي أرى فيها كل أنواع الظلم وجميع خروقات الحقوق الإنسانية التي ما زالوا يتشدقون بها.

وقائع القصة:

اختطف سامي الحصين من بين أسرته، وتعرّض لأنواع التعذيب والاضطهاد والضغط النفسي كافة، ومورست بحقه صنوف من الظلم بحجج واهية بعيدة عن المنطق والحقيقة، وأعلن القضاة أكثر من مرة هشاشة وضعف الأدلة التي يستند إليها الادعاء العام والأجهزة الأمنية، لكن ذلك لم يمنع الادعاء من الإصرار والمكابرة على التهم الزائفة من خلال فبركة المزيد منها.

ولم تسلم عائلة الرجل من الابتلاء والمضايقة والاضطهاد، وتم اغتيال الحقوق المكفولة للمتهمين كافة، ولم تتوقف عملية الضغوط والاضطهاد ضده حتى وهو في غياهب السجون، كما لم تشفع له سيرته المتميزة في التحصيل العلمي المبدع، وفي الخلق الرفيع في التعامل مع الحي الذي يسكن فيه، ولم تنفع شهادات أساتذته وزملائه وأقرانه في استقامته واعتداله.. لم يفلح كل ذلك مع الزمرة التي أعمى الحقد والتطرف بصيرتها المتبقية، وأصروا على ظلم الرجل واضطهاده بلا ذنب يذكر سوى أنه مسلم.. ملتزم.. مبدع.. معتدل، وربما يصيب هذا الأنموذج المتميز الذي يمثله سامي الحصين متطرفي الإدارة الأمريكية بالغيظ والحنق والغضب!

وفي الحقيقة فإن القصة تثير في كل من يقرأها أو يسمعها مشاعر الغيرة والغبطة في آنٍ واحد.. فإذا كان وراء كل رجل عظيم امرأة، فإن ذلك هو واقع الحال لقصة الأخ سامي.. فالمرأة نصف المجتمع أو أكثر من النصف، والمرأة هي الأم والزوجة والابنة والأخت والقريبة.. بل هي المربية والمعلمة والحاضنة.. وهي مخرجة الرجال، مربية الأبطال، معلمة النساء، هي منشئة القادة والعلماء والدعاة، خلقها الله سبحانه من آدم، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ (النساء:1) ومن هنا كان علماء الإسلام يتناولون قضية المرأة من منطلقات يقينية قررها القرآن الكريم، من منطلق الأحكام المتعلقة بها، أو من منطلق حقوقها أماً، وأختاً، وزوجة، وبنتاً.. إلخ.

أما في الأزمنة المتأخرة، فقد توسع الحديث عن المرأة من جوانب أخرى أهمها: أن قضيتها قضية عقيدة ومبدأ، فصرنا نسمع ونقرأ دعوات صريحة إلى أن تتحلل المرأة من أوامر ربها، وتعاليم دينها، وصار كثير من النساء يرفضن كل ما شرعه الله تعالى بدعوى التحرر والتقدم والتخلص من التأخر والرجعية والتقاليد البالية والموروثات القديمة. وبالتطرق لما جرى للمهندس السعودي سامي الحصين (34 عاماً)، وما فعلته زوجه السيدة مها (29 سنة) بعد أن قام عملاء المباحث الفيدرالية باختطاف الرجل من بين أسرته في الساعة الرابعة من فجر السادس والعشرين من شهر فبراير (شباط) 2003، فقد نقل عن الزوجة الصامدة والصابرة قولها: (أخذوا مني رفيق دربي إلى

حيث لا أعلم.. داهمني الحزن على فراقه والخوف عليه حتى مرضت، وتوجهت إلى الله بالدعاء أن يمنحني الرضا وأن يجعل عواقب أمورنا إلى خير، وقد استجاب الكريم فربط على قلبي وثبتني، فله الحمد وله الشكر). وقد أضاف الدكتور بن سعيد: «سرى خبر اعتقال سامي في مدينة موسكو.. وهي مدينة صغيرة تقع شمال ولاية آيداهو الأميركية، وتشتهر بجامعتها التي يدرس فيها سامي الدكتوراة في أمن الشبكات الحاسوبية.. موفداً من المؤسسة العامة للتعليم الفني والتدريب المهني بالسعودية. وقد كان تخرجه متوقعاً في آذار ـ مارس من عام 2004. تعاطف عدد كبير من الطلاب والأساتذة مع قضية سامي، لما يعرفونه من حسن خلق الشاب ووداعته ونشاطه، ويذكرون موقفه بُعيد أحداث الحادي عشر من سبتمبر حينما شارك في تظاهرة تندد بما حدث، وتبرع من دمه للمصابين.

وما زاد تعاطف الجامعة مع سامي تهافت الاتهامات الموجهة إليه وضحالتها والتعسف الواضح في محاولة ربطه بما يوصف بالإرهاب. وفي ظل الحملة الشرسة على سامي لم تجد زوجه مها بداً من الوقوف أمام الإرهاب الذي تمارسه إدارة الرئيس جورج بوش بحق العرب والمسلمين، لا سيما أنها طالت هذه المرة شريك الحياة ورفيق الدرب.

تقول مها: إثر اعتقال سامي حدثت ضجة إعلامية كبيرة، وتوافد الصحفيون على بيتنا يتساءلون عن الأمر، فطفقت أحدثهم عن سامي الزوج والأب والطالب والإنسان، وقلت لهم: إن لسامي من اسمه نصيباً،

فقد تسامى عن كل رذيلة، وهو أهل لكل فضيلة، وما كان لرجل يحمل قلباً كبيراً كسامي أن يكون كما يقولون. «وليس كبير القوم من يحمل الحقد». لم يكن سهلاً على مها أن تقاوم بوش ورامسفيلد وآشكروفت وغيرهم من متطرفي الإدارة الأميركية.. لكن كان لا بد من التحرك، ومن العار أن تغضي الحرة على الضيم. قاومت مها ببسالة، وتحدثت للصحافة عن كل ما يؤكد براءة سامي. جمعت جاراتها الأميركيات وحثتهن على التحرك للمطالبة بالإفراج عنه، وكانت أبرز خطواتها أن نظمت حفلة عشاء كبيرة على مستوى مدينة موسكو، وأرسلت بطاقات دعوة للمسؤولين، كما وزعت بطاقات دعوة خاصة على سكان المجمع الذي تقيم فيه، ونشرت دعوة عامة في الصحافة والتلفاز، وقد حضر الحفلة قرابة مئتي مدعو. تحدث في الحفلة محامي حقوق الإنسان في جامعة آيداهو، والمشرف على برنامج سامي للدكتوراة، ومحاميه، والمهند الابن الأكبر لسامي. لكن مها كانت نجمة الحفل، إذ وقفت شامخة بنقابها ودافعت عن زوجها بلغة أدهشت الحاضرين، وبأداء بلاغي حرك المشاعر في مجتمع يقدس الخطابة ويعامل أصحابها معاملة القادة.. أعدت مها طاولة وضعت عليها نماذج لرسائل احتجاج جاهزة يقوم الحضور فقط بتوقيعها، ومن ثم يتم إرسالها إلى البيت الأبيض والكونغرس ومنظمات حقوق الإنسان.

وزعت على الحضور أيضاً عشرات الفانلات المحتوية على عبارات مطالبة بالإفراج عن سامي، وحثت الجميع على المشاركة في مسيرة احتجاج ضد بقاء سامي في السجن، وارتداء الفانلات أثناء المسيرة،

وبالفعل تم تنظيم مسيرة حاشدة رفعت فيها لافتات ظهرت عليها صور سامي وأطفاله.. وطبعت عليها عبارات مثل: «اعملوا على جمع شمل العائلة». وسار المتظاهرون حاملين الشموع، وتم تناول الحدث في الصحافة المحلية. تقول مها: «لم يكن هدفي هو الدفاع عن سامي وحشد التأييد لإطلاق سراحه فحسب، بل كنت أسعى أيضاً للتعريف بحقيقة الإسلام وتقديمه للناس بصورته الجلية الناصعة».. كم كانت عظيمة في غايتها! وكم كان هدفها أعلى هامة من تلك الناطحات للسحاب التي تعانق سماء نيويورك ومدن أمريكا المختلفة! عندما تقرر حضور أحد المسؤولين عن مكافحة ما يسمى بالإرهاب إلى المدينة ليلقي كلمة عن الأحداث، هرعت مها إلى محاميتها وطلبت منها صياغة خطاب باسمها موجه إلى جورج بوش ليتم إلقاؤه أمام هذا المسؤول. وتم إعداد الخطاب وألقته المحامية أمام الحضور الذين تجاوز عددهم 300 شخص. وتحدث أيضاً أبناء سامي: المهند، وتميم، وزياد مرددين عبارات قصيرة حول شوقهم وحنينهم إلى والدهم. وعندما بدأ العام الدراسي الجديد في أواخر أغسطس 2003، كتبت مها رسالة تهنئة للطلاب الجدد باسم سامي، ونشرته في صحيفة الجامعة، كما وضعته في لوحة الإعلانات في المكتبة العامة وفي الكليات. واستغلت عقد اجتماع عام للطلاب لمناقشة شؤونهم واحتياجاتهم، فذهبت إلى هذا الاجتماع (على الرغم من أنها لم تكن من المنتسبين إلى الجامعة)، وخاطبت الطلاب في شأن سامي قائلة:

إنه كان معهم قبل عام شعلة من نشاط، وهو الآن يقبع في زنزانة انفرادية دون محاكمة ولا ذنب جناه. وامتد نشاط مها إلى استراحة الطلاب، حيث وضعت طاولة خاصة بالقضية، تتوسطها لافتة كتب عليها «سامي يحتاج إلى دعمك» وبجانبها صورة لأطفالها.

تذهب مها إلى هذا المكان كل أربعاء وتمكث فيه ساعتين على الأقل، توزع مطويات عن القضية، وتجمع أكبر عدد ممكن من توقيعات الطلاب على نماذج الاحتجاج. تراسل مها عشرات الصحفيين وناشطي حقوق الإنسان في أميركا الشمالية وأوروبا، وتحثهم على تبني قضية سامي، في الوقت الذي تقوم فيه بتزويد موقعwww.samiomar.com الذي أنشأه أصدقاء سامي بالمعلومات والصور. وامتد نشاط مها إلى كل الولايات، فتناولت القضية وتداعياتها في برنامج بثته شبكة إذاعية على مستوى البلاد. أصبح منزل (سامي/ مها) مقصداً لمراسلي الصحف ومحطات التلفاز والجيران المتضامنين. تقول مها: إن جيرانها «يشعرون بالعار من الذي حدث لها ولأسرتها». أثمرت جهود مها.. فالرسائل المتعاطفة تنهال على بيتها من كل أنحاء الولايات المتحدة، وهي تقول: إنها لا تستطيع إحصاء البطاقات المعبرة عن الدعم والمساندة التي تتدفق على عنوانها.. تذكر مها وأطفالها أنهم ذات صباح وجدوا كيساً عند باب بيتهم فيه ثلاث قصاصات مكتوب فيها عبارات تضامن مثل «قلوبنا معكم».

معاناة الزوج:

ضاق رجال المباحث الأميركية ذرعاً بنشاط مها وحاولوا إرهابها عبر مباغتاتهم المتكررة لبيتها، لكن ذلك لم يوهن عزيمتها.. وأخيراً قبضوا عليها وخيروها بين المحاكمة أو الرحيل الفوري عن البلاد، وأمهلوها خمس دقائق لاتخاذ القرار، اضطرت للقبول بالمحاكمة، فنشرت بعض الصحف مقالات تشيد بمها وبنزاهتها، وردت الحكومة ببيانات صحفية تتهم مها بكراهية أميركا، واستندت في ذلك إلى مكالمات هاتفية مسجلة لها.. بيد أن ترجمة هذه المكالمات كانت سيئة ومليئة بالتحامل وسوء النية.

كان رأي المباحث الاتحادية أن السيدة مها امرأة ذات ميول إرهابية في الأصل. ولذا اختارت سامي زوجاً. عقدت المحاكمة وحكم على مها وطفلين من أطفالها بالرحيل عن الولايات المتحدة في مدة أقصاها أربعة أشهر، أما الطفل الأصغر فيمكن له البقاء، نظراً لأنه ولد في أميركا ويحمل جنسيتها. تذهب مها كل نهاية أسبوع لزيارة زوجها في سجنه في مدينة بويزي التي تبعد نحو 800 كلم جنوبي موسكو (مدة الزيارة نصف ساعة)، ويسمح لهما باللقاء عبر نافذة زجاجية صغيرة لا يتجاوز طولها ثلاثين سنتيمتراً، وتتحدث معه عبر الهاتف.. لكنها في كل مرة تهمس لزوجها بعبارات تشد من أزره وتخفف لوعته. قاومت مها كل الضغوط الرهيبة التي مورست عليها، وبذلت المستحيل لإنقاذ شريك حياتها من براثن (العدالة الأميركية). عشرة أشهر مرت تغيرت خلالها حياة مها.. أصبحت محامية وصحافية وخطيبة وناشطة حقوق إنسان. أصبحت لأولادها أماً وأباً. مها لا تقود السيارة؛ لأن نظام

آيداهو يمنع القيادة بالنقاب. لذا تقضي شؤونها مشياً على الأقدام، فتقول: «أصطحب أطفالي معي إلى كل مكان، وعندما أوصل أولادي إلى المدرسة أقضي ساعات النهار خارج البيت. لم أدع طريقاً لدعم قضية سامي إلا وسلكته.. لا يهم إن كان الجو ماطراً أم ساخناً أم بارداً.. المعاناة كبيرة، لكن طيف أبي مهند يراودني ويسري عني ويخفف ما يصيبني من الأذى». مها تحزم أمتعتها للعودة إلى الوطن، فلم يعد في القوس منزع لمزيد من المقاومة، وإن كان في الصدر متسع من إرادة صلبة وعزيمة لا تلين. تقول: «يتساءل الأطفال: هل نسافر ونترك بابا هنا؟». تكفكف مها دمعة ساخنة وتتمتم بالدعاء: «أسأل الله الذي رد موسى إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن، ورد يوسف بعد طول غياب إلى يعقوب، أن يرد إلينا سامي إن ربي لطيف بمن يشاء. ما زلت في انتظار وعد الله باليسر بعد العسر، ومن أوفى بعهده من الله، والله خير حافظ، وهو أرحم الراحمين».

وقد ذكر الدكتور بن سعيد أن قضية سامي شاهد حي على المأزق الأخلاقي والسياسي الذي تتخبط فيه أميركا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهي أيضاً شاهد على هشاشة الديمقراطية الأميركية التي لم تصمد في أول امتحان حقيقي لها، فضحت بقيمها ومؤسساتها وشعاراتها أمام قربان التعصب، زاجة بمئات المسلمين خلف القضبان بتهم أكثرها ملفقة ومصطنعة، وأقامت معسكرات اعتقال جماعية خارج حدودها. لكن قضية سامي هي أيضاً قضية أمة يراد لها أن تبقى رهينة سجن كبير، وعنواناً لحضارة جميلة متسامحة تنفض عنها الغبار وتتهيأ للانبعاث من تحت الركام.

والمتابع لأنشطة الطلبة السعوديين في أمريكا منذ بداية موجة الإيفاد في الستينيات يعرف أن جزءاً كبيراً من الطلبة مارسوا أنشطة لا صفية أو لا منهجية مثل الأنشطة في المراكز الإسلامية والنوادي السعودية، بما في ذلك نشر المواقع وجمع الأموال للمراكز الإسلامية. ولم يعتبر ذلك قط مخالفة لشروط الإقامة في أمريكا، ولكن في الآونة الأخيرة بدت هذه الأمور محرمة أو ممنوعاً القيام بها، أو حتى بربعها. وسؤالي هنا... لماذا نسكت نحن على هذه الأفعال؟ هل تعلمنا أن نصمت حين نداس أو نظلم؟ لماذا يعلو صياحنا وصراخنا عندما يُمس المُعاهد في أرضنا... ونقف متفرجين عندما نهان كقطيع الأغنام هناك؟! لماذا نكون نحن الأذل ضمن سلسلة الأفعال المتطرفة؟ كل هذه أسئلة تدور في خاطر كل من يعيش أو يسمع مثل هذه القصة.

جهود السفارة السعودية:

وبالعودة إلى المعتقلين العرب والمسلمين في السجون الأمريكية على خلفية أحداث 11 سبتمبر، نجد أن السلطات الأمريكية مازالت تتحفظ على أعداد من المعتقلين في سجونها، كما أن موجة الاعتقالات مازالت مستمرة حتى الآن، وقد شملت العديد من الطلبة الخليجين والعرب والمسلمين. ويمكننا أن نقول: إن عدد المعتقلين العرب بلغ ما يقارب 2000 معتقل. وقد قامت السفارة السعودية بواشنطن بتعيين محامين لرعاياها، فعند علم السفارة بتعرض أحد الطلبة السعوديين للاعتقال، تسارع بتعيين محامٍ خاص لهذا الطالب وتتولى الدفاع عن قضيته.

ونحن إذ نذكر دور السفارة السعودية في واشنطن، وما قامت به تجاه مواطنيها وطلابها من متابعة كل قضاياهم، وتسهيل أمور عودتهم إذا رغبوا مع توجيههم، وإبلاغ الطلبة بكل المستجدات والقوانين التي سنت؛ لكي يبقى الطلاب على علم ودراية بكل المستجدات، فإننا نتوجه بالشكر الجزيل لكل العاملين في السفارة وعلى رأسهم صاحب السمو الملكي الأمير بندر بن سلطان سفير خادم الحرمين الشريفين لدى واشنطن. ومن بين الحالات التي أتذكرها وقد قرأنا عنها في أمريكا وما قامت السفارة بدورها تجاههم، كانت حالة الموفد السعودي (ز. ق) الذي كان قد أنهى لتوه مرحلة الماجستير وتعرض هو وزوجه للاعتقال، وكان ذلك الطالب ـ حسبما عرف عنه من حسن الخلق وبعده عن كل الأمور التي تستدعي اعتقاله ـ قد عانى وزوجه في أثناء الاحتجاز من سوء المعاملة ومُنعوا من أدنى حقوقهم. وقد أطلق سراحهما بعد مدة احتجاز لا داعي لها، وما كانت تصل بأي حال للسجن. وكان هناك الكثير من الحالات التي اعتقل أصحابها بسبب انتهاء مدة صلاحية التأشيرة المعطاة لهم أو لعدم تجديد الإقامة وقد انتهت بهم إلى التحقيقات مع الـ «إف بي آي»، مما جعل مدة اعتقالهم تمتد من أيام إلى أشهر، وهناك طلبة لم يُفرج عنهم حتى الآن!

وأذكر أنه تم اعتقال بعض الطلبة الخليجيين والعرب أيضاً في مدينة كاربنديل لأسباب تافهة، ومنها العمل أو انتهاء التأشيرة، الأمر الذي أودى بهم إلى معتقلات تمتلئ بالمجرمين، حيث يعاملون معاملة

سيئة جداً إلى أن يتم إخراجهم بكفالة باهظة جداً لم يتمكن أغلبهم من دفعها إلا بعد أن قام باقتراضها، وخرجوا بالكفالة إلى حين موعد محاكمتهم، وصدر أمر المحكمة بإخراجهم من أمريكا، وضياع سنوات الدراسة التي قضوها خلال مدة وجودهم هناك.

ولعله من المؤسف أن يكون بعض الطلبة السعوديين أو العرب المعتقلين بعد أحداث 11 سبتمبر، قد عاشوا ظروفاً صعبة في سجونهم، فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تمثل الأنموذج الأروع في احترام الحريات الفردية والشخصية ومنع الآخرين من المساس بها، إلا في حدود ضيقة جداً وبشروط بالغة الدقة، ثم جاءت أحداث 11 سبتمبر لتقوم أمريكا بسنّ قانون الطوارئ، ذلك القانون الذي صعق به الأمريكان قبل أي شخص آخر، فقد استبيحت الحريات، وأهينت المثل والنظريات والقوانين، وأصبح أمر المرء في يد رجل شرطة قد لا يعجبه شكلك، أو يحمل من الحقد الدفين ما يسمح له بأن يقوم بالقبض عليك ويودعك السجن.. ليس لشيء إلا لأنه بكل بساطة يشتبه بك. وأذكر أنه في إحدى ليالي شهر رمضان المبارك خرجت من بيتي عند الساعة الثانية صباحاً لأداء صلاة القيام في المسجد، وفي الطريق تم إيقافي من قبل إحدى السيارات التي كانت تتبعني، وكانوا في أغلب الأحيان يقومون بالتخفي أو إطفاء كل ما يشير إلى أنها سيارة شرطة، وكانت السيارة عادية أو بدت كذلك.. ولا سيما أن الظلام كان دامساً.. وبعد ثوانٍ قام قائدها بتشغيل كل الأنوار.. وعندما انتبهت إلى ذلك أوقفت السيارة وانتظرته إلى أن قدم إلي، عندها بادرني بطلب رخصة السيارة والقيادة وبطاقة التأمين،

للتأكد من صحة البيانات، كنت خلال هذه المدة أدعو الله أن يكفيني شره بما شاء، ثم عاد وسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ أجبته بأني ذاهب للصلاة في المسجد، عندها تبسم وقال: صلاة الآن؟ قلت له: لماذا تتبسم ألا تصدقني؟ قال: لا ولكنه أمر غريب. عندها أعاد إليَّ الأوراق والبطاقات وتوجهت بالشكر له وذهبت إلى المسجد، إلا أنه تبعني إلى أن تأكد من دخولي المركز الإسلامي.

اغتيال حلم:

كان أحد الإخوة السعوديين قد تخرج في الثانوية العامة في بداية الثمانينيات، وفضل بعدها التوجه إلى ميدان العمل، فعمل في أحد المصارف، واستمر في عمله وثابر بكل جد وإخلاص إلى أن وصل إلى مراكز مرموقة في ذلك المصرف. ومع منتصف التسعينيات تغيرت بعض الأمور، ووجد الرجل أن الأمر يحتاج إلى مواصلة التعليم ونيل الدرجة الجامعية. أخذ ذلك الأمر منه وقتاً وجهداً كبيرين للوصول إلى قرار حاسم وجوهري بإيقاف مسيرة العمل والذهاب إلى إكمال دراسته الجامعية ومرحلة الدراسات العليا. عقد أمره وقرر الذهاب لمواصلة دراسته في أمريكا. حصل على قبول من جامعة جنوب إلينوي بكاربنديل.. كان ذلك في عام 2000. وكان قراره بالذهاب إلى أمريكا للدراسة على حسابه الخاص مغامرة منه، إذ لم يكن في المرحلة العمرية التي قد تؤهله لذلك.. لقد كان حينها في الأربعينيات (31 سنة).. متزوجاً.. ولكن حرصه ورغبته في التحصيل العلمي كانت هي الدافع الجارف وراء سفره.

ذهب الرجل وانتظم في الدراسة.. كان من المتفوقين.. وكان يحلم بالالتحاق بالبعثة عن طريق الملحق الثقافي وسفارة خادم الحرمين الشريفين في واشنطن. فكل الشروط كانت تنطبق عليه. ووقعت أحداث سبتمبر واستمر في تفوقه الدراسي، حيث كان تخصصه في نظم المعلومات الإدارية (MIS)، وكانت أموره المالية أيضاً ميسرة، وتأشيرته مازالت سارية المفعول وكذلك الـ I-20.

وفي صيف 2002 جاءت الموافقة على انضمامه للبعثة (موافقة الملحق الثقافي بأن تكون بعثته على نفقة الحكومة).. كان كما ذكرت يستحق ذلك منذ مدة، ولكن هكذا هو النظام. عندها قرر العودة للوطن خلال الإجازة الصيفية ليسلِّم على والدته التي كان متعلقاً بها كثيراً، حيث كان طوال الوقت يردد الدعاء لها بطلب الشفاء والمغفرة، وكذلك لتجديد التأشيرة التي انتهى سريان مفعولها. لقد كان أنموذجاً من الشباب الحريصين على أن تكون أمورهم نظامية ووفقاً للقانون. وفور وصوله إلى السعودية قام بتقديم طلب تجديد التأشيرة إلى السفارة الأمريكية. وكما هو معروف أو معتاد لديهم في الآونة الأخيرة، فإنهم يطلبون من المتقدم أن تتم مقابلته ثم يعدونه بالاتصال به. انتظر كثيراً حتى وصل به الأمر إلى ستة أشهر، وكان قد اتصل بأحد الإخوة في كاربنديل وطلب منه أن يستمر في حجز الشقة التي كان يسكن فيها مع دفع الإيجار الشهري. وعندما طال به الأمر طلب منا أن نضع أثاثه في مخزن وأن نسلم الشقة. عندها قمنا بحفظ أثاثه وتسليم الشقة. وبعد ثمانية أشهر تقريباً تقدم بطلب جديد

للحصول على التأشيرة، وانتظر بعدها مدة ثلاثة أشهرتقريباً، حتى اتصلوا به، وطلبوا منه إحضار جوازه لكي يمنح التأشيرة. حصل على التأشيرة وعاد إلى الجامعة.. عاد للجري لكي يعوض السنة التي ضاعت منه (2003) أو بالأحرى التي ضيعوها عليه. ومن الجدير بالذكر أنه تم تجديد التأشيرة حسب المدة المتبعة (سنتين)، حاول خلال 2004 أن ينجز أكبر قدر ممكن من الساعات الدراسية. ومع صيف 2004 قرر أن يعود للاطمئنان على والدته التي كانت مريضة (فقد سبق أن قرر عدم السفر لدى حصوله على التأشيرة في العام السابق لمرض والدته)، إلا أن والدته أصرت على سفره. عاد وكله ثقة.. فأموره الإجرائية سليمة، ومع انتهاء مدة الإجازة ذهب للمطار بعد أن قام بوداع والدته للعودة لإكمال دراسته.. إلا أنه تم استدعاؤه من الطائرة وإخباره بإلغاء تأشيرته دون إبداء أسباب معينة، فما كان منه إلا أن ذكر لهم أنه كان من الأجدى أن يقوموا بإخباره قبل موعد سفره بمدة، وليس بعد صعوده الطائرة. هكذا تم اغتيال حلم رجل، وهكذا تم تحطيم مستقبل رجل سعى لكي يكون في الصدارة دون ذنب له سوى أنه كان طالب علم. ولا يزال ينتظر حتى هذه اللحظة (يناير 2006 م) أن يحصل على التأشيرة يوماً ما. ما الذي اقترفه؟ لقد كانت أموره سليمة، وكان أشدنا حرصاً على تطبيق الأنظمة. وعلى حد علمي.. لم يرتكب مخالفة مرورية.. كان واضحاً.. متفوقاً.. ذا خلق عالٍ.. لم يكن له أي نشاطات مشبوهة، لقد اغتيل حلمه وسرق ماضيه، فقد بدأ الدراسة على حسابه الخاص، وكانت تلك المبالغ هي حصيلة سنين من العمل الجاد.. ولكنهم اغتالوا طموحه وأحلامه.

قتل الطموح:

تم إيفاد أحد الإخوة السعوديين لإكمال دراسته العليا التي كان يحلم بها. بعد أن حصل على قبول بإحدى الجامعات الأمريكية. غادر السعودية مصطحباً عائلته متوجهاً إلى أمريكا، التحق بالدراسة في بداية 2001 بمركز اللغة، واجتاز مرحلة اللغة وبدأ الدراسة. ومع انطلاقة الفصل الدراسي الأول 2001 وقعت أحداث سبتمبر، وقرر مجموعة من الشباب العودة إلى السعودية مع عائلاتهم في ظل ثورة تلك الأحداث وتتابع القرارات التي ضيقت علينا الخناق، مما جعل من أمر البقاء بأمريكا كما أسلفنا أمراً غاية في الصعوبة والمجازفة. إلا أن أخانا عاد للجامعة وتوالت الفصول الدراسية وهو يعمل بجد سعياً لأن ينجز الدراسة في وقت قصير ويعود إلى وطنه. وفي خلال تلك المدة انتهت تأشيرة إقامته، ومع نهاية مايو 2004 أنهى متطلبات الماجستير وناقش بحثه.. كان متفوقاً كعادته. حصل على قبول لبرنامج الدكتوراة، عندها قرر قضاء الإجازة مع الأهل في وطنه، وفور وصوله إلى السعودية توجه إلى السفارة الأمريكية بالرياض بطلب الحصول على تأشيرة الدخول، تخوفاً من أن تأخذ وقتاً طويلاً أكثر من مدة الإجازة. وفي الوقت نفسه كنا على اتصال به لمتابعة الوضع ولمعرفة الإجراءات، وهل ثمة إجراءات أو طلبات جديدة من قبل السفارة؟ المهم.. أنه حصل على التأشيرة بعد مدة شهرين تقريباً.

وكنت في تلك الأيام أتأهب للعودة للإجازة الصيفية، وسرني خبر حصوله على التأشيرة، فقلت لنفسي لعل الأمور قد تسهلت، فعدت للوطن في منتصف شهر أغسطس 2004، وعاد هو لإكمال دراسته.

وعندما وصل إلى نيويورك تم استدعاؤه من قبل موظفي الجوازات، وأبقوه أربعاً وعشرين ساعة، ثم أبلغوه بعدم استطاعتهم السماح له بالدخول إلى أمريكا! «لقد ألغينا تأشيرتك وعليك العودة على الطائرة نفسها».. عاد إلى الوطن وهو ينعم بصحة وعافية، ولكنه حرم من إكمال دراسته العليا.

الإصرار والتحدي:

وهناك مجموعة كبيرة من الطلاب السعوديين حرموا من إكمال دراستهم بسبب عدم تمكنهم من الحصول على تأشيرات العودة إلى أمريكا.. منهم من حصل على الماجستير وعاد إلى السعودية لتجديد التأشيرة حتى تكون إقامتهم نظامية، إلا أنهم لم يتمكنوا من الحصول عليها، أو أن طلباتهم علقت لسنين عدة، أو منحوا التأشيرة ثم ألغيت فور حصولهم عليها، أو أعيدوا من أمريكا لأسباب غير مبررة. وما أنا إلا أحد أولئك الطلاب الذين حرموا من العودة، ومنها انطلقت في كتابة هذه الأوراق.

ومن القصص التي قدر الله أن تكون نهايتها جميلة، قصة أحد الطلبة من جملة الطلاب الموفدين في صيف 2003، عاد مع أحد زملائه في الجامعة بالسعودية، وتقدم بطلب الحصول على التأشيرة إلا أنه لم يتمكن من الحصول عليها، على الرغم من أنه كان قد أنجز كل المواد الدراسية في مرحلة الدكتوراة، بينما كان زميله الآخر طالب دكتوراة.. لم يكن قد بدأ البرنامج بعد. ولحسن حظه فقد أنهى

متطلبات الشهادة ولم يبقَ له سوى الانتهاء من البحث. وكان طيلة تلك السنوات التي أمضاها بالسعودية على اتصال مع مشرفه الدراسي، إذ تمكن من خلال هذه الاتصالات من إنهاء البحث. ولحسن حظه.. فقد تمكن من الحصول على الموافقة من جامعته السعودية، وموافقة لجنة المناقشة، بأن يقوم بمناقشة الرسالة عن طريق الفيديو كنفرس. وبالفعل.. حصل على الدرجة قبل أسابيع ماضية. أما زميله الآخر فقد أوقفت بعثته واستقال من عمله لعدم حصوله على التأشيرة، ولم يتمكن بالتالي من إكمال دراسته.

مع سبق الإصرار والترصد

وقصتنا التالية بها من التناقضات ومن الغرائب ما يشيب له الرأس.. بها من ممارسة الظلم ما ينفي تلك الحقوق المدنية التي يتشدقون بها.. ما يطمس كل الحريات التي يدعونها.. قصة قد لا يكون لها علاقة مباشرة بأحداث سبتمبر. ولكن هي من تداعيات تلك الأحداث، أو لنقل هي من إفرازات تلك الأحقاد التي يضمرونها لكل من هو مسلم ولا سيما السعودي. حدثت هذه القصة في أواخر 2004 لأحد الشباب السعوديين الموفدين للدراسة. وقبل سرد تلك القصة دعونا نتعرف على ذلك الشاب. بطل هذه القصة هو الأستاذ/ حميدان بن علي التركي ـ 36 عاماً ـ طالب دكتوراة بجامعة دنفر، وموفد من قِبل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ـ

بقسم اللغة الإنكليزية، لتحضير الدراسات العليا في الصوتيات.. حصل على الماجستير بامتياز مع درجة الشرف الأولى من جامعة دنفر بولاية كلورادو في الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد نشر بيان في جريدة الرياض السعودية في 2005/6/30 م، من قبل عائلة الأستاذ حميدان في السعودية يتضمن ملابسات وظروف قصة اعتقاله.

ذكر البيان أنه تم اعتقاله هو وزوجه للمرة الأولى في نوفمبر 2004، بتهمة مخالفة أنظمة الإقامة والهجرة. لم يكن الاعتقال من قبل سلطات الهجرة فقط، بل كان معهم أعضاء من مكتب التحقيقات الفدرالي .F.B.I وكانت طريقة اعتقالهما كأنهما إرهابيان أو مجرمان خطيران، حيث تقدمت مجموعة مكونة من 30 شخصاً من مكتب التحقيقات الفيدرالية، واقتحموا البيت بطريقة توحي بأن ثمة خطراً كبيراً يهدد الأمن، وبادروا بتوجيه السلاح إلى رأس زوجه، وطلبوا منها إخبارهم عن مكان سلاح زوجها (مع علمهم بأنه ليس لديه أي أسلحة) واعتقلا، واقتيدا إلى قسم الشرطة. كما اعتقلت خادمتهما الإندونيسية للمشكلة نفسها وتم استجوابها بخصوص تعامل العائلة معها، فأفادت بأن تعاملهم كان طيباً للغاية، وأفادت بأنها تشعر «كما لو كانت واحدة منهم».

وأطلق سراح الزوجين بكفالة قدرها 25.000 دولار (93750 ريال سعودي)، وواصلت السلطات الأمريكية التحقيقات مع الخادمة وبنفس طويل، فقد تم سؤالها عمّا إذا كانت تعرضت لأي تحرشات جنسية

فأفادت بالنفي القاطع، وقد ثبتت أقوالها لدى السلطات الأمريكية كافة، إلا أن السلطات الأمريكية تحفظت على الخادمة منذ ذلك الوقت حتى تاريخ كتابة هذا البيان، لمحاولة تغيير أقوالها، والتأثير فيها للوشاية بالأخ حميدان، ولأسباب تدعو إلى التمعن في أبعادها المحتملة، ولا سيما أنه لم يثبت عليه أي مخالفة؟!

وفي الثاني من يونيو 2005، تم اعتقال الزوجين مرة أخرى، ووجهت إليهما تهمة إساءة التعامل مع الخادمة واحتجازها في منزلهم واحتجاز أوراقها الثبوتية وتعرضها لتحرش جنسي! في مناقضة لكل الاعترافات التي أدلت بها مسبقاً، مما يعني قطعاً أن الخادمة قد تعرضت لما دفعها إلى تغيير أقوالها بشكل دراماتيكي. وهنا نتساءل عن سر احتجاز السلطات الأمريكية للخادمة طيلة هذه المدة.

قد يكون مهماً التنبيه إلى بعض القضايا المتعلقة بالخادمة الإندونيسية لكي يتضح للجميع هشاشة الدعوى المقامة ضد الأستاذ حميدان التركي.. فالخادمة لا تتحدث الإنكليزية ولا تكتبها، ولذا فقد طلبت من أسرة التركي الاحتفاظ بأوراقها الثبوتية مع أوراقهم مثل أي عائلة أخرى، وقد تصرفت كما لو كانت عضواً في العائلة، وكانت كذلك بالفعل. وفي هذا الاتجاه طلبت منهم حفظ رواتبها لأنها لا تحتاج إليها حيث إنها تسكن معهم، وتأكل وتشرب معهم، وتقوم الأسرة بشراء الملابس لها وجميع ما تحتاجه، حالها في ذلك حال غالبية العائلات في المملكة العربية السعودية، حيث يحفظون رواتب خادماتهم لحين طلبها لتحويلها لبلادهم في أوقات تختارها الخادمات أو عند السفر النهائي.

وثمة شيء آخر نشير إليه، وهو أن الخادمة تعاني من الإرهاب الاجتماعي والثقافي من المجتمع الأمريكي مما جعلها لا تخرج إلا بصحبة العائلة. وهنا نعيد السؤال بإلحاح: ما الذي جعلها تغير أقوالها وتقلب الحقائق خلال مدة احتجاز السلطات الأمريكية لها؟

لعل المتأمل يدرك أن الحكومة الأمريكية تبدي حرصاً متزايداً على تحسين الصورة الذهنية لأمريكا لدى الدول العربية والإسلامية، وهذا شيء نثمنه كما يقدره الآخرون، ولكن الحقيقة المرة تعكس لنا ولغيرنا أن ثمة جهوداً تبذل من قبل بعض الأطراف الأمريكية في الاتجاه المعاكس، على غرار بعض موظفي مكتب التحقيقات الفيدرالي، حيث يسعون جاهدين وبحماس مفرط أحياناً لتشويه تلك الصورة الذهنية والإساءة للعلاقات المتميزة، مما جعل الكثير من العرب والمسلمين والسعوديين على وجه التحديد يفكرون أكثر من مرة عند شروعهم في التفكير في الدراسة أو العمل في أمريكا، أو حتى الزيارة السياحية لكي لا يتعرضوا للاعتقال والإهانة، وربما توجيه التهم المختلقة لهم، ومن ثم تشويه سمعتهم في الإعلام الأمريكي!! وفي السياق نفسه طلبت السلطات الأمريكية كفالة مالية باهظة جداً مقابل إطلاق سراح حميدان وزوجه تجاوزت نصف المليون دولار أمريكي (حميدان 400.000 دولار وزوجه 150.000 دولار) ـ وهنا نشم رائحة الابتزاز والمساومة.

كما قامت السلطات بإحضار زوج حميدان للمحكمة دون السماح لها بوضع غطاء وجهها، أو وضع حجاب يغطي شعرها، في امتهان بغيض لقيم الإسلام وعنصرية مقيتة ضد العرب والمسلمين، وانتهاك

لمبادئ الديمقراطية الغربية ذاتها، تلك التي يقولون إنها تضمن للإنسان حقه المطلق في الاختيارات الشخصية، فعلام تدل تلك المشاهد، بدءاً من طلب الكفالة الباهظة إلى عدم احترام حريتها في ارتداء حجابها؟

السلطات الأمريكية هي وحدها فقط من تملك القدرة على الإجابة عن تلك التساؤلات التي لا تشغل الرأي العام السعودي وحده بل العربي والإسلامي أجمع. وأضحت القضية قضية رأي عام عالمي، طارت بها الصحف وغربت بها الفضائيات وشرقت بها الإنترنت!

وقد مكثت زوج حميدان في السجن 12 يوماً إلى أن قامت عائلة حميدان التركي بدفع مبلغ الكفالة المطلوب لإخراجها. وطوال تلك المدة بقي أولادهم الخمسة (أكبرهم في سن17) في المنزل دون رعاية ولا نفقة حيث جمدت أرصدتهم. ومما يبعث على الحزن والشفقة، والاستغراب الشديد أنه قد تم مضايقة كل من يحاول التقرب إلى الأولاد ومساعدتهم في ظرف فقدوا فيه أمهم وأباهم... فمن يتحمل مسؤولية ترويع عذوبة الطفولة وتكدير صفائها وخدش مشاعرها؟!

ونود التأكيد على أن أسرة حميدان لا تزال تعاني إثر فرض السلطات الأمريكية الإقامة الجبرية على زوج حميدان ومنعها من الخروج حتى لفناء بيتها! أما حميدان فلا يزال رهن الاعتقال، لعدم توفير المبلغ المطلوب لكفالته حتى هذه اللحظة.. انتهى بيان عائلة التركي.

وبناء عليه، فقد شكلت أسرته لجنة لمتابعة قضية ابنها المعتقل، وقد ترأس اجتماعات اللجنة شقيقه الطبيب أحمد التركي وعدد من القانونيين والإعلاميين وأصدقاء المعتقل إبان دراسته في أمريكا. ذكر شقيق المعتقل أحمد أن سبب اعتقال شقيقه من قبل السلطات الأمريكية هو اتهامه بإساءة معاملة خادمته الإندونيسية واختطافها وخطف جواز سفرها وتأشيرتها التي تخولها الدخول إلى الأراضي الأمريكية، كما ذكر أن شقيقه حميدان لديه دار للنشر تعنى بترجمة أمهات الكتب الإسلامية الموجهة فقط للمسلمين، وليس من نشاطات الدار ترجمة أو طباعة أي كتب تدعو إلى الدين الإسلامي.. فالكتب المترجمة جميعها كتب موجهة للمسلمين فقط. وحول وضع زوج شقيقه قال: إن القاضية طلبت من زوج أخي نزع الحجاب عندما حضرت إلى المحكمة، مما أثار حفيظة إخواننا المسلمين هناك وخرجوا من القاعة، وكانت القاضية تتعامل مع أم تركي بطريقة مستهجنة.. وفي نهاية الجلسة طلبت كفالة مالية تبلغ 15 ألف دولار (57 ألف ريال سعودي)، وهو السقف الأعلى للكفالة في الولاية. وتم وضعها تحت الإقامة الجبرية، كما تم منعها من الخروج لتوصيل أبنائها إلى المدارس، عدا واحد فقط مما يعني إيقاف دراسة بناتها الأربع وجلوسهن في المنزل. وفي تطور للقضية طلبت السلطات الأمريكية من زوج المعتقل الإدلاء بالشهادة ضد زوجها لكي تحصل مقابل ذلك على إسقاط التهم الموجهة إليها، وإطلاق سراحها وترحيلها إلى السعودية، مما قوبل من جهتها بالرفض القاطع لأي مساومات.

وبقراءة لتفاصيل القصة نلاحظ أن هناك مؤامرة لإبقاء المعتقل قيد الاعتقال، مع الابتزاز الدائم له ولعائلته ولدولته، ومحاولة توجيه الإهانة لشخص المعتقل ولعائلته وزوجه بشكل خاص للضغط عليها، كما توقعوا أنهم بتوجيه تلك الإهانات إلى زوج المعتقل وابتزازها، من شأنه إجبارها على التآمر على زوجها وإثبات التهم عليه، ليقينهم بعدم وجود قضية لديهم، وأنه سوف يأتي اليوم الذي يتم إطلاق سراح حميدان رغماً عنهم. وحتى يأتي ذلك اليوم فهم يحاولون ابتزاز زوجه لعلّ محاولتهم تسفر عن دليل يتم تلفيقه للمعتقل.

وقد سبق أن ذكرت أن السفير الأمريكي في السعودية، كان يظهر بين مدة وأخرى ليقول: إن إجراءات الحصول على التأشيرة قد تيسرت، ولكن من مفارقة القول أن يتزامن الإعلان عن عزم الحكومة الأميركية تقديم عدد كبير من المنح والتأشيرات الدراسية للطلبة السعوديين، مع تلك التهم والمشكلات التي بدأت تواجه الطلبة السعوديين الموفدين إلى أميركا. وكان آخرها اعتقال الطالب السعودي حميدان التركي الموفد لمواصلة دراساته العليا هناك.

وما قد يتبادر إلى الذهن أن تلك المنح هي تمييز من الحكومة الأمريكية للشباب السعودي، ولكن في حقيقة الأمر فإن الجامعات الأمريكية تعاني من هبوط حاد في عدد المنتسبين إليها، ولا سيما من الدول الإسلامية والعربية.. مما جعل أغلب مراكز اللغة في تلك الجامعات تضطر لإغلاق تلك المراكز، مع تسريح مدرسيها لعدم وجود العدد الكافي من الطلاب، فقامت الجامعات الأمريكية بالاحتجاج لدى

الكونغرس الأمريكي لما أصابها نتيجة ممارسات السفارات الأمريكية في الدول الإسلامية والعربية. ولعل أميركا مع كثرة ما تقدمه من منح، فإنها تخلق معها ألف مشكلة ومشكلة، وهذه سياسة أميركية تكاد تكون مطردة.

فبعد أن وعدت الحكومة الأميركية بالمنح الدراسية المجزية للطلاب السعوديين، قدمت بين يديها واحدة من أصعب القضايا التي أزعجت الشارع السعودي، وأعني بها قضية الطالب السعودي حميدان، بعد أن أخذت البروفة الأولى بالمحنة الشهيرة لطالب سعودي آخر، هو المهندس سامي الحصين. الأسلوب الفج الجلف واللاإنساني الذي مارسته المباحث الأميركية في طريقة اعتقال الطلاب السعوديين ولا سيما الطالب السعودي حميدان التركي، إنما يثير أكثر من علامة استفهام كبيرة حول بواعث الاعتقال ودوافعه. ويجعلنا نربط وبلا تردد بين طريقة الاعتقال المرعبة، وبين نشاط هذا الطالب السعودي المتميز في مجال خدمته لدينه، بامتلاكه دار نشر فاعلة ومؤثرة، بل ويجعلنا نستدعي ونتذكر قوائم الاتهام الطويلة المرعبة، التي وجهتها المباحث الفيدرالية الأميركية للطالب السعودي سامي الحصين، وكيف تساقطت عليه هذه التهم الواحدة تلو الأخرى.

لا لوم علينا ونحن نربط بين نشاط الطالب حميدان وطريقة اعتقاله المفزعة، وإلا فكيف نصدق أن تهمة إساءة معاملة خادمة منزلية كانت السبب في حشد فرقة أمنية مكونة من ثلاثين فرداً مدججين بالسلاح، اقتحمت بيت الطالب السعودي لاعتقاله واعتقال زوجه؟!!!

ولو حاولنا أن نتصفح التاريخ الأمريكي باحثين عن حادثة واحدة على الساحة الأميركية، قديماً أم حديثاً، تشبه هذه الحادثة في تفاصيلها.. لما وجدنا. ولذلك سنظل نتذكر أن فرقة من قوات الأمن الأميركية مدججة بالسلاح، قد اقتحمت وداهمت يوماً ما بيتاً لتعتقل أناساً يعيشون في بيتهم مطمئنين غير متوقعين ما ساقه لهم القدر بتهمة الإساءة إلى خادمة المنزل. ولاحظوا نحن نقول تهمة، فلم يكن لديهم الدليل القاطع بأن هناك أصلاً تهمة، فإذا كانت الخادمة عند سؤالها لم تذكر شيئاً من هذا القبيل، إذن من قام بالتبليغ بأن هناك مخالفة أصلاً إذا لم تكن الضحية قد قامت بذلك؟

وإذا كان من ضمن التهم الموجهة لزوج الموفد السعودي، تهمة استعباد الخادمة، وإلزامها بالاستيقاظ مبكراً، والنوم في وقت ٍ متأخر بسبب انشغالها بالطبخ والتنظيف وغسل الملابس، فهل هذا الضغط في الأعمال المنزلية ـ إن ثبت ـ يعد مبرراً لأن تقوم قوات المباحث الفيدرالية (ولا أستبعد استدعاء المارينز) بتصويب المسدس نحو رأسها ثم اعتقالها؟

والأدهى والأمرّ هو طريقة الاعتقال الفظة اللاإنسانية التي في نظري لم يعامل بها مجرمو الحرب أمثال ألموج، هذا الذي كان يشغل منصب قائد الجبهة الجنوبية في الجيش الإسرائيلي في الحقبة الممتدة من 2000 حتى 2003، ومثل وزير الدفاع الإسرائيلي شاؤول. ومثل الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش، عندما تم تسليمه لمحاكمته عن

جرائمه البشعة ضد الإنسانية أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي. كذلك مثل كبير مجرمي الحرب رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون، الذي أشرف على جريمة صبرا وشاتيلا سنة 1982.

إن التزام الشخصية السياسية الأمريكية بالرأي القانوني، الذي يطالب بالعدالة الدولية ويرفض فرضها بالقوة يرمي إلى إخضاع العالم لقانون دولي يحكمه الهوى السياسي، ويجب أن تعرف السياسة الأمريكية أن هذا الهوى السياسي لا يرتكز فقط على الرغبة في حماية أمثال أرييل شارون من محاكمته على جرائمه في الماضي والحاضر وربما المستقبل بتخطيطه الهادف إلى إبادة الشعب الفلسطيني وإنما يستند أيضاً إلى خوف أمريكا على نفسها من المحاكمة على جميع الجرائم التي ارتكبتها ضد الإنسانية في كل من أفغانستان والعراق والصومال وفيتنام وغيرها، وهو ما واجهته واشنطن أثناء محاكمة نورمبرج بألمانيا لقادة الرايخ الثالث عندما طالبت اليابان بمحاكمة أمريكا على جريمة إلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما ونكازاكي، واستخدمت أمريكا في ذلك الوقت قوتها السياسية وهيمنتها على العالم لمنع مساءلتها عن هذه الجريمة ومحاكمتها عليها.. وبذلك حجبت الاتهام ضدها على الرغم من أن إلقاء القنبلتين الذريتين على المدينتين اليابانيتين يمثل أكبر وأبشع جرائم الحرب في التاريخ الإنساني.

وكانت آخر فضائحها العدوانية والتجسسية على الصين، تلك التي قوبلت بمطاردة صينية. وهي حادثة تثبت على أمريكا هوسها التجسسي على العالم كله دون وجه حق، مخالفة بذلك أحكام القانون

الدولي العام التي تضمن لكل دولة حرمة خصوصيتها تحت مبدأ السيادة الكاملة على إقليمها. فأمريكا في الواقع إن لم تجد دولة تتجسس عليها تقم بالتجسس على نفسها.

إن تلاعب واشنطن بالقانون الدولي العام جعلها لا تتردد في اختطاف الرئيس الياباني مانويل تويري من بلده وتقديمه للمحاكمة أمام القضاء الأمريكي، وهي سابقة لا يعرف التاريخ مثيلاً لها، إنها القوة ومنطقها، وقد تدخلت أيضاً بالقوة القهرية لتفرض تجميد الأموال والممتلكات الإيرانية في الخارج بعد الثورة الإيرانية سنة 1979، إذ شاركت في قيامها ضد حليفها في حلف الناتو.. حلف جنوب شرق آسيا شاه إيران، الذي فرضت عليه التيه في العالم بعد أن قررت أنه شخص غير مرغوب فيه بأمريكا.

الأدهى من كل ذلك والذي يجعل العالم يتفنن في كرهه لأمريكا وما تقوم به، هو ما تمارسه من جبروت إذا تجرأت محكمة دولية بإصدار حكم ضدها، وتقيم الدنيا ولا تقعدها إذا أدانت محكمة بإحدى الدول مواطناً أمريكياً يقيم بها بجرم ارتكبه على أرضها يعاقب عليه القانون الساري بها، وهذا يجعلنا أمام حالة فريدة في الفكر الإنساني القانوني بمحاولة أمريكا إعطاء نفسها الحق في مخالفة التشريعات القانونية الصادرة والمطبقة في البلدان المختلفة، والعمل على فرض التشريعات الصادرة من الكونغرس الخاصة بالوطن والمواطن الأميركي على كل الناس في الأوطان كافة من خلال تصور أمريكي مريض يفترض أن كل الدول خاضعة لنفوذها لما تتمتع به من قوة تجعلها تنفرد بالسلطة الدولية.

ولعل ما يثير الاشمئزاز تلك الأفكار المريضة والتوجهات التي يؤيدها بعضهم من داخل أمريكا والتي تفتقد للمنطق القانوني وتبتعد عن الشرعية. فقد ذكر الدكتور جاري باث، وهو أحد أساتذة القانون بجامعة برنستون وصاحب كتاب جرائم الحرب، وتأملوا ما يقوله ذلك القانوني، ذكر أن الدول والهيئات دون أمريكا تتحول إلى مجرد منتديات للنقاش السياسي غير المجدي لعدم إمكانية تطبيقه على المستوى الداخلي في الدول وعلى المستوى الدولي في علاقاتها مع بعضها بعضاً، فإذا كان هذا هو كلام رجل القانون فما عساه أن يقول راعي البقر؟

هذا التفكير وذلك القول الذي يصدر من أمثال الدكتور جاري باث، الذي يعد من أساتذة القانون المعروفين والمشهود لهم، إنما يدلل على وجود أزمة قانونية حادة داخل أمريكا، تنكر على الدول استقلالها وتجعل من أمريكا هي الوصية وهي شرطية العالم.. الأمر الذي يعطيها الحق بأن تكون فوق القانون. وهذا الشطط الفكري لم يكن معهوداً في أمريكا قبل عشرين سنة ماضية، غير أن إحساس واشنطن بالقوة المتزايدة ولا سيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي سابقاً جعلها تحاول فرض إرادتها على غيرها من الدول والمنظمات الدولية.

إذاً، وبهذا الفكر قد لا نستغرب ما يتعرض له الطالب حميدان، فالمباحث الفيدرالية التي تزعم أنها اعتقلت الزوجين بسبب مسألة إنسانية، نجدها قد ارتكبت خطأً إنسانياً، وجرماً واضحاً ضد أكثر من إنسان، بل وفي مرحلة عمرية أخطر، ونعني هنا أطفال تلك الأسرة المكلومة، حين اعتقلت الزوجين واقتادتهما للتحقيق تاركة في البيت أطفالهما بلا رعاية ولا عناية.

لا بد أن تدرك الحكومة الأميركية أن أجواء الرعب والترقب التي خلقتها بين الطلبة السعوديين الموجودين أصلاً في أميركا، أو الذين يخططون لمواصلة تعليمهم هناك، أكاد أجزم أنها كانت مقصودة، وأنهم يعنون ما يفعلون. فلقد أساءت إلى محاولة الحكومة الأميركية مؤخراً تطبيع العلاقات التعليمية، كما أن طريقة الاعتقال هذه تأتي لتجعل العرض الأميركي، بتقديم منح للطلاب السعوديين للدراسة في أميركا، وتسهيل التأشيرات لتشجيع السياحة السعودية في أميركا التي أصيبت في مقتل، تبدو وكأنها كذبة أو خطه لاستدراج بعضهم!!

وفي تطورات غريبة واستفزازية على ما يبدو، سلمت إدارة الهجرة الأمريكية في دنفر كلورادو رسالة إلى محامي زوج المعتقل حميدان، تتضمن طلب دفع خمسين ألف دولار كفالةً جديدةً لإدارة الهجرة قبل الساعة التاسعة صباحاً من يوم الإثنين الموافق للثاني عشر من شهر ديسمبر 2005، وإلا ستعود إلى سجن إدارة الهجرة. وهذا هو الأمر الثاني خلال إسبوعين بإعادة اعتقالها. وكانت محكمة مقاطعة أرابهو في ولاية كلورادو قد أمرت بإعادة اعتقال زوج موفد الدكتوراة السعودي حميدان التركي يوم الإثنين الموافق 2005/11/21، بدعوى وهمية تقول إنها ارتكبت خللاً قانونياً في نظام الكفالة. وقد جاء أمر القبض هذا قبل خمس ساعات فقط من موعد جلسة للتركي ولزوجه كانت حددت مسبقاً، لتكون موعداً للمثول أمام قاضية مقاطعة أرابهو لقبول أو رفض التهم الموجهة إليهما، وموعداً نهائياً أيضا لقبول زوج التركي بعرض من المدعي العام يقضي بأن تعترف بجرائم لم تقترفها

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل ـ مقابل ترحيلها مع احتمال استخدامها شاهداً ضد زوجها واحتمال سجنها لمدة لا تزيد عن 90يوماً. ويرى المتابعون لهذه القضية الجديدة، أنها محاولة لإرعابها والضغط عليها لقبول هذا العرض الذي عرضته عليها الحكومة قبل شهرين. وكما أوردت الاسوشيتد برس وعدد من الوكالات فقد تقدم محامو الدفاع خلال الجلسة بطلب تأجيلها بسبب هذه القضية المستجدة، وطالب آخر بتأجيل أمر القبض ليوم واحد، حتى يتسنى له توفير قيمة الكفالة ومناقشتها، لاسيما أن الكفالة المحددة هي خمسون ألف دولار، لكن المدعية العامة اعترضت على ذلك، بينما وافقت القاضية على تأجيل الجلسة الأصلية لمدة شهر واحد (يناير 2006) ، وأخرت أمر القبض لمدة أربع وعشرين ساعة.

وفي اليوم التالي عرضت القضية الجديدة على قاضية أخرى، وناقش محامي الدفاع مبلغ الكفالة، لاسيما أن التركي وزوجه قد دفعا ما يقارب مليون ومئة ألف دولار في كفالات سابقة، ووافقت القاضية على تخفيض الكفالة إلى خمسة آلاف دولار تدفع حالاً (ما قصروا)! وتم دفع الكفالة في الحال بعد إجراءات الحجز والبصمات. وما إن مر أسبوع واحد على هذا الأمر حتى فاجأ محامي الهجرة الخاص زوج الموفد السعودي حميدان التركي برسالة إدارة الهجرة يطلبون فيها مبلغ كفالة جديد وإلا الاعتقال! أليس هذا ابتزازاً مكشوفاً؟ أليست هذه معاملة رخيصة؟ ولكن كما يقول المثل الدارج: العيب ليس عيباً إذا أتى من أهل العيب.

كذلك وصلت رسالة جديدة لمحامي التركي وزوجه من وزارة العمل، بعزم إدارة العمل رفع قضية مدنية على التركي وزوجه إذا لم يدفعا للخادمة مبلغ مئة وخمسة وعشرين ألف دولار، باعتبار أنها تعويضات مبدئية (أعانكم الله يا آل تركي)، ولا يزال التناقش في هذه القضية جارياً المحامين ووزارة العمل، حيث كرر محامو التركي وزوجه للوزارة أن رواتب المرأة موجودة ولم تمنع عنها حيث حفظت لها حسب طلبها، وأنها لم تتمكن من استلامها.. لأنها ببساطة أخذت قسراً من منزل التركي من قبل إدارة الهجرة العام الماضي، وأخفيت عن الأنظار رغم استنجادها المتكرر لمساعدتها حين كانت في سجن الهجرة. وكان محامو التركي قد أثبتوا في المحكمة الفيدرالية أن الخادمة قد أنكرت تعرضها لأي تحرش جنسي أو مضايقة أو تعسف في أكثر من إحدى عشرة مقابلة مع المباحث الفيدرالية، ومع السفارة الإندونيسية خلال الأشهر الستة الأولى من اعتقالها.

وفي تطور آخر على صعيد المحكمة الفيدرالية، فقد تم تحديد وقت محاكمة التركي وزوجه في التهم الموجهة لهما بهذه المحكمة، وكذلك تم تحديد موعد لمناقشة الاعتراضات التي تقدم بها محامو الدفاع. وحدد القاضي الفيدرالي ميلر أسبوعين اثنين للمحاكمة، ويوماً ونصف اليوم لاستماع الاعتراضات، على أن تكون المحاكمة في نهاية شهر أبريل 2006 وجلسة الاعتراضات قبل المحاكمة بشهرين (فبراير 2006 م). وقد صدر موخراً (2006/9/1 م) حكم قاضي محكمة ولاية كولورادو بالولايات المتحدة الأمريكية على

الطالب السعودي الموفد حميدان التركي بالسجن 28 عاماً بعد أن أقرت هيئة المحلفين في محكمة أرابهو بمدينة دنفر الأمريكية أن التركي مذنب في جميع التهم التي وجهت إليه، وهي: الاختطاف من الدرجة الأولى، والتآمر على الاختطاف من الدرجة الأولى، والتحرش الجنسي من الدرجة الرابعة.

وقال موقع (حميدان التركي) إن الادعاء العام سوف يستدعي التركي بعد قضاء مدة سجنه (28 عاماً) فإذا أقر بذنبه واعترف بخطأه أفرج عنه، وإلا بقي مدى الحياة.

الأستاذ إبراهيم التركي ـ شقيق حميدان ـ أكد لوسائل الإعلام بعد المحكمة: «أنهم طلبوا الاستئناف في القضية ولن يتوقفوا لهذا الحكم الجائر وهم سينتظرون متى يتم تحديد ذلك لمحامي حميدان، أما زوجه وأبناؤه فسيعودون للمملكة بعد ثلاثة أسابيع تقريباً مع والدتهم وذلك بعد خروجها يوم الجمعة من السجن لانتهاء محكوميتها التي مكث خلالها أولادها الخمسة خلال الشهر الماضي في منزلهم وحيدين مع شقيقهم تركي ذي الثمانية عشر عاماً وشقيقاته: لمى 14 عاماً ونورة 11 عاماً وأروى 8 أعوام وربى 6 أعوام.

وتستمر الفاجعة التي لاحقت العائلة السعودية المنكوبة في بلد الحرية والديمقراطية.. ويقف حميدان بشموخ المؤمن المظلوم الذي لا ينحني إلا لخالقه في المحكمة التي علاها الصراخ والبكاء بحرقة من أبناء المواطن التركي الذين كانوا حاضرين ساعتها مع حشد كبير من

المسلمين داخل وخارج المحكمة ليعلنها في كلمة ألقاها أمام القاضي بأنه طالب سعودي جاء للدراسات العليا، لم يأتِ لاختطاف وثائق ولا لسرقة أموال عامة ولا ليتحرش بأحد... وقال: «أنا لست هنا لأعتذر لأنني لا أستطيع الاعتذار عن أشياء لم أفعلها وجرائم لم أرتكبها، لقد جرّمت الولاية هذا السلوك الإسلامي الأساسي، وتعد مهاجمة السلوك الإسلامي التقليدي النقطة الأساسية في الادعاء.. لقد هددتموني بالإيذاء، وها أنتم تفعلون، لكن ما ذنب أبنائي وبناتي الصغار؟»

ورغم كل ذلك يبقى حميدان التركي.. وحيداً.

وقد كتبت السيدة سارة الخنيزي أبياتاً من الشعر تشرح فيها معاناتها وتصف فيها حالها وحال زوجها المكلوم وفيها:

ناشــــدتُ أهل البـــر والإيثـــارِ

ناشــــدتُ أمـــةَ ســـيـــدِ الأبرارِ

ناشدتُ من عُرفوا بصدقِ عزيمةٍ

قـــومي رؤوسَ المجـــدِ والإكـــبـــارِ

أنا بنتُ نجــــدٍ بورِكت وتهللتْ

من أهلهـــا ذي الســـادة الأخـــيـــارِ

زوجي ابن نجدٍ في رُباها قد رَبا

شـــهـــمـــاً طهـوراً من ثرى الأطهـارِ

قــد كـبلونا بـالحـديد وحـســبــهم

كفُ الدعـــاءِ يجـــودُ ليلَ نهـــارِ

ورُمِــيتُ واهولاه فـي ســجن العنا

ورمـــوا بزوجي خلفَ ذعـــرِ جـــدارِ

قـــد رنَّ فـي أذني بكاءُ أحـــبـــتـي

خــمسٍ من الأطفــالِ في الأســحــارِ

بـاتوا بـلا أمٍ بغـــــيـــــبــــة والـدٍ

وغـــدوا كــأيتــامٍ، فـــيـــا للعـــارِ

كـشـفـوا عن الـوجـه الحـيـي غطاءه

وظهـــرتُ في الإعـــلامِ دونَ ســتـــارِ

ورُمـيتُ بالجـرمِ الـذي لم أقـتـرفْ

وكـــــذاك زوجـي زج دونَ حـــــوارِ

قـد أطلق الفـجـارُ إفكاً فـاحـشـاً

أواه مـن ذا آخـــــذٌ بـالـثـــــارِ؟

يرمـــون عـــرضـــاً طاهـراً بهُـــرائهمْ

حـــقـــد تبـــدَّا دونما أســـتـــارِ

اللهُ عـــــلامٌ بـصــــــدقِ بـراءةٍ

فــيــمــا أبنتُ وعــالمٌ أســراري

مـثل الشـهامـة كان زوجي مـحـسناً

في قــومــه من خــيــرة الأخــيــارِ

قــد ألجم الهم الكئــيب مناطقـي

وارتج قلبـي وانطوى مــــشــــواري

بـابُ الإلـهِ وقــــــد طـرقـت بـابـه

بمغــيــــبي أمــــلاً بفك إســـاري

ثم الـتــجــأت إلى بني قــومـي وفي

قـلبـي مـن الآمــــال كــــالأمـطـار

هيـا اسـمـعـوا صـوتاً بريئاً قـد ثوى

في الســـجن بين بـراثن الـكفـــارِ

وارمــوا ســهــام الليل بالله الـذي

ينجــيــه فــهــو مــقــدر الأقــدارِ

لأحــبــتـي أهدي دمــاءَ مــدامــعي

فـــدمي على الـوجنات دمع جـــارِ

فـأحبـتي عُـرفـوا بـصـدق أخـوتي
وأحــــبـــتي هـم نـصـــرة الأحـــرار

يا كلَ من نطق الشــهـادة مــسلمــاً
بالله شـــــد العــــزم في إصـــرارِ

أمـــــراءنـا وزراءنـا كــــبــــــراءنـا
الخـطـبُ أعـظـمُ مـن أنـين هــزارِ

أشكو إليكم حــرقــتي وتوجــدي
خـــــــــوفـي وآلام ورعـب دثـاري

مــا رد مظلوم بســاحـــة عــدلكم
أو ذل صـــــاحب عـــزة بقـــــرارِ

بنيــانُ أمــتِنا يشـــدُّ قـــوامَـــهُ
ياصـــرخـــةَ المظلومِ صـــوتُك عـــارِ

يوم ســيــشــرق بالبــراءة ســانحــاً
وســـتـــرجع الأطيـــارُ للأوكـــارِ

يـومــاً ســتــرجعُ يا أبا تـركـي لنـا
ويُرد كـــيــــد كـــائد ببـــوارِ

ثم الصـــــــلاة علـى الـنـبـي وآلـهِ

خـيـــرِ البـــرية ســيــدِ الأخـــيــارِ

وقـد نشـر في «جـريدة الرياض» رسـالـة خـاصـة و(مـؤثرة) مـن ابنة المعتقل حميدان التركي (لمى) ـ 14 سنة ـ بعثت بها من كلورادو حيث يخضع والدها ووالدتها وأبناؤهما لفصول من المعاناة كانوا خلالها يترددون على المحاكم الأمريكية بين مدة وأخرى منذ نحو عام.

وروت لمى التركي في رسالتها المؤثرة اللحظات العصيبة التي تمر بها عائلتها هناك ولا سيما بعد التطورات الأخيرة على القضية مشيرة إلى الضغوط التي تعرضت لها والدتها في قاعات المحكمة خلال الجلسة الأخيرة وتهديدها بالسجن المؤبد أو الاعتراف بتهمة واحدة ضد زوجها لتسقط باقي التهم، وهو ما رفضته سارة الخنيزي زوج التركي. وفيما يلي نص الرسالة التي ناشدت لمى التركي في نهايتها الجميع بالوقوف مع أسرتها المظلومة والدعاء لهم ليفرج الله ما تمر به من ظلم وتعود إلى أرض الوطن قريباً بإذن الله:

هذه صفحة من مذكراتي تحكي لحظة من اللحظات العصيبة التي تمر بها عائلتي من خلال قضية ملفقة.. مزيفة لا أصل لها من الصحة.. هراء.. كذب.. صُب على والدي تهم هو منها براء والله شهيد على ذلك، منذ قرابة تسعة أشهر ونحن نتردد على المحاكم. من هنا أسطر حدثاً أو موقفاً من هذه المحاكم.. في

صباح باكر من يوم الخميس رافقت والديّ أنا وأختي نورة وأخي تركي حيث موعد محكمة المقاطعة، والكل يشعر بقلق شديد وتوتر، وهذا الشعور يراودنا في كل محكمة.. كان الجو بارداً.. الثلج يتساقط بشدة.. توقعنا إلغاء المحكمة لسوء الجو.. الطريق مزدحم بالسيارات.. الرؤية معتمة (وصلنا إلى المحكمة بعد عناء).. وصل بنا المصعد إلى الدور الرابع حيث القاعة 402 التي اتجهنا إليها، وإذا بهيئة الدفاع تنتظر بالخارج لحين بدء المحكمة، ألقينا عليهم التحية، توجهت والدتي إلى محاميتها لتتأكد من أن المحكمة اليوم هي محكمة عادية وغير مقلقة، فطمأنتها المحامية... جلسنا على كراسي الانتظار، بدأ الحضور بالتوافد منهم إخواننا المسلمون ومنهم أساتذة وطلاب من جامعة والدي.. بعد برهة فتحت أبواب القاعة وأذن لنا بالدخول، دخلنا وتبعتنا هيئة الدفاع والكل أخذ مكانه في القاعة، حيث تقدمت هيئة الدفاع إلى منصة الدفاع وجلس الحضور في المقاعد الخلفية، جلسنا وجلس والديّ معنا لحين أن يؤذن لهما بالتقدم إلى منصة الدفاع. فجأة بدأ يتهامس محامي والدتي والمدعي العام فيما بينهما، بعدها طلب محامو والدتي منها أن ترافقهم خارج قاعة المحكمة. فوجئ والدي بذلك.. تمتم أبي في أذن أمي بكلام لم أسمعه علمت فيما بعد أنه كان يوصيها بالثبات والاتكال على الله سبحانه وتعالى والاستعانة بالاستخارة.

مضت عشر دقائق ثقيلة وكأنها ساعات بدأنا نشعر بالقلق على والدتي، طلبت من والدي أن نذهب أنا وأختي لنطمئن عليها فأشار علينا بالتريث. مضت عشرون دقيقة... ثلاثون.. لم أتمالك نفسي فخرجنا من القاعة وأخذنا نجوب الممرات نبحث عنها بكل قلق، نزلنا إلى الطابق الأسفل فوجدت قاعة اجتماعات كبيرة، فتحت الباب فهالني ما رأيت.. رأيت أمي المسكينة محاطة بمحاميها وأناس لم أعرفهم، اقتربنا منها وجدناها قلقة تخنقها عبرات الحيرة، سألتها: هل أنت بخير، طمأنتنا وطلبت منا أن نكون بعيدين خشية أن نسمع ما يدار.. طرقت إلى مسامعي بعضاً من التهديدات المرعبة التي كانوا يوجهونها لوالدتي.. أصغيت مسامعي.. اقتربت لا شعورياً.. سمعت تهديدات بالسجن.. سنة كاملة.. سبع سنوات.. السجن المؤبد.. علمت أنهم يتكلمون عن العرض الذي قدم لأمي منذ أشهر عدة (هو الاعتراف بتهمة واحدة وإسقاط باقي التهم عنها والسجن لمدة تسعين يوماً مقابل الموافقة) ولكن أمي كانت رافضة تماماً لهذا العرض، فكيف تعترف بشيء لم يحدث.. علاوة على ذلك فإن فيه إلحاق ضرر بأبي، أحسست بالفاجعة حينما فكرت لوهلة أنني سأفتقد حبي وحناني.. سأفتقد أمي. ومع كثرة الإلحاح والضغط طلبت أمي لحظات تخلو بها مع نفسها.. حاولت الدنو منها في هذه اللحظات فأشارت لي بيدها أن أبقى بعيدة. لن

أنسى ذلك المشهد.. رأيت أمي ترفع يديها تدعو الله وتلتجئ إليه في هذه اللحظات العصيبة. بدأت أختي نورة تجهش بالبكاء وتعلقت بذراع أمي وأصبحنا نرجوها ونتوسل إليها بدموع تشهد عمق مأساتنا لقبول العرض خوفاً عليها من السجن وذلته، لكنها تثبت نفسها وتظهر لنا القوة.. وقلبها يتقطع ألماً وحسرة من شدة الحدث.. بكاؤنا وإصرارنا شجع المحامين على الضغط عليها للموافقة وأخذ العرض من أجل أطفالها، لكن أمي أصرت على الرفض، (ازداد ضغط المحامين) مع ازدياد هلعنا لعلها توافق في آخر لحظة، فما كان من أمي إلا أن انتفضت قائمة بكل عزة وشموخ معلنة بذلك انتهاء محاولات الضغط عليها والتوجه إلى قاعة المحكمة.

استبقتهم أمي إلى القاعة ونحن بين ذراعيها تضمنا إلى صدرها مما أشعرنا بدفء الحنان الذي طمأننا تلك الحظات، أقبلنا على القاعة فإذا بأبي ومحاميه خارج القاعة، أقبل أبي عليها وقد بدا عليه قلق شديد، طمأنته أمي علينا وبعدها توجه الجميع إلى المحكمة لبدء المحاكمة.

موقف بسيط من مواقف كثيرة عصيبة نمر بها دائماً قد حفر في ذاكرتي.. أذكره بالليل والنهار، يثير في نفسي دواعي الصبر على الابتلاء لكنه في الوقت نفسه - ومع مرور الأيام - يشعرني بالفخر والاعتزاز بوالدي الحبيبين على ثباتهما وقوة صبرهما.

حبيبي أبي.. حبيبتي أمي..

إن بعد الليل فجراً.. وبعد الظلام نوراً.. وبعد العسر يسراً.

النصر قادم والفرج قريب.

عهداً لكما علي أنا وإخوتي بالدعاء بالفرج طالما راية البراءة ترفرف على بيتنا، أملي أن يكون هذا هو ديدن كل محب لعائلتنا المظلومة بالنصر والفرج القريب.

لمى التركي

ابنة المعتقل، الطالب السعودي حميدان التركي



الإرهاب بعينه

كان أحد الطلبة السعوديين، موفداً من قبل إحدى الشركات الكبرى بالسعودية ويدعى (ع.م) يتلقى تعليمه في جامعة ولاية أريزونا (وقد نقلت هذه القصة على لسانه و بطريقته).. يقول أخونا: إنه كان على مقربة من التخرج مرحلة البكالوريوس، وكان أحد إخوته (أ.م) يتردد عليه خلال تلك المدة عن طريق الزيارات الصيفية، حتى تمكن لاحقاً من الانضمام إلى الجامعة نفسها. وفي إحدى السفرات التي كان متوقعاً أن يصل فيها أخوه من السعودية، ذكر (ع.م) أنه بينما كان يجلس في صالة الانتظار بمطار (Sky Harbor) بمدينة فينكس بولاية

أريزونا لاستقبال أخيه.. إذ قدم إليه شخصان (كان أحدهما من ضباط المباحث الفيدرالية والآخر من ضباط الجوازات).. وطلبا منه الذهاب معهما إلى مكتب الجوازات بالمطار. ولما وصلوا إلى المكتب قام ضابط المباحث الفيدرالية بإخباره أن أخاه (أ.م) محتجز لديهم، وأنه يجب عليه مغادرة أراضي الولايات المتحدة الأمريكية. عندها تعجب مستفسراً منهما عما فعله أخوه، فهو جديد ولم يدخل البلد وما زال في المطار. يقول (ع.م): «عندها قام ضابط المباحث بإطلاعي على صورة قديمة لأحد الأصدقاء القدامى وسألني إن كنت أعرف ذلك الشخص الموجود في الصورة. وبالتمعن في الصورة تذكرت أنه أحد الأصدقاء القدامى لي ولأخي، عندها ذكرت لهم ذلك وقلت لهم إن اسمه (س.س)، قام بعد ذلك كل من الرجلين بطرح أسئلة عدة حول طبيعة علاقتنا به فأخبرتهما بأن آخر مرة رأيته فيها كانت منذ أكثر من ثمانية أشهر، وسألتهما عن المشكلة وعما فعل الرجل؟ فأخبراني أنه كان متورطاً في التفجير الذي حصل في الرياض، وسألاني إذا كنت أعرف شيئاً عن ذلك الشخص في آخر مرة رأيته فيها، فأخبرتهما أنني في آخر مرة لم أرتَح كثيراً للتغير الذي حصل في شخصيته، فلقد أطلق لحيته، ولم تكن تعجبني الموضوعات التي كان يتكلم فيها، فابتعدت عنه ولم أحب فيه ذلك التغيير. بعد ذلك سألتهما عن مصير أخي ولماذا سيطرد خارج الولايات المتحدة الأمريكية فأخبراني أنه قدم بتأشيرة زائر لزيارتي خلال مدة الدراسة في ولاية لويزيانا. ثم طلبوا مني أن أبقى على اتصال بهم و أخبراني أنهم

سيحتجزون أخي في أريزونا لحين الانتهاء من إجراءات مغادرته الولايات المتحدة. فطلبت منهما إخباري عن موعد مغادرته ورقم الرحلة حتى أطلب من أهلي استقباله في المطار. وبعد أيام عدة علمت منهم أن أخي غادر الولايات. أخبرني أخي عن سوء معاملته وقت احتجازه، وأنه طلب أن يقوم بالاتصال بالسفارة السعودية استناداً لحقه القانوني الذي يسمح له بذلك، إلا أنهم رفضوا، وأبدوا حججاً كثيرة.. منها أن الخطوط مشغولة.. ثم قالوا له إنه لا يستطيع أن يقوم بالاتصال مرة أخرى.. ثم ذكر أخي أنهم طلبوا منه أن يعطيهم جواله إلا أنه رفض في البداية، إلى أن قام أحد الضباط بتصويب المسدس تجاه رأسه وهدده، فقام أخي بإعطائهم الجوال وجميع أوراقه الثبوتية (بطاقة الجامعة، وبطاقة إثبات الشخصية الأمريكية) فقاموا بإتلافها على مرأى منه، ثم قاموا بإلغاء تأشيرته واتهموه بأنها منتهية قبل عودته من إجازته من السعودية. وأخبروا أخي أنهم استخدموه كطعم حتى يعرفوا مع من سيسافر إلى السعودية.

وأضاف (ع.م) أنه خلال الفصل الدراسي الأول من عام 2003، كان مراقباً من رجال المباحث الأمريكية، ومطارداً في جميع الأماكن داخل تلك المدينة، إلى أن طلب منه أحد رجال المباحث أن يقوم بعمل اختبار الكذب، حتى يتمكن من مساعدة أخيه للعودة للدراسة في أمريكة. ويقول (ع.م) إن المهم لديه كان أن يوضح موقف أخيه ويبرئه.. ومن هذا المنطلق، ومن خلال ثقته بنفسه، ومن ثقته بأن أخاه لم يفعل شيئاً مخالفاً للقانون، وأن لا شيء لديه ليخفيه، فقد قرر أن يقوم

بعمل ذلك الاختبار الذي اجتازه دون مشكلة. وبعد مدة من الزمن وبالتحديد في الفصل الثاني من عام 2004، ذكر (ع.م) أنه قام بسؤال رجال المباحث عما إذا كان في استطاعة أخيه أن يعود إلى دراسته، تحقيقاً للوعد الذي وعد به من قِبلهم.. فقد اجتاز الاختبار حسب طلبهم، فهل سوف يسمحون لأخيه بالعودة؟ فأجابوه بأن أخاه ليس لهم عليه تحفظ وأنهم سوف يتأكدون من المباحث الفيدرالية ثم يردون عليه بعد يومين.

وبعد أيام عدة قاموا بالاتصال به وطلبوا منه أن يقابلوه لأنهم لا يودون أن يتحدثوا بالهاتف. وفي اليوم الثاني جاؤوا إلى شقته وأخبروه بضرورة مغادرة أمريكا، عندها سألهم عن السبب في ذلك على الرغم من تعاونه معهم واجتيازه اختبار الكذب، فأفادوه بأن المباحث في مدينة فينكس ليس لديها تحفظ عليه، إلا أن المباحث الفيدرالية في واشنطن غير راغبين في وجوده بأمريكا وأن عليه المغادرة فوراً. فأخبرهم بأنه لم يتبقَ له سوى (27) ساعة دراسية، وأنه يرغب في إنهائها قبل مغادرته أمريكا. عندها قالوا له بأن الترتيبات مع واشنطن تمت بالسماح له بالبقاء حتى نهاية ربيع 2004 م، ثم عليه بعد ذلك مغادرة أمريكا. طلب منهم أن يسمحوا له بالبقاء حتى صيف 2004 م، حتى يتمكن من إنهاء الساعات المطلوبة وبالتالي يتمكن من التخرج، فرفضوا، لكن تعاطفاً منهم معه شخصياً قاموا بالتحدث مع الجامعة لكي يتمكن من إكمال ساعات التخرج. وبعد أيام عدة قام أحد رجال المباحث بالاتصال به وطلب منه أن يتصل بنائب رئيس الجامعة الذي

أفاده بأن مساعد عميد كلية الإدارة سوف يقوم بترتيب طريقه معينة له يتمكن من خلالها من دراسة الساعات المتبقية ليتسنى له التخرج. وبعد أيام عدة أخبرته الجامعة بأنه يجب عليه دراسة الساعات المتبقية في جامعة معترف بها لديهم، على أن تكون خارج الولايات المتحدة الأمريكية لكي يتمكن من الحصول على البكالوريوس. ومن غرابة الأمر أن هذا الاتفاق كان سرياً بينه وبين الجامعة بحيث لا يعرف به مرجعه الأكاديمي، وذلك من أجل السمعة العلمية للجامعة، وإلا فلن يسمحوا له بالحصول على البكالوريوس. ومن الأشياء الغريبة أنهم كانوا يضغطون عليه بألا يقوم بإبلاغ سفارة المملكة ولا الشركة التي هو موقد منها بذلك، لكي لا تغضب المباحث الفيدرالية في واشنطن الأمر الذي سيؤدي لإخراجه من أمريكا.



هل أنت أسامة بن لادن؟

كانت الحقبة التي تلت أحداث 11 سبتمبر متعبة جداً ومحرجة لنا كلنا، إلا أن الأبناء كانوا أفضل حالاً فقد استمتعوا كثيراً وشاركوا بأغلب الأنشطة والرحلات ووجدوا كل رعاية واهتمام؛ فلقد كانت المدارس رائعة في تطبيق النظام، ولا يعترفون بالوساطة، بل جهد الطالب هو المحرك الأساسي. إلا أنه في أحد الأيام جاء ابني وكان خائفاً حائراً، وعندما سألناه عن سبب خوفه، أخبرنا أن أحد الطلبة قام بضربه وتلفظ عليه بألفاظ نابية وكان يناديه بأسامة ابن لادن.

احترت كثيراً، إلا أن والدته أصرت على عدم إرسالة إلى المدرسة مع ضرورة بقائه في البيت، ولكن وبعد محاولات استطعت إقناعها بعدم جدوى ذلك، وأنه من الضروري مواجهة الموقف، والإبلاغ عن الحادثة، واستندت في ذلك إلى القوانين الخاصة بالمدرسة. وفعلاً استجمعت زوجتي قواها وذهبت إلى المدرسة وساعدها في ذلك تمكنها من اللغة، وتوجهت إلى الإدارة بكل قوة وأخبرتهم عن الحادثة وكانت دهشتها كبيرة حين استقبلت بكل أدب واحترام مع وعود صادقة بالبحث والتقصي ومعالجة المشكلة في الحال. عندها قاموا باستدعاء الطالب الآخر مع والدته، وكتبوا عليها تعهداً بعدم تكرار ذلك وفي حالة تكراره فإن المدرسة سوف تقوم بفصل الطالب.



رحلات

رحلة كندا:

من الأشياء الجميلة في أمريكا تلك الشلالات التي تقع في ولاية نيويورك شمال أمريكا وعلى الحدود مع كندا.. كان يراودني الحلم بزيارة تلك الشلالات، ولأمكِّن الأطفال من رؤيتها والاستمتاع بها.. عقدنا العزم على الذهاب في صيف 2003، فتلك الأماكن إذا لم تزرها في الصيف فلن نستطيع زيارتها في أي وقت آخر. فالجو يكون بارداً والثلوج تكسو الأنهار. وبعد أن قررنا الذهاب قمت بعمل الحجوزات

اللازمـة للسكن عن طريق price line.. فـالطريق طويل يعـبـر ولايات عـدة، كمـا قمت أيضاً بعـمل كل الفـحـوصـات للسـيـارة ومنـهـا تغـيـيـر الإطارات كـاملة من wal-mart. خـرجنا فـجـراً من كـاربنديل مـتـزودين بالخـرائط اللازمـة لكل من ولايات إلينوى وإنديانا وأوهـايو ونيـويورك ومـيـتـشـغـان، وبعض المدن الكبـيـرة مـثل دنفـر، ودترويت.. كـذلك خط سـيـرنا عن طريق مـوقع (Yahoo). توكلت على الله وسـرنا عـلى بركـة الله، وتذكـرت حـينهـا برنامـجـاً كـان يبث بالتلفـزيون السـعـودي في الثمانينيات يدعى (ربوع بلادي).

كان خط السير طويلاً.. ولكن كم كان جميلاً شعورنا بالمتعة كعائلة واحدة.. وكانت كاميرا الفيديو مرافقة لنا.. فالمناظر الخلابة والأنهار التي نمر بها تجبرك على التصوير.

مـضـينا في طريقنا وعـبـرنا إلينوى إلى إنديانا ومن ثم إلى أوهـايو وقـررنا أن ننام في دنفـر حـيث حـجـزنا غـرفـة في فندق ممتـاز، واستيقظنا في اليوم التـالي وواصلنا السير إلى أن بلغنا مـدينة نياغـرا فولز بولاية نيويورك. المدينة كانت صغيرة رغم موقعها السياحي على نهر كبير وعلى شلالات سياحية لا توجد مثيلاتها في العالم. ولكن الشركات السياحية والفنادق الدولية اختارت الجانب الكندي لأسباب عـدة، منهـا أن المنظر من الجـانب الكندي أجمل بكثير إذ يمكّنك من رؤية الشلالات بصورة كاملة.

كان الجو ممتازاً جداً.. وجميع الأهل كانوا يشعرون بالسعادة، ولكن كما ذكرت: المدينة صغيرة وبالإمكان التعرف عليها خلال أيام بسيطة. وكنت قد ذكرت بأنني قبل السفر قمت بتغيير الإطارات كاملة إلا أنني

خلال السفر كنت أسمع صوتاً يصدر من الإطارات. ولذلك فبعد وصولي إلى نياغرا قررت أن أفحص السيارة فقال الفنيون إن الإطارات تحتاج إلى تبديل لأنها قديمة ومستهلكة! فذكرت لهم أنني قمت بتجديدها فقط قبل أسبوعين، فأشاروا عليَّ بالذهاب إلى المحل نفسه الذي قمت بتغييرها منه. ومن حسن الحظ أنني كنت قد غيرت الإطارات في wal-mart الذي تجده في كل مكان في أمريكا. وفي موقع wal-mart عندما أبرزت إيصال تغيير الإطارات، قاموا بفحصها ولم يترددوا في تغييرها كاملة دون أي تكاليف.

وبعد يومين من وصولنا كنا نلاحظ أن اللافتات كانت تشير إلى كندا.. فالحدود والبوابات تستطيع عبورها سائراً على قدميك، فالمسافة بين الدولتين هي ذلك الجسر الذي يربط بين الضفتين. ومن الأشياء التي شجعتنا ودفعتنا إلى التفكير في الذهاب إلى كندا هي رغبتنا في الصعود بمنطاد البالون الهوائي، الذي كان يقع في إحدى ساحات مدينة ألعاب على ضفة النهر من الجانب الأمريكي. فعندما رأينا الضفة الكندية من الجو وما تتميز به من الجاذبية السياحية، وكثرة الفنادق الدولية، والمراكز التجارية العالمية قررنا أن نذهب إلى كندا. ولكن كانت هناك معضلة وهي الحصول على التأشيرة. فكما تعلمون فإن السعوديين كانوا يذهبون إلى كندا دون تأشيرة قبل أحداث سبتمبر وبعده حتى منتصف عام 2003، ولكن الضغوط الأمريكية على الكنديين أجبرتهم على أن يقوم السعوديّون بالحصول على التأشيرات من أجل الدخول إلى الأراضي الكندية. وكنت قد اتصلت بالسفارة الكندية التي تبعد عن المدينة التي كنا فيها

نحو ساعة، فلم يجبني أحد؛ لأن الوقت كان في نهاية الأسبوع. ولكن أحد رجال الأمن ذكر لي أنه بإمكاني الذهاب إلى الحدود وسؤالهم من هناك. وكان سؤالي عما إذا كان بإمكاني الحصول على تأشيرة الدخول إلى كندا أنا وأهلي من الحدود، أو الذهاب إلى فرع السفارة الذي يبعد مدة ساعة بالسيارة؟

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف ظهراً.. قررت أن أذهب للسؤال ومعي الأهل، وعندما اقتربت من البوابة الأمريكية قمت بإيقاف السيارة وذهبت لكي أسأل. وكانت إحدى الموظفات تقف خارج البوابة لغرض التدخين، ولما اقتربت منها سألتها إن كان بإمكاني الحصول على التأشيرة من هنا لكي أتمكن من دخول كندا.. فأشارت إلى البوابة الكندية التي تبعد حوالي 30 متراً عن البوابة الأمريكية. فعدت إلى السيارة وسألني الأهل: ما الأمر؟ أجبتهم بأنه يجب أن نذهب إلى البوابة الكندية لسؤالهم، فسألتني إحدى بناتي سؤالاً منطقياً: وهل يسمحون لنا بالخروج؟ ذهبنا إلى البوابة الكندية ومن السيارة قلت للموظفة إنني لم أحصل على التأشيرة وأريد أن أعرف إن كان بإمكاني الحصول على التأشيرة من هنا، أو يجب على الذهاب إلى السفارة. قالت: أعرف أن السعوديين كانوا يدخلون إلى كندا دون تأشيرة ولكن الأمر الآن تغير، وأضافت بأنه يجب علينا الحصول على التأشيرات من السفارة كجميع المسافرين والداخلين إلى كندا. فشرحت لها صعوبة ذلك، فقالت: أعطني جواز سفرك، وقامت بتعبئة إيصال، ثم أعطتني نسخته الأصلية وقالت: عليك بالعودة من الجانب الآخر إلى أمريكا التي تبعد كما ذكرت سابقاً نحو 30 متراً، فعدت إلى

السيارة وأخبرت الأهل بأنها قالت: يجب أن آخذ التأشيرة من السفارة، وعدت إلى البوابات الأمريكية حيث طلب مني الموظف الجوازات وقال: عليك بإيقاف السيارة والنزول. أوقفت السيارة وعدت إليهم فطلبوا مني الانتظار.. انتظرت تقريباً 45 دقيقة، وكل من جاء بعدي أنهى إجراءاته وذهب. وفجأة نادوا اسمي، فذهبت إليهم، إلا أن الموظف ذكر لي بأنهم لا يستطيعون السماح لي بالدخول. عندها تراجعت وقلت له ماذا تقول، أنا لم أخرج من أمريكا.... فقاطعني وهو مستغرب وقال: لكونك خارج هذه البوابات فأنت خارج أمريكا، فقلت له بعد حوار (طرشان): لماذا لا تستطيع أن تسمح لي بالدخول؟ قال: أولاً: التأشيرة على وشك الانتهاء، وكان قد بقى لها مدة 17 يوماً فقط.. ثانياً: جواز سفرك أيضاً تبقى له خمسة أشهر وينتهي، في حين أنه يجب ألاّ تقل مدته المتبقية عن سنة ونصف للسعوديين لكي يستطيعوا السفر بجوازاتهم. قلت له: إن النظام يقول بأنه لو لم يتبقَ سوى يوم واحد على انتهاء التأشيرة فإن المسافر يستطيع أن يدخل أمريكا. لم يرد عليَّ وذهب وتركني.. حاولت أن أتكلم معهم ومع أكثر من موظف دون جدوى. استمر الحال مدة ثلاث ساعات وكنت قد طلبت من الأهل أن يتركوا السيارة وينتظروا معي في الصالة. عندها خطر على بالي فيلم الحدود لدريد لحام.

وقد كنت أستجدي من يسمعني إلى أن جاءت موظفة، وبمساعدة زوجي أخبرتها بأني لم أدخل كندا، عندها أبدت استغرابها وسألتني: هل أعطوك ما يثبت بأنك لم تدخل كندا؟ فأريتها الورقة التي كانت معي، وعندما قرأتها دار حديث مطول بيني وبينها خلاصته أنهم لا

يحسنون التعامل معنا نحن السعوديين، وأنهم يتمنون أن يجدوا أي هفوة لكي ينالوا منا، وختمت حديثنا بقولها: أتمنى ألاّ أراك ثانية هنا، فقلت لها: سوف أكون سعيداً جداً لو قدر لي أن أعود وأوراقي كاملة على ألاّ أجدك أنت أيضاً هنا.

خرجت أنا وعائلتي وقد أحسسنا بهلع وخوف كبيرين من تلك التجربة التي أصابتنا بالرعب من كل ما يشير إلى كندا، فقد كنا نسير في شوارع مدينة نياغرا فولز وعند رؤية أو قراءة أي لوحة تشير إلى كندا أسمع صياح وضجيج الأهل في السيارة (لا لا... انتبه يا بابا..... هذا الطريق يؤدي إلى كندا)، ولكن في اليوم التالي قررت نسيان تلك التجربة المريرة، وحجزت لهم مع إحدى الرحلات التي تتجول وتتعرف على أغلب مناظر النهر والشلالات.

وقبل التطرق للرحلة دعونا نتعرف على شلالات نياغرا، فقد كنت حريصاً على أن أزور كل معلم سياحي في أمريكا بهدف الاطلاع، وللتفكر والتأمل في خلق الله. فشلالات نياغرا تدفعك تلقائياً للتسبيح بقدرة الله الخالق القادر العظيم. فهي تقع في منتصف نهر نياغرا الذي يجرى على الحدود بين كندا والولايات المتحدة، إذ يبلغ طول النهر 54.5 كم، ويصل ما بين بحيرة إيري في الجنوب وبحيرة أونتاريو في الشمال، وفي وسط النهر توجد جزيرة كاوت التي تقسم الشلالات إلى جزأين.. الجزء الأصغر من الشلالات يوجد في الولايات المتحدة ويسمى بشلال أمريكا، وارتفاعه ثمانية وخمسون متراً، وعرضه

ثلاثمئة وعشرون متراً، ولكن الجزء الأكبر منه موجود في كندا ويعرف باسم (هورس شوز) أو حذوة الفرس، ويبلغ عرضه ما يقرب من830 متراً، وارتفاعه ستة وخمسون متراً، وقد حفرت المياه الهابطة في الصخور وشكلت شكلاً يشبه بالفعل حذوة الفرس. وقد استخدمت هذه الشلالات الطبيعية في توليد الكهرباء مما شجع على نمو الصناعة. وبسبب موقعها المتميز فإن هذه الشلالات الكبيرة تعد من أجمل وأشهر الشلالات في العالم. كما تعد في الوقت نفسه واحدة من أهم الأماكن السياحية في العالم التي يتوافد عليها مئات الآلاف من السياح. وهي محاطة بالمرافق السياحية وبالمسارح ودور السينما والمطاعم ومدن الألعاب وأهمها Marine Land حيث العروض الحية للحيتان القاتلة التي تعتبر تجربة فريدة من نوعها، التي تقع على الجانب الكندي. وفي الجانب الأمريكي موقع روك هاوس حيث يتوجه الزوار في مصاعد تهبط بهم إلى ممرات خاصة منحوتة في الصخر إلى أن يصلوا إلى موقع خلف الشلالات مباشرة. ويتم توفير ملابس واقية من البلل، ويشاهد الزوار كمية كبيرة من الماء المتدفق وقد نحتت الشلالات الأمريكية فجوة شهيرة تسمى كهف الرياح.



نعود إلى رحلتنا فقد ذهبنا في صباح اليوم التالي وكلنا شوق لتلك الرحلة، فقد كان الموعد الساعة الثامنة صباحاً حين ركبنا الحافلة وتوجهنا في جولة تعريفية حول النهر، فقال لنا المرشد السياحي: هذه هي منابع النهر.. وهذه بعض المولدات الكهربائية التي تعمل على



النهر. توجهنا بعد ذلك إلى حيث المتعة، حيث تتجلى قدرة الله سبحانه وتعالى. وفي البداية تم إلباسنا معاطف تقي من البلل، وذكر لنا المرشد السياحي أننا سوف نتوجه إلى الأسفل، وكنا ساعتها نطل على النهر وهو يجري من خلال ارتفاع يقارب الأربعين متراً.. ركبنا المصعد ونزلنا إلى حيث كان الأمريكان القدامى (السكان الأصليون لتلك المنطقة) يسلكونه للوصول إلى ضفة النهر، ومنه إلى قرب مصب الشلالات التي هي في الجانب الأمريكي طبعاً.. كان ما يصلنا هو الرذاذ وبعض الماء بعد ارتطامه بالصخور التي توجد على ضفاف النهر.. كم كان المنظر رائعاً رغم برودة الماء ونحن وقتها كنا في الصيف. استمتع





الأطفال بقوة الماء ورذاذه الذي يصل إلى عشرات الأمتار، وبعدها عدنا إلى الأعلى وتناولنا طعام الغداء ثم ذكر المرشد أن هناك رحلة سوف نقوم بها إلى حذوة الفرس.

أخذنا بعدها مدة للتنزه، فتم التجمع للنزول إلى ضفة النهر، عندها صعدنا مصاعد كهربائية إلى أن وصلنا إلى ضفة النهر، وكانت هناك قوارب أخذتنا في رحلة دامت حوالي 45 دقيقة. وذكر لنا المرشد السياحي أننا سوف نذهب إلى حيث مسقط الشلالات الكندية، وعند اقترابنا منها بدأت الأمواج تتلاطم من حولنا، وبدأ الرذاذ يصلنا حتى إنني قمت بإغلاق آلة تصوير التي كنت أحملها لتصوير قدرة الله سبحانه ومنظر تلك الشلالات.. اقتربنا إلى درجة كاد الموج أن يغرق بنا القارب.. تبللنا من ذلك الرذاذ حتى النخاع، ولكن كانت ثمة متعة لا توازيها متعة رغم برودة المياه. عدنا بعدها قبل غروب الشمس إلى ضفة النهر ومن ثم إلى الأعلى ومنها إلى الحافلة والفندق.

في اليوم الثالث قررنا أن نذهب إلى التسوق وبعض أماكن الألعاب والملاهي، كان الجو غايةً في الجمال.. فقد استيقظنا مبكراً.. وفي التاسعة ذهبنا إلى بعض المراكز التجارية للتسوق.. استمرت جولتنا حتى موعد الغداء. وبعد أن تناولنا غداءنا عدنا إلى مركز المدينة.. كان هناك منطاد في وسط مدينة الألعاب، فقررنا أن نصعد فيه. ورغم تخوف بعض أفراد العائلة إلا أننا قررنا الصعود ورؤية المدينة والشلالات من أعلى.. صعدنا إلى المنطاد، وشعرت بالثقة لأن المنطاد

كان متصلاً بحبل، والحبل مربوط بقاعدة في الأرض بحيث ينطلق المنطاد إلى ارتفاع محدد ويثبت عند ذلك المستوى مدة معينة ثم يتم سحب٢٣٩ إلى الأسفل بوساطة ذلك الحبل.



وأخيراً وفي اليوم الرابع قررنا أن نقوم بجولة على طول النهر من أعلى، فقد كان هناك طريق بمحاذاة النهر.. وبعد الظهر قررت العائلة العودة مرة أخرى للاستمتاع بما قمنا به في اليوم السابق.



ديترويت والجاليات العربية

كنا قد نوينا في بداية رحلتنا إلى شمال أمريكا وبالتحديد إلى نياغرا فورس أن نمر في طريق عودتنا على مدينة ديترويت التي تقع في ولاية ميتشغان، ولكن قبل أن أتطرق إلى رحلتنا دعونا نتعرف على تلك المدينة التي تنفرد بخصوصية تامة عن جميع مدن أمريكا الباقية.

فقد نجح العرب على غير العادة في إيجاد عاصمة موحدة حرة لهم في أمريكا، وتعتبر ضاحية ديربورن بمدينة ديترويت بولاية ميتشغان بالولايات المتحدة هي العاصمة العربية للعرب في الولايات المتحدة الأمريكية، فهذه البلدة تمثل أكبر تجمع عربي خارج الدول العربية؛ إذ يقطنها تقريباً 30 ألف أمريكي من أصل عربي، وتبدو وكأنها جامعة الشعوب العربية. إذا سرت على قدميك في أحد شوارع ديربورن ستشعر بأنك في مدينة عربية حيث اللافتات في كل المحلات بأسماء عربية، مثل أدونيس والعجمي، ومحال الأطعمة تبيع كل الأطعمة والحلوى العربية، بل إنك قد تستمع أيضا لصوت الأذان يرفع من أحد مساجد المدينة. وقد شعرت بالاندهاش وأنا أسير في

ديربورن عندما استمعت لصوت أذان صلاة الجمعة لأول مرة بعد أن نجح الأمريكيون العرب والمسلمون في مدينة ديترويت حيث تقع ديربورن في إصدار موافقة من مجلس المدينة على أن يعلو صوت الأذان عبر مكبرات الصوت ثلاث مرات يومياً... وإنه لنصر عظيم.

تعد بلدة ديربورن ثاني أكبر ضاحية في مدينة ديترويت بولاية ميتشغان، ويوضح يوسف بيضون ـ الأمريكي اللبناني الأصل، ومساعد عمدة ديربورن وضابط الاتصال بين المواطنين والعمدة ـ أن الأمريكيين العرب يمثلون أكثر من 30٪ من مواطني ديربورن التي تعد ثاني أكبر بلدة من حيث الحجم في ديترويت، كما تعد من أغنى المدن في ميتشغان. وقد سميت ديربورن نسبة لاسم الجنرال هنري ديربورن الذي اشترك في الحرب الأهلية الأمريكية. ويقول يوسف بيضون إنه أول أمريكي عربي يعمل في منصب نائب العمدة، مما يعكس مدى قوة الجالية العربية في البلدة. ويضيف أن ديربورن بالتحديد اجتذبت العرب لوجود مصانع فورد للسيارات التي كانت توظف العمال العرب بها في العشرينيات من القرن العشرين، وزاد عدد المصريين بشكل ملحوظ في التسعينيات داخل أمريكا، التي وصلها ما يقارب 64 ألف مصري ليزيد عدد المصريين من 79 ألفاً عام 90، إلى 143 ألف عام 2000 بنسبة 82٪.

وتتركز نصف الجالية العربية في خمس ولايات فقط هي: كاليفورنيا، وفلوريدا، وميتشغان، ونيوجيرسي، ونيويورك.. إلا أن ولاية ميتشغان على وجه الخصوص - حيث توجد ديربورن - إنما تحظى

بأهمية خاصة، حيث يبلغ العرب نسبة 2.1٪ من كل المقيمين فيها، يتمركزون في مدينة ديربورن (30٪)، وهي أعلى نسبة تمركز عربي في كل المدن الأمريكية على الإطلاق. 80٪ من عرب في أمريكا يمتلكون بشرة بيضاء ويعدون أنفسهم من الجنس الأبيض وليس الأسود. ويركز عدد كبير منهم على الأعمال التجارية والمهنية، مثل العمل كأطباء ومهندسين ومحامين وصيادلة. ويبتعدون إلى حد ما عن المقاولات والوظائف الحكومية والزراعية والصيد.

ولو رجعنا إلى تاريخ الهجرات العربية إلى الولايات المتحدة لوجدنا أنها قد بدأت في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان معظمها من التجار المسيحيين في لبنان وسوريا لأسباب اقتصادية، ولكن صدر قرار بمنع الهجرات من خارج أوروبا إلى أمريكا من عام 1925 إلى عام 1948، وبعد ذلك تم إلغاء القرار لتعود الهجرات العربية ولا سيما من الفلسطينيين والمصريين. وزادت نسبة الهجرات في الستينيات حتى التسعينيات بسبب حرب 67، والمشكلات الاقتصادية، والحرب الأهلية في لبنان، والمشكلات في العراق، وحرب الخليج الأولى مع إيران. وقبل عام 1960 كان نحو 90٪ من المهاجرين العرب من المسيحيين، ولكن بعد ذلك زادت نسبة المسلمين العرب المهاجرين، وإن استمرت هجرة الطوائف المسيحية المارونية من لبنان، والقبطية من مصر والكلدانية من العراق. وإذا كنت لم أتطرق إلى عدد المساجد في أمريكا، إلا أن الشيء بالشيء يذكر، فقد بلغ عدد المساجد تسعة ومئتين وألف مسجد.. ويعد عام 80 وما بعده العلامة

الفـارقـة الـتي دلت علـى زيادة هذا العـدد من المسـاجـد بنسـبـة 62٪. ويوجـد في 20٪ من تلك المسـاجـد مـدارس.. إلا أن عـدد الأمـريكيين المسلمين العاملين في المجالات المتصلة بتشكيل الرأي العام لم يتعدَ 1٪ بصفتهم صحفيين، 8٪ محامين، 6٪ فنانين.

وعـمـدة المدينة آنذاك هو مـايكل جـايدو، وقـد أعيـد انتـخـابه على مدى تسعة عشر عاماً ماضية، وهو من أصل إيطالي ولديه شعبية كبيرة بين الجالية العربية حتى إنه فاز على منافسه العربي الأصل في الانتخابات الماضية. ويعترف السيد جايدو بأنه قد ساده شعور بالقلق بعد أحداث 11 سبتمبر، خوفاً من ارتكاب حوادث انتقامية ضد الأمريكيين العرب في ديربورن.. ولكنه ـ كما يقول ـ لم يواجه مشكلات لأن أهالي المدينة يحبون العيش في سلام وقد اعتادوا على العيش بين جنسيات مختلفة ولا سيما العرب منذ مدة طويلة من الزمن.

ويوضح بيتر بترافوش ـ نائب رئيس تحرير صحيفة ديترويت فري برس Detroitfreepress (وهي الجريدة الأولى في ديترويت وتوزع 360 ألف نسخة يومياً) ـ أن لديهم محرراً متخصصاً في تغطية أخبار الجالية الأمريكية ذات الأصل العربي في ديربورن، ويعمل في الجريدة صحفيان من أصل عربي كما أن لديهم أربعة مراسلين في العراق (آنذاك). ويضيف أن عدداً كبيراً من الأمريكيين العرب وصلوا إلى مراكز مرموقة في ديربورن. فمثلا رئيس جهاز الإطفاء في المدينة أمريكي من أصل عربي. كما أشار إلى أن الجالية العربية كانت منغلقة

على نفسها حتى التسعينيات، ولكنها بدأت أخيراً تحاول تغيير نمط التفكير السائد حولها وتنغمس بشكل أكبر في المجتمع. فبعد أحداث سبتمبر جاء الكثيرون من محققي وكالة التحقيقات الفيدرالية FBI إلى ديربورن للتحري عن الأمريكيين العرب هناك، إلا أن القادة العرب للجالية وحدوا كلمتهم وأعلنوا عن رفضهم لهذا الأسلوب من التفرقة بين الأمريكيين بسبب أصولهم العربية. ويضيف أن الجريدة قامت بإعداد كتيب متوازن يحوي كل المعلومات المهمة في مئة سؤال وجواب عن الأمريكيين العرب. وقد زاد الطلب على هذا الكتيب بعد أحداث سبتمبر من الهيئات والمواطنين. والجدير بالذكر أن ديربورن تعيش فيها واحدة من أقدم الجاليات من أصل عربي، جاءت إلى أمريكا منذ العشرينيات، وهي الجالية الكلدانية (إحدى طوائف المسيحيين العراقيين) حيث يعيش في مدينة ديترويت كلها 100 ألف وبينهم حوالي 5 آلاف في ديربورن وحدها من هؤلاء الكلدانيين المؤثرين سياسياً واجتماعياً، كان معظمهم من المؤيدين للتدخل الأمريكي في العراق بسبب معاناتهم تحت حكم صدام حسين. ولدى هذه الجالية نحو 278 محل بقالة في ديترويت. ويقول دكتور عقيد يوسف ميري ـ رئيس الجمعية الكلدانية العراقية الأمريكية في ولاية ميتشغان ـ إن مصانع فورد كانت توظف العديد من المهاجرين العرب من الشام واليمن والعراق، وقد هرب عدد كبير من الكلدانيين من العراق بعد وصول حزب البعث إلى السلطة، وقد انشئ في ديربورن مقر للجالية في بداية الثمانينيات.

المدير التنفيذي للغرفة التجارية الأمريكية العربية الذي يعمل أيضاً وسيطاً للجامعة العربية شارك في إعداد أول مؤتمر للجامعة في ديترويت منذ أشهر عدة (حضر المؤتمر عدد من المسؤولين العرب ورؤساء شركات أمريكية يمثلون 15٪ من الاقتصاد الأمريكي ـ يقول إنه يحاول إيجاد جسر بين الجالية العربية في أمريكا والدول العربية، ويتم كذلك تنظيم رحلات لعدد من الشخصيات الأمريكية المؤثرة إلى دول عربية في محاولة لتغيير الصورة المشوشة عن العرب. كما يتم تنظيم مهرجان عربي في شهر يونيو سنوياً ليتعرف أبناء الجالية على العادات والثقافة العربية. وتصدر الجالية العربية في ديربورن مجلة (السبيل) وتوزع 5 آلاف نسخة، ومجلة (جسر الجاليات) وتوزع 30 ألف نسخة، و(المنتدى والوسيط) 15 ألف نسخة. ويطالب المدير التنفيذي للغرفة التجارية الأمريكية العربية بمشاركة رجال الأعمال العرب بشكل أكبر في شراء وسائل إعلام أمريكية ولا سيما محطات التلفاز، على غرار ما فعله المليونير اليهودي الأسترالي روبرت مردوخ، الذي اشترى محطة فوكس نيوز. ويؤكد أيضاً على أن الدولار الواحد يدور 90 مرة داخل الجالية اليهودية قبل أن يخرج من أيديها إلى أيد غير يهودية في أمريكا، بينما يدور الدولار مرة ونصف المرة فقط في الأيدي العربية!

ويشير إلى أن هناك محاولات ناجحة حالياً لإقامة متحف في ديربورن للأمريكيين العرب بكلفة 15 مليون دولار، يهدف إلى أن يتعرف الجيل الجديد على تاريخ أجداده ويفتخر به. ويوضح المدير

التنفيذي للمركز العربي للخدمات الاقتصادية والاجتماعية **Acces** أنه تم جمع تبرعات بقيمة 14 مليون دولار لإقامة المتحف الذي سيسهم في تغيير صورة العرب وسيوضح للشعب الأمريكي مدى إسهام العرب الأمريكيين في المجتمع منذ جاء أول عربي إلى أمريكا في القرن السادس عشر.

والجدير بالذكر أن أول عربي تطأ قدماه القارة الأمريكية الجديدة كان منذ 500 عام من المغرب، وأطلقوا عليه لقب (الزامور الأسود) ـ من الزامور (المغرب حالياً) ـ كان الرجل عبداً سافر مع أحد البعثات الإسبانية بعد أن احتلت البرتغال المغرب في أوائل القرن السادس عشر، عندما اتفقت مع الإسبان على تزويدها بالعبيد الأفارقة للسفر إلى فلوريدا والمكسيك ومنتصف القارة الأمريكية. وعمل (إيستيفانيكو) – كما أطلقوا عليه – عبداً لأندريه دورانتيه المكتشف الإسباني لمدة 16عاماً.

ومن المرجح أن إيستيفانيكو كان مسيحي الديانة، لأن الإسبان كانوا يرفضون تماماً سفر المسلمين إلى القارة الجديدة، ويقللون عدد المسيحيين العرب خوفاً من انقلابهم عليهم وانضمامهم إلى الهنود الحمر، وكان يشار إلى إيستيفانيكو في مذكرات المكتشفين الإسبان على أنه (النيجرو العربي) أو (الأسود العربي) الذي وصل إلى المكسيك عام 1528، وظل على قيد الحياة على الرغم من وفاة معظم من كان معه على السفينة! وظل يحاول التوسط بين الهنود والإسبان وعمل طبيباً إلى أن تم قتله في ظروف غامضة عام 1839 على يد الهنود على الأغلب.. وهناك تمثال له في مدينة الباسو بالمكسيك.

ربما كان إيستيفانيكو أو (زاموري) أول العرب، لكنه ليس آخرهم.. فقد أتى بعد ذلك عدة ملايين من العبيد في الأربعمئة عام التالية وتم إجبارهم على العمل وإعطاؤهم أسماء جديدة تختلف عن أسمائهم العربية لفك أي ارتباط لهم مع أهلهم الحقيقيين..

وهناك سجلات تدل على بدء وصول عبيد عرب مسلمين منذ عام 1717، ولكن عددهم قليل.. ولعل أشهرهم (بن علي) الذي حارب في الحرب الأهلية مع الشمال وغير اسم عائلته إلى (بنيناهلي)، وعمل ابنه في الجيش الأمريكي الفيدرالي، وكذلك (عمر بن سعيد) الذي درس القرآن في المغرب، وجاء كعبد إلى أمريكا. إلا أن حاكم ولاية كارولينا الشمالية أعتقه بسبب مستوى تعليمه الجيد وذكائه. وفي نهاية القرن الثامن عشر وبعد مئتي عام على وصول أول عربي قرر مجلس نواب كارولينا الجنوبية اعتبار العرب المغاربة الموجودين في المقاطعة أمريكيين لهم حقوق البيض نفسها، بعد أن تزايدت حالات التمييز العنصري ضدهم. وكانت المغرب أول دولة عربية اعترفت بأمريكا، كما كانت أول سفارة عربية بأمريكا لسلطنة عمان عام 1830. ويبلغ عدد الأمريكيين من أصل عربي 490 ألف في ولاية ميتشغان، و405 ألف في نيويورك، و255 ألف في فلوريدا و240 ألف في نيوجيرسي، و220 ألف في إيلينوي، و210 ألف في تكساس، و185 ألف في أوهايو، و175 ألف في ماساشوتس، و160 ألف في بنسلفانيا، و135 ألف في فيرجينيا، وأعداد أخرى متفرقة في ولايات أخرى، حيث يبلغ مجمل الأمريكيين العرب نسبة مليونين من 280 مليون أمريكي..

وأغلب العرب من لبنان 51٪، وسوريا 14٪، ومصر 12٪، وفلسطين 9٪، والأردن والمغرب والعراق بنسبة 3٪ لكل دولة، والباقي من اليمن والأكراد والجزائر والسعودية وتونس والكويت وليبيا والبربر.



المأكولات العربية

بعد هذا السرد التاريخي عن مدينه ديترويت وتاريخ العرب بها وبأمريكا، أعود إلى رحلتنا العائلية، فقد كنا مشتاقين إلى رؤية المطاعم العربية وتناول الوجبات العربية اللذيذة. فقد وصلنا إلى المدينة في حوالي الثالثة عصراً، وكنت قد حجزت في فندق بوسط المدينة.. الأمر الذي كان يحتاج منا بعض الوقت للوصول إليه.. أخذنا قسطاً من الراحة.. وقمنا في اليوم التالي بالتجول في المدينة. ومع اقتراب غروب الشمس بدأنا نفكر في الطعام العربي.. حاولت الوصول إلى الحي العربي دون جدوى. فقررت أن أسأل بعض المارة. وعند إحدى الإشارات المرورية التفت يميني فإذا بي أرى في السيارة المجاورة امرأة تبدو عليها الملامح العربية وترتدي الحجاب، فقررت أن أسألها وزوجها عن الحي العربي بالمدينة، فإذا به يجيبني بالعربي ويقول: اتبعني، عندها قلت للأهل: فرجت. وبعد حوالي 25 دقيقة تقريباً وصلنا إلى الحي العربي. لقد كان الأخ العربي الذي اصطحبنا إلى الحي العربي من اليمن الشقيق. دعانا الرجل إلى بيته فذهبنا

معه، وأصر على أن نتناول طعام العشاء معه.. شكرته واعتذرت له، وتوجهنا فوراً إلى المطاعم العربية حيث رائحة الكباب والشاورما. وفي شارع آخر كانت هناك بعض المأكولات الشعبية مثل الفول واللحم المندي. ففي هذه المنطقة تعيش جالية يمنية كبيرة، وهم من يقومون بعمل تلك الوجبات. قمت بشراء عشاء منوع من الكباب ولحم المندي وبعض المقبلات، ثم توجهنا بعدها إلى الفندق لنتناول طعام العشاء. لقد قضينا ثلاثة أيام كان الدافع والرغبة الأولى قبلها هي زيارة ديترويت.. حيث شوقنا للطعام العربي.



الرعب في شوارع شيكاغو

وصلنا إلى مدينة شيكاغو قادمين من مدينة ديترويت، وكنت في الطريق قد اتصلت بأحد الإخوة في كاربنديل وطلبت منه أن يحجز لي غرفة في فندق جيد بمدينة شيكاغو عن طريق الإنترنت (price line) لأن هذه الطريقة أقل سعراً مما لو حضرت إلى الفندق بنفسي وطلبت غرفة. وبالفعل قام بحجز الغرفة.. كان وصولنا في وقت جيد، فقمنا على الفور بإنزال الحقائب بالغرفة التي كانت في الدور الـ (16) أخذنا قسطاً من الراحة، ثم ذهبت مع الأهل لشراء بعض الحليب والخبز للأطفال.. تجولنا بالمدينة ثم عدنا للراحة. وفي اليوم الثاني كان الجو بديعاً ومغرياً للخروج.. فقد كنا في شهر أغسطس، لذا قررنا الخروج

مشياً على الأقدام.. كان ذلك قبل العصر بقليل، واصلنا المشي أنا وزوجي والأولاد والبنات، ولم نحس بطول المسافة، فحركة المدينة صاخبة وطول الأبنية والحركة المرورية جعلت من التجول متعة، وكذلك روعة الجو لم تجعلنا نشعر بطول المسافة، على الرغم من توافر بعض العربات التي تجرها الخيول الجميلة المزينة بتلك الزينات الجذابة. طلب الأطفال ركوب عربة من هذه العربات.. ولكن انتصر رأي الأغلبية.. المشي. فقد كانت الخريطة معنا وكنا نسير على هديها، وكان هدفنا هو الذهاب إلى نيفي بير ـ وهو متنزه يحفل بألعاب الأطفال ـ فلم تكن المسافة بعيدة لمن أراد الذهاب سيراً على الأقدام. المهم.. أننا وصلنا المتنزّه واستمتعنا كثيراً. كانت هناك قوارب عدة للنزهة مما دعى الأطفال إلى طلب الخروج في نزهة بإحدى القوارب. وبالفعل اشترينا تذاكر القارب التي كانت على ما أتذكر عشرة دولارات للكبير، وخمسة للطفل. كانت الرحلة جميلة، فهي تطلعك على منظر شيكاغو من الشرق، وكان الوقت قبل المغرب، وياله من منظر.. منظر الشمس وهي تغرب خلف ناطحات السحاب.. غاية في الجمال. خلال الرحلة التي استمرت (45) دقيقة تعرفت على أحد الإخوان العرب.. كان رجلاً مسناً.. قدم إلى شيكاغو للنزهة بصحبة ابنته وأطفالها، ذكر لي أن ابنته مغتربة مع زوجها الذي يعمل في التجارة، وأضاف الرجل أن الأوضاع قد تغيرت عليه؛ فقد قدم إلى أمريكا مرات عدة لزيارة ابنته، ولكن في تلك المرة لاحظ تغيراً كبيراً في المعاملة في المطارات من عملية الاستهداف في التفتيش والتركيز على نوعيات معينة من

المسافرين! قال لي: إن ابنته وزوجها تعرضا لمضايقات في المدينة التي يعيشان فيها وهي خارج ضواحي شيكاغو. كل ذلك بعد أحداث11 سبتمبر.

استمرت رحلتنا البحرية مدة (45) دقيقة، وبعد عودتنا إلى المتنزه كان هناك بعض الألعاب التي ودَّ الأطفال أن يلعبوا بها، فقمت بشراء بعض المشروبات لهم وتناولنا بعض الأطعمة إلى أن حان وقت العودة.. وغربت الشمس وبدأ البرد يزداد.. عم الظلام المكان.. وبدأت أنوار ناطحات السحاب تتلألأ، فأسرعنا بالعودة، ولكن الظلام كان أسرع، وبدا المنظر مخيفاً جداً، وبدت الشوارع في البداية مزدحمة بسبب خروج أغلب المتنزهين من النيفي بير.. وكان خروج الأغلبية مشياً وفي اتجاه عمودي نحو مركز المدينة. كان الفندق في مركز المدينة الجنوبي، فقررت أن آخذ الطريق الذي يشكل زاوية قائمة على الخريطة خوفاً من الدخول في مغامرة، وتماشياً مع أغلب الخارجين، إلا أن الشوارع بدأت تخلو من المارة، وغطى الهدوء المكان، ولف الشوارع الغموض والخوف.. كنا نمر من تحت أنفاق مخيفة موحشة جداً.. وكانت أصوات القطارات تشعرنا بالرعب فنسرع خطانا.. شعرت ساعتها أن تلك المسافة هي أطول مسافة في حياتي مشيتها، رغم أنها كانت في البداية قصيرة وجميلة جداً! كنت أشعر بالقلق على أسرتي من دهاليز تلك الظلمات، فكنا نمر على حانات وأناس ملقين على الطرقات بصورة مخيفة جداً.. كان الخوف ينتابني على الأطفال، ولم أتنفس الصعداء إلا بعد أن رأيت الفندق. وأخيراً بدوت أكثر اطمئناناً وأخذت

نفساً عميقاً، وحمدت الله كثيراً على سلامة وصولنا، فلقد كانت تجربة مخيفة، وتجربة لا تنسى في شوارع شيكاغو. ولكن لا أخفي حلاوة تلك التجربة على الرغم من خطورتها.. وعلى الرغم من أننا وقبل قدومنا إلى شيكاغو كنا قد تلقينا التحذيرات من عدم الخروج بعد المغرب.. لكنها كما ذكرت كانت مغامرة.



رحلة البحيرة Reed lack

كنا في مدينة كاربنديل مجموعة من الأخوة (عائلات وعزاباً) نجتمع كل يوم سبت في بيت واحد منا نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث عن أفراحنا وأتراحنا.. كنا ولله الحمد نجتمع على القرآن الكريم.. تلاوةً وتفسيراً، وكان هناك أحد الإخوة يسكن معنا في كاربنديل، ثم نقل إلى فرع الجامعة بمدينة أخرى. وفي أحد الأيام قررنا أن نقوم برحلة إلى بحيرة تبعد عنا مدة ساعة ونصف تقريباً، فقمنا بالتنسيق مع صديقنا هذا ليقابلنا هناك. خرجنا صباح السبت ووصلنا إلى الموقع، وتمكنا من حجز مكان جيد على شاطئ البحيرة. كانت البحيرة رائعة، وكان المكان ممتازاً وهادئاً، فتقاسمنا المهام في الطبخ وجميع الأنشطة، ورأى أحد الإخوة أن نقوم باستئجار قارب لنتجول به في البحيرة، وافقنا جميعاً على الفكرة، وذهب اثنان منا

وقاما باستئجار القارب، وكنا نحن من يتولى القيادة. ركبنا جميعاً.. الرجال والأطفال، وأخذنا نصف الساعة تقريباً نتجول في البحيرة، وعدنا إلى الشاطئ وكان قد بقي على الوقت اللازم لتسليم القارب عشرون دقيقة. لم أكتفِ بذلك بل قمت باصطحاب عائلتي كلها هذه المرة، وقمنا بجولة داخل البحيرة، حيث نزل الإخوان وصعد أبنائي وزوجي وتحركنا مستمتعين بالماء وأجواء البحيرة.. كنت أسير بسرعة خفيفة لكي نستمتع بالبحيرة ولكي لا يحصل مكروه لا قدر الله. وفي غمرة استمتاعنا تفاجأت بأن المحرك الخاص بالقارب قد توقف، فلم ينتابني خوف والحمد لله؛ فثقتي بالله كبيرة. الأمر لا يحتاج إلى شيء سوى إعادة تشغيل المحرك، فأعطيته فرصة قليلة ثم أعدت تشغيله.. قمت بفعل ذلك إلا أن الأمر لم يتم كما توقعت، تركته مدة.. حاولت ألاّ يبدو علي أي ارتباك حتى لا أخيف الأهل ولا أسبب لهم أي توتر، ثم أعدت تشغيل المحرك دون جدوى.. كررت ذلك مرات عدة، عندها بدأ الخوف يدخل قلبي.. فأنا بعيد عن الشاطئ والإخوة يعتقدون أنني مستمتع.. كنت قد تركت جهازي المحمول على الشاطئ خوفاً من أن يبتل بالماء.. كان همي ألاّ أشعر الأهل والأطفال بصعوبة الموقف، وأن أهون الأمر عليهم، وبعد مدة لاحظ الإخوة أن توقفي قد طال، فأشرت لهم بأن يرسلوا لي أحداً ليشغل المحرك. وبالفعل.. أرسلوا قارباً آخر، واشتغل المحرك وعدنا إلى الشاطئ. ولا أخفيكم سراً.. فقد خفت كثيراً على الأولاد؛ فهم لا يسبحون بشكل جيد، على الرغم من وجود

أدوات السلامة. ولكنها كانت مغامرة.. وفي الوقت نفسه متعة.. عدنا إلى الشاطئ واستمتعنا وكانت رحلة لا تنسى.



بعض المفارقات

ولادة ابني حسام:

ثمة مفارقات كانت متوقعة.. إلا أنها كانت مفاجئة لي.. ولا سيما في ذلك الوقت وفي تلك المدة الصعبة. الأمر كان ببساطة هو تأدية دور والقيام به على أحسن وأكمل وجه. فقد كانت زوجي حاملاً، وطيلة مدة حملها (نهاية 2002 وبداية 2003) كانت تتابع مراجعاتها الصحية مع طبيبة نساء وولادة، وكان الوضع طبيعياً حتى قرب ولادتها، فقد تم تحديد يوم الولادة التقريبي. وقبل يوم الولادة كانت زوجي قد تحدثت مع الطبيبة وطلبت منها أن تشرف على ولادتها بنفسها وذلك لأنها هي الطبيبة الوحيدة بين العديد من أطباء الولادة. وافقت الطبيبة، ولكن كان لديها مؤتمر سوف تحضره في مدينة سان لويس بولاية ميزوري، وقد لا تكون متواجدة في المدينة ساعة الولادة.. أحست زوجي بالخوف وتمنت أن تتمكن من الولادة قبل أو بعد ذلك الموعد. ولكن الله أراد غير ذلك، ففي مساء الرابع من إبريل كان لدينا تجمع في المركز الإسلامي بالمدينة، وكنت حاضراً ذلك التجمع.. وفي

تمام الساعة الحادية عشرة عدت للبيت وتفاجأت بزوجي تنتظرني وتقول: علينا الذهاب إلى المستشفى لإحساسها بقرب الولادة. أخذتها إلى المستشفى وتم إدخالها سريعاً إلى غرفة الولادة، وكنت قد سألت عن الدكتور المناوب فقالوا لي بأنه رجل، فقلت لهم: أليس بالإمكان أن تتصلوا بالطبيبة، فقالوا: إنها ليست هي المناوبة وإنهم لذلك لا يستطيعون الاتصال بها. وتحت إصراري تعاطفت معي إحدى الممرضات وقامت بإعطائي رقم هاتف الطبيبة في المنزل، وطلبت مني عدم إخبارها بمن أعطاني الرقم. وعدتها بذلك واتصلت بالطبيبة على الفور.. فرد عليّ زوجها.. قلت له: إنني أود أن أتحدث إلى السيدة (كوفر) قال لي: إنها خارج المدينة ولن تعود إلا يوم غد، فقلت له: إن الأمر مهم، ورجوته أن يطلب منها الاتصال بي على رقم هاتفي المحمول. وبعد 15 دقيقة تقريباً تلقيت اتصالاً.. كانت المفاجأة.. إنها هي من كانت على الخط. سألتني: «من أنت» قلت لها: «أنا زوج مريضتك التي تتابعين حملها»، وذكرت لها الاسم، فتذكرتها وسألت عن حالتها، قلت لها: «إنها الآن تتواجد في المستشفى وتحتاج إلى مساعدتك، فأنت تعرفين الحالة وتتابعينها، وأرغب في استمرارك معها»، اعتذرت لكونها خارج المدينة وعدم تمكنها من التواجد إلا في مساء اليوم التالي. أبلغتني بأنها سوف تقوم بالاتصال بأحد الأطباء وتبلغه بالحالة وتطلب منه أن يهتم بالأمر، قلت لها: إن رغبتي أن تكون هي معها لاعتبارات دينية. فقالت: «أقدر ذلك ولكن الساعة الآن هي الثانية عشرة صباحاً وهناك صعوبة في ذلك»، فقلت لها: أعلم أن رسالتكم صعبة وأنتم أطباء وتحملون رسالة وأتمنى حضورك. فقالت:

«سأحاول». فور انتهاء المكالمة اتصلت الطبيبة بالممرضات وأوصت بزوجي خيراً. عدت إلى البيت للاطمئنان على الأطفال.. كنت خلالها أداوم على الاتصال بالمستشفى. وفي الرابعة صباحاً عدت إلى المستشفى وإذا بي أفاجأ بوجود الدكتورة كوفر التي أشرفت على ولادة زوجي وهي تبشرني بأن المولود ذكر! وتم نقلها إلى غرفة خاصة، وكانت العناية بها على أعلى مستوى.. فلم تكن زوجي تطلب شيئاً إلا ويتم تلبيته بكل رحابة صدر.. فالعناية فائقة.. وكان المستشفى رائعاً في استقبال الحالة، وفي الابتسامة التي لم تفارق وجوه العاملين بالمستشفى، وكأنهم قد اتفقوا على ذلك! كانت مدة بقاء زوجي في المستشفى من الأيام التي لا تنساها من حسن استقبال وخدمة متناهية وإخلاص واضح في العمل. لقد أثبتوا فعلاً أن مهنتي الطب والتمريض هما من المهن الراقية في كل شيء.. وما زالت زوجي من آنٍ لآخر تعبر عن حزنها كثيراً عندما تذكر حال مستشفياتنا، واللامبالاة، وانعدام الإحساس بالمسؤولية المسيطرة على الوضع داخل تلك المستشفيات وخصوصاً في حالات الولادة.

لم يقتصر الأمر على ذلك؛ إذ لم تقتصر متابعتهم لها وللطفل على مدة تواجدها في المستشفى فقط، بل وبعد خروجها أيضاً! الأمر الذي جعلني أتوجه بخطابي شكر لكل من الطبيبة على موقفها الرائع ولكل الطاقم الطبي المناوب تلك الليلة وقمت بتوجيهه إلى إدارة المستشفى.



مواقف حول الحجاب:

قال عمر رضي الله عنه قولة خالدة.. كيف لا وهو من أولئك الأصحاب الذين رباهم المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، قال عمر ابن الخطاب في فتح القدس: (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله). ما أردت قوله هو أن المرأة المسلمة قد أعزها الله بحجابها وميزها عن بقية نساء الأرض.

لقد كانت تلك المدة بمثابة ابتلاء للمسلمات والمسلمين في الغرب، فمنهم من تمسك وصبر واحتسب، ومنهم من ترك تلك البلاد وهرب بدينه وعزته، ومنهم من تنازل بل وأمر زوجه أن تنزع الحجاب خوفاً من الشبهة.. أضاعوا الدين والدنيا، غفر الله لهم. أخبرتني زوجي أن هناك إحدى الأخوات التي تتواجد في الجلسات النسائية الخاصة.. متبرجة، فقلت لها: لم لا تنصحينها؟ فاستعانت بالله وتوجهت لها وقامت بالحديث معها عن الحجاب وأهميته وقالت لها: إنها إذا أضاعته فهي لما هو خير أضيع، وقالت زوجي: إنها كانت تبكي وتتحجج.. إلا أنها أقرت أخيراً أن ذلك بناء على توجيهات زوجها خوفاً من الاشتباه فيهم، ومعاملتهم بصورة مختلفة من قبل الآخرين. وبعد محاولات عدة وبعد أن كادت تلين وتقبل على الحجاب، علم زوجها فما كان منه إلا أن أمرها بالابتعاد عن محادثة زوجي وعن حضور التجمعات النسائية التي تحضرها.. إلى أن قرروا الانتقال إلى ولاية أخرى. هذه من المفارقات العجيبة التي كنت أتمنى ألاّ تصادفني. إلا أن الأمر لم يكن يخلو من الطرافة والإحراج في أحيان أخرى،

خصوصاً أن زوجي تشارك في أنشطة داخل مدارس الأولاد بطلب من المدرسات في المدرسة فيقمن برحلات مع الأطفال إلى بعض المزارع القريبة من المدرسة، وقد عملت متطوعة في تلك المدرسة لمدة سنة.. وخلال تلك الزيارات كانت أعين الجميع تقف حائرة أمام حجاب زوجي. ودائماً توجه لها الأسئلة مثل: هل تتنفسين؟ هل لديك شعر؟ هل أنتِ مشوهة حتى تغطي وجهك؟ أعندك ملابس أم إنك تكتفين بهذا السواد لأنك لا تملكين ملابس تحته؟

وذات مرة وفي أثناء تسوقنا قام أحد الأطفال بالصراخ والهلع عندما رأى زوجي، وذهب يجري إلى أن وجد والدته.. عندها قلت لزوجي أن تذهب إلى الأم وتعتذر، وتطلب منها أن تتحدث إلى الطفل.. وبالفعل، قامت بالذهاب إلى الأم واعتذرت لها، وطلبت أن تتحدث مع الطفل، وأخذته وأمه إلى ركن المحل التجاري وقامت بنزع غطاء وجهها للطفل وقالت: إننا نضع هذا الغطاء بناء على أوامر ديننا لنا، ثم توجهت بالاعتذار ثانية للأم والطفل وتركتهما. ولكن المركز التجاري كان واسعا جداً، وكنا كلما نلتقي بهم في الممرات كان الطفل يتوجه لنا بالتحية والابتسامة. أما من كان يعي ويفهم بعض الشيء من الأطفال فقد كان يعتقد أن الحجاب إنما هو مجرد زي تنكري.

وذات مرة استوقفت زوجي طفلة ووجهت لها سؤالاً.. بل اتهاماً، حين سألتها: هل تريدين أن تقتلي نفسك؟؟؟... فما كان من زوجي إلا أن قامت بالتحدث مع الطفلة على مرأى من أمها وقالت لها: لماذا؟ قالت الطفلة: إن الطقس حار ورطب، وهذا قد يؤدي إلى أن تختنقي

وتموتي.. فقد كانت درجة الحرارة 30 درجة تقريباً.. يبدو أنهم لا يعلمون أن في مثل هذا الوقت عندنا في الخليج تصل درجة الحرارة إلى 60 والرطوبة إلى 100 وعليه فإن تلك الدرجة تعتبر لدينا ربيعاً!.

تلك المواقف بلا شك كانت تزيدها قوة وتمسكاً بحجابها حتى اعتاد الجميع عليه وألفوه. وهناك من أعجب واقتنع بالحجاب وفكرة الحماية والأمان الذي تشعر به زوجي وهي ترتديه، وكذلك بناتي فالحمد لله على تلك النعمة التي حفظت نساء المسلمين وجعلتهن أفضل نساء الأرض بتمسكهن بحجابهن.

مطار ليقوا رديا بنيويورك:

في إحدى السفرات إلى أمريكا وبعد أن قضينا إجازة الصيف في السعودية، وبالتحديد في أغسطس 2002، وهروباً من الانتظار على الأقل خمس ساعات في مطار كيندي، كنت قد حجزت عن طريق مطار ليقوا رديا بنيويورك (الذي يبعد مسافة خمس عشرة دقيقة عن مطار كندي) على طائرة الساعة العاشرة صباحاً. وبعد وصولنا إلى مطار كيندي (الساعة السابعة صباحاً)، وبعد إنهاء الإجراءات.. كانت الساعة تقترب من التاسعة. العائلة - ما شاء الله - عددها كبير، والحقائب طبعاً كثيرة.. ولكننا تمكنا من الصعود إلى الحافلة التي تنقلنا إلى مطار ليقوا رديا. وعند وصولنا إلى صالة المطار كان الوقت يسرقنا، وكان خط الانتظار طويلاً، علاوة على أن هناك تجاهلاً من بعض العاملين على الكاونتر.. فقمت بمحاولة التحدث إلى أحدهم

محاولاً إخبارهم أن رحلتي اقترب موعدها، وأن لديَّ حقائب كثيرة.. ولكن دون جدوى، فلم أجد لديهم آذاناً صاغية. وبعد دقائق كان هناك أحد العاملين يسرق النظر، ولكنه كان مشغولاً بأحد المسافرين، وبعد أن أنهى إجراءات ذلك المسافر توجه إليَّ واعتذر عن التأخير، وقام بتوجيه الكلام إلى العاملين وتوعدهم بأنه سوف يقوم بتقديم تقرير بحقهم لعدم تقديمهم الخدمة لي ولعائلتي وتجاهلهم لي، ثم طلب التذاكر والجوازات، وقام باستدعاء موظفة تعمل معهم لكي تتأكد من الجواز الخاص بزوجي والبنات.. وطلب من الموظفة أن تأخذهم إلى زاوية بعيدة عن الناس لكي تتأكد من مطابقة الصور (فعل كل ذلك دون طلب مني)، وبعد الانتهاء أسرع محاولاً الاستعجال في الوقت لكي أتمكن من اللحاق بالطائرة.. ولكن واجهته صعوبة وهي أن وزن الحقائب أكثر من المسموح به.. وعلى ما أتذكر فقد كان الوزن المسموح به هو 75 رطلاً (أي مقدار 30 كج)، بينما كانت أغلب أوزان حقائبي تفوق 110 باوند، عندها استدعاني وقال: لكي لا تدفع مبلغاً كبيراً لخطوط الطيران، فإني أنصحك بأن تشتري حقيبة أو حقيبتين وتفرغ الوزن الزائد من كل الحقائب في الحقيبتين وبالتالي لن تدفع سوى قيمة الحقيبتين التي لا تتعدى 80 دولاراً.. توجهت إليه بالشكر وسألته عن أقرب مكان أجد فيه حقائب، فتوجهت إلى الصالة، وبينما كنت أبحث عن مكان بيع الحقائب سمعت صوته يناديني ثانية ويقول: «لدي فكرة أخرى». قلت: «ما هي؟»، قال: «تعالَ معي»، وتوجهنا ثانيةً إلى

مكتب الخطوط وطلب مني أن أنتظر قليلاً، وفوجئت به يحضر علبتي كرتون من الحجم المطلوب عندهم وأحضر معها لاصقاً وطلب مني نقل بعض محتويات الحقائب إلى تلك العلبتين. وكم كانت دهشتي كبيرة إلا أنني قمت بمحاولة فتح الحقائب لتفريغ الوزن الزائد وإذا به يفاجئني مرة أخرى ويقول: تعالَ عند تلك الزاوية بعيداً عن الناس لكي لا تقوم بفتح الحقائب أمام الناس، ويطلّعون على محتوياتها الخاصة بك وبعائلتك. في الواقع لقد أذهلني ما كان يقوم به ذلك الرجل ولكن لضيق الوقت ورغبة في اللحاق بالطائرة فقد كان همي هو تخفيف بعض محتويات الحقائب لكي أتمكن من اللحاق بالطائرة، فقد كان خياري هو أن أخفف من حمولة تلك الحقائب وإلا سأدفع تكلفة الوزن الزائد الذي كان مرتفعاً جداً.

وبعد ربع الساعة تقريباً تمكنت من تفريغ بعض الأشياء في علبتين من الكرتون، كنت خلال عملية التفريغ أتحدث مع زوجي وأذكر لها موقف ذلك الرجل ودهشتي من تصرفه معنا، ولا أخفيكم فقد فكرت أن أعطي ذلك الرجل بعض المكافأة، فقد وفر علي مبلغاً كبيراً.. ناهيك عن حسن المعاملة، ومراعاة مشاعرنا.. إلا أنني لم أجد وقتها سوى مبلغ كبير، مما دعاني إلى أن أطلب من زوجي أن تقوم بسحب مبلغ من الصراف الآلي إلى حين أن أتمكن من إنهاء إجراءات الصعود للطائرة. وبعد أن استلمت بطاقات صعود الطائرة توجهت بالشكر إلى ذلك الرجل وقدمت له مبلغاً نوعاً من الشكر على ما قام به على الرغم من عدم وجود ما يجبره على ذلك.

الدكتورة / كلورا بيكر

Baker, Clora Mae, Associate Professor

بعد أن تم قبولي في برنامج تطوير الموارد البشرية، قمت بتسجيل مواد في التخصص. وللعلم.. لم يكن أحد من الإخوان السعوديين في الجامعة لديه خلفية تامة عن هذا التخصص.. فهو يعتبر تخصصاً جديداً، ولكن كان هناك بعض الإخوة العرب ممن يدرسون في الكلية نفسها والتخصص نفسه. لذا فقد تواصلت معهم لأخذ انطباعاتهم وآرائهم عن بعض المواد، وعن طريقة أساتذة القسم في التدريس. وبالمناسبة فإن أحد الأصدقاء ويدعى سعيد كحيل (أمريكي الجنسية) كان قد حصل على الماجستير في تخصصين مختلفين من الكلية نفسها، وأصبح عندما بدأت الدراسة طالب دكتوراة، وصار نعم العون لي في أغلب الأمور التي لجأت إليه فيها. وأسر لي يوماً بأن سمعة الطلاب العرب في الكلية غير جيدة، وبالذات طلاب المرحلة الجامعية، ودعى لي بأن يعينني الله مضيفاً: «لا التاريخ ولا الوقت معك». بدأت الفصل الدراسي الأول بثلاث مواد، كانت مع أستاذين.. أولهما كان على وشك التقاعد، ولديه من الخبرة ما يساوي ضعفي عمري، كان في تعامله جيداً، ولكنه كان يقسو أحياناً على العرب والمسلمين، وكنت أظن في البداية أنه يحاول استدراجي في الحديث، ولكنني كنت في أغلب الأوقات أرد عليه بدبلوماسية، وأحاول الخروج من الموضوع بأقل الخسائر. تجاوزت ذلك الفصل والحمد لله بتفوق

إلا أنني لم أسجل للفصل الثاني لانشغالي بما حصل من أحداث، ولعدم معرفتي بالنظام. وعندما أردت أن أسجل للفصل الدراسي الثاني، وبعد استشارة الأخ سعيد وجدت أغلب الشُعب قد أغلقت، ولم تتبقَ سوى شعبة واحدة تقوم بتدريسها دكتورة تدعى بيكر. ولم يكن الأخ سعيد قد ذكر لي اسم هذه الدكتورة، لذلك تحدثت مع الأخ سعيد لأخذ انطباعه عن تلك الدكتورة وكيفية العمل معها، ولا سيما أن مادتها في صلب التخصص، ويهمني أن أستفيد منها، وعندما ذكرت له اسمها كأنما نزل عليه الخبر كالصاعقة، وحذرني منها لأنها ـ على حد قوله ـ إمرأة معقدة تكره العرب. ثم أردف واصفاً إياها حتى تمنيت لو لم أسأله. فأجبته بأنني مجبر، وليس أمامي خيار؛ لأن كل الشعب قد أغلقت، وبأنني لا أرغب في التأخر إلى الفصل الأول من العام القادم، لأن المادة أساسية **Core**، وبالتالي إذا لم آخذها هذا الفصل فسوف أتأخر لأنها لا تطرح بالصيف، فقال لي: «لقد حذرتك، فهي تكرهنا وتجاهر بكرهها لنا في كل محاضرة يوجد فيها طالب مسلم أو عربي». تركته وأنا في غاية الحيرة.. فالوضع حساس جداً.. ولكن ليس لي خيار، فعزمت على أن أذهب في اليوم التالي لتسجيل تلك المادة قبل أن تغلق هي الأخرى، وعند التاسعة مساءً، اتصل بي الأخ سعيد وأبلغني بأنه قد وجد مادة أخرى مع أستاذ ممتاز جداً، ولكنني عندما عرفت المادة قلت له: إن هذه ليست من المواد الأساسية في التخصص وإن المشكلة لدي هي في المادة، فإذا لم أدرسها هذا الفصل فسوف أتأخر. فأبلغني بأنها سوف تقرر في الفصل القادم، لكنني قررت أن أستخير الله ثم أتوكل عليه.

وفي اليوم التالي على الفور قمت بتسجيل تلك المادة مع الدكتورة بيكر. وعندما أبلغت الأخ سعيد بذلك، قال لي: أعانك الله وبالتوفيق.

ومع بداية الفصل توجهت إلى مكتب الدكتورة بيكر، وتعرفت عليها وعرفتها بنفسي، وطلبت منها بعض الأوراق عن المنهج وعن خطتها لتدريس المادة، فقالت: إنها سوف تتكلم عن كل هذه الموضوعات في المحاضرة الأولى لكي تعطي الفرصة لكل الطلاب في سماع كل التعليمات، فذكرت لها أنني متشوق لبداية الفصل وأنني قد سمعت عنها كلاماً شجعني أن آخذ المادة معها، على الرغم من أنهم قالوا: إنها دكتورة حازمة وHARD-WORKER.

قالت: «أعتقد أنكم لستم هنا إلا لكي تجتهدوا، وإذا كنت غير ذلك فأرجو أن تحذف المادة»، فقلت في نفسي: «اللهم اكفني شرها بما شئت»، ثم رددت عليها قائلاً: «أنا في مرحلة عمرية لا تسمح لي بالتساهل»، قالت: «لا.. فأنتم العرب شعب كسول ولا تريدون أن تعملوا، وتعتقدون أن كل شيء تستطيعون أن تأخذوه بالمال»، ثم أردفت قائلةً: «يا لكم من أغبياء»، قلت في نفسي: «يا حول هذا من بدايتها وهي داخلة عرض».. ولكن الله المستعان، (ومجبر أخاك لا بطل). قلت لها: «لن تري مني إلا ما يسرك، فردت قائلةً: «I don't think so».

استأذنت منها وخرجت، وبعد يومين قابلت الأخ سعيد وسألني عنها، فقلت له: إن أول محاضرة معها سوف تكون بعد غد، وذكرت له أنني قمت بزيارتها الأسبوع الماضي في مكتبها، وأنني لم أخرج

بانطباع جيد عنها، ثم قلت له إن الله سوف يمكنني منها إن شاء الله، فقال: انتبه، إنها سوف تتعبك بالأبحاث والواجبات، لا لشيء إلا لكي ترسل رسالة لك فتجعلك تتذمر وتحتكّ بها. ومع بداية أول محاضرة معها بدأت بتعريف نفسها ثم قامت ترسل التهديد والوعيد، ثم ذكرت أنها مريضة بالسرطان، وأن الأطباء قد أخبروها بذلك، وأنها ليست خائفة رغم أن الأطباء قالوا لها: إنها ستموت قبل ثلاث سنوات! وفي أي لحظة يمكن أن تموت. كانت بداية غير مشجعة، ولكنها سهام الليل.. فبفضل الدعاء، وبفضل رضا الله، ثم رضا الوالدين.. لم أترك لها فرصة. وكانت قد زودتنا بخطة المادة ومواعيد تسليم الواجبات والأبحاث (تخيلوا كان المطلوب عشرين بحثاً لتلك المادة، شريطة ألا يقل كل بحث عن عشرين ورقة، وأن يقبل منها على الأقل خمسة أبحاث للنشر في إحدى الدوريات العلمية، وأن ينشر على الأقل بحث واحد من هذه الخمسة خلال ذلك الفصل!) كان فصلاً مرهقاً جداً، ولكن الله أعانني عليها، فكنت أسلم الواجبات لها قبل مواعيدها، وأقدم الأبحاث لها قبل أن تطلبها، بل وقبل نهاية الفصل بخمسة أسابيع. وكان الطلاب قد اتفقوا فيما بينهم على أن يحتجوا ويتقدموا لها باعتراض مع الرفض بتقديم عشرين بحثاً، لعدم استطاعتهم أداء ما كلفتهم به، ولأن لديهم موادَ وأعمالاً أخرى، ولكونهم ليسوا متفرغين.. كانت مذكرتهم تتضمن طلب تخفيض عدد الأبحاث إلى عشرة، على أن يخفض عدد الأبحاث المقبولة إلى بحثين اثنين فقط.. (وقد كنت ولله الحمد حتى ذلك الوقت قد قدمت 15 بحثاً، وكان

أقرب الطلاب لي قد قدم سبعة أبحاث). وعندما ذهبوا إليها طلبوا مني أن أكون معهم، فذكرت لهم أن كوني قدمت حتى ساعتها 15 بحثاً، فهذا يجعلني لا أجد مبرراً لكي أطلب منها أن تخفض الأبحاث إلى عشرة، ولكنني على الرغم من ذلك وعدتهم بتدعيم طلباتهم في المحاضرة، وبأنني سأذكر لها أن ذلك الأمر أخذ من وقتي الكثير، على حساب مواد أخرى، وعلى حساب أهلي وأطفالي.

تقدموا بمذكرتهم وأرسلوا نسخة منها إلى رئيس القسم، وأخرى إلى عميد الكلية، فما كان منها إلا أن استدعت مجموعة منهم. وفي المحاضرة التي تلت تلك الشكوى، قالت: إنها حريصة علينا وإنها إذا لم تفعل ذلك فلن نحرص نحن على المادة، ثم إنها تعدّنا لكتابة الرسالة. ودار بعد ذلك نقاش طويل، في نهايته رضخت إلى مطالب الطلاب، ولكنها قالت: إن محمداً قدم حتى الآن 15 بحثاً، وبالتالي فإن الأبحاث الخمسة الباقية سوف أحسبها له نقاطاً إيجابية. الحمد لله، فمن تلك اللحظة تغيرت السيدة في تعاملها معي، حتى إنها لو فكرت في سب العرب، فإنها تتوجه لي وتعتذر مني، أو تقول: «عشان محمد.. لن أقول شيئاً».. فسبحان من سخرها وسبحان من كفاني شرها. ومن فرط الاحترام الذي نشأ بيننا، فقد درست عليها مادتين وطلبت منها أن تكون من ضمن أعضاء لجنة المناقشة في رسالة الماجستير. وعندما بدأت في برنامج الدكتوراة طلبت منها أن تكون المشرفة علي في البرنامج، فتقدمت لي بالشكر، واعتذرت قائلة: يا

محمد.. أنا سيدة كبيرة ومريضة بالسرطان، وفي أي لحظة معرضة للموت، ولا أريد أن أعلقك معي، أو أن تصل إلى مرحلة تضطر معها إلى تغيير البحث بسببي. وقد احترمت فيها ذلك الشيء وقدرتها. وكانت خلال تلك المدة قد تعرفت على زوجي ونشأت بينهم صداقة. والجدير بالذكر أن الأخ سعيد كان قد ترك الكلية، وكنت أقابله أسبوعياً، وكان يسألني عنها، فأقول له: الحمد لله، الأمور طيبة. وفي أحد الأيام.. اتصل بي سعيد، وقال: لقد قابلت الدكتورة بيكر ودار بيننا حديث، ثم سألتها عنك فقالت: «لقد غير ذلك الرجل نظرتي عنكم»، ثم سألني: ماذا فعلت لها؟ قلت: إن الله سخرها لي.. فتلك سهام الليل وما تفعل! فالحمد لله في الأول وفي الآخر.



خطاب مفتوح للسعوديين

إن من يزور هذه البلاد.. بلاد الحرمين الشريفين.. ويخالط أهلها ويعيش.. ويتعامل معهم عن قرب سيرى أن تعاليم الدين الإسلامي إنما تتمثلُ في حركاتهم وتصرفاتهم وتقاليدهم وعاداتهم. ومن المؤكد أنه سيخرج بتلك الانطباعات والمفاهيم التي خرجت بها الصحفية الأمريكية (تانياسي هسو). وكانت قد حضرت إلى السعودية لحضور منتدى محلي في مدينة جدة، ومن ثم قررت أن تبقى مدة لتزور بعض مناطق السعودية، وتعرف أكثر عن هذه الدولة الغريبة عنها. وقد

نشرت جريدة (عرب نيوز) مقالاً صحفياً لتلك الصحفية، تمت ترجمته إلى العربية ونشر في جريدة الرياض تحت عنوان (خطاب مفتوح للسعوديين) في يوم الثلاثاء 30 /1426/4 هـ.

وقد تناولت الكاتبة في هذا المقال أموراً كثيرة، ومقارنات عدة عن حجاب المرأة الذي قالت عنه: إن فيه الخير لبنات جنسها في كل مكان وزمان، وإنه ضمن كامل حقوقها، واستدلت بأمهات المؤمنين السيدة خديجة والسيدة عائشة رضي الله عنهما وأرضاهما.

وكما قيل: فالحق ما شهدت به الأعداء.. مع أنني أرى أن الكاتبة أقرب للحق، وإن شاء الله تهتدي لطريق الإسلام الذي أجزم أنه قريب إلى قلبها. فلقد أدرجت في هذا المقال من المفارقات الشيء الكثير، وذلك لقيام الإعلام الأمريكي بعد أحداث 11 سبتمبر بحملات على المرأة السعودية وعلى المجتمع السعودي، وبدعوات ظالمة تقول: إن المرأة تقع تحت ظلم واضطهاد الرجل في هذا البلد المعطاء. وإليكم ما كتبت تلك المرأة رغم أنها من بلاد العم بوش. لقد كتبت وقالت:

«لقد شعرت بالغضب والإحباط بعد عودتي من المملكة العربية السعودية التي أمضيت فيها أربعة أسابيع مرتدية العباءة والحجاب.. ونظراً لأنني محللة متخصصة في شؤون المملكة العربية السعودية، فلقد عرفت الكثير مسبقاً عما هو متوقع مني عمله، ولم يمثل ارتدائي للحجاب وعدم تمكني من قيادة السيارة خلال المدة التي قضيتها هناك أي مشكلة بالنسبة لي. وبعد أربعة أسابيع طرت إلى أتلانتا مرتدية الحجاب.. ليس فقط لأختبر رد فعل الأمريكيين، ولكن لأنه

كان مريحاً وعملياً. ولقد أضفت إلى حجابي - بينما كنت أتسوق في (سوق البدو) بالرياض - البرقع، وأدركت ولأول مرة في حياتي أن الرجال يتحدثون إليَّ مباشرة بكل احترام وتقدير، دون أن يكون لجسدي بصفتي امرأة أثر في ذلك التقدير.

ويرجع سبب حضوري للمملكة إلى أنني كنت قد تلقيت دعوة بعد أن انتهيت من إعداد كتاب لي عن المملكة لحضور منتدى حوار محلي نشط بجدة. فقررت أن أمكث هناك قليلاً لأجمع المادة الخاصة بكتاب آخر لي عن المملكة أيضاً. قابلت خلال تلك المدة أناساً من جميع مشارب الحياة.. منهم الغني، ومنهم الفقير، منهم الأمهات، ومنهم النساء العاملات، منهم النساء الناجحات، والأخريات العاطلات عن العمل، منهم الأميرات ومنهم البدويات البائعات في الأسواق.. ومنهم ما هو بين هذا وذاك. التقيت بسعوديين أصليين وسعوديين مجنسين وأجانب، وعشت مع أسر سعودية كانت بعضها تستخدم الخدم، والبعض الآخر دون خدم.. كانوا جميعاً منفتحين وتواقين لمشاركة الرأي معي. فلقد تنقلت بحرية عبر البلاد، وجلست على موائد الطعام الفاخرة في المساء بمنازل السعوديين، ولم يكن باستطاعتي أن أتهرب من هذه الحفاوة وهذا الكرم، كما أنني لم أشاهد الرجال منفصلين عن النساء ألبتة.

وفي الرياض اعتدت على استخدام مكتب أحد الأصدقاء لمدة أسبوعين، وكان يتم التعامل معي بطريقة متكافئة مع الرجال، وتم إطلاعي على مناقشات تجارية على مستوى عالٍ. لقد توقعت بعد هذه الزيارة أن أعود للولايات المتحدة وأنا في موقف دفاعي أفضل

ولا سيما أنني كنت قد حاولت بعد أحداث 11 سبتمبر أن أشرح أوضاع المملكة للشعب الأمريكي دون جدوى، فقد أظهر عدم رغبته في الاستماع أو الفهم بعد أن أصبح هدفاً لتلك الهجمات. وواجهت صعوبة في ممارسة مهنتي لإصراري على إيضاح بعض القضايا السعودية للشعب الأمريكي، فشعرت بأنه من الممكن أن يلقى الشخص قبولاً إذا كان معادياً للحرب أو معارضاً لجورج بوش أو مؤيداً للفلسطينيين، ولكنه لن يلقى أي قبول من أي طرف سياسي داخل الولايات المتحدة إذا ما كان موالياً للسعوديين.. بما يعتبر وكأنه مضاجعة للعدو أو عبادة للشخص. فلم يكن يوجد سوى تغطية إعلامية بسيطة ومحدودة للمملكة في الغرب لا تتناول إلا موضوعات التجارة والنفط وإعلان الإصلاح. ولاحظت للأسف أنه لا يوجد داخل المملكة مواكبة للأحداث (على الرغم من مشاهدة السعوديين للقنوات الفضائية ومطالعتهم للصحف واستخدامهم للإنترنت)، فقد لاحظت ذلك حتى في «مكتبة جرير» الشهيرة التي لم تكن تعرض سوى كتب عن الرحلات والتصوير وحياة أشخاص تاريخيين مثل: «جيرترید بیل وهاري فيلبي» فقط، ولا تعرض مادة سياسية للجمهور التواق للمعرفة السياسية.. ويعد هذا في حد ذاته مناقضاً للمنطق في هذه المرحلة. وواجهت بعض المضايقات بسبب إقفال المحلات أوقات الصلاة.. فالوقت في الولايات المتحدة يمر بطريقة مختلفة، حيث نسارع في الانتقال من مكان لآخر مما يوصلنا للإجهاد وحافة الانهيار، بينما شاهدت الأسر في جدة تسير في مجموعات مسترخية على (الكورنيش)، بينما يلعب أبناؤهم بالطائرات الورقية أو يركبون الحمير

أو يعدون اللحم المشوي في الهواء الطلق بعيداً عن الموسيقى الصاخبة التي تصم الآذان في الشوارع الأمريكية الرئيسة، تلك التي يشغلها المراهقون في سياراتهم المسرعة.

والسؤال هنا: ما الذي جعلني أشعر بالغضب؟ لقد ظل هناك سؤال يطاردني لم أحصل على إجابة شافية عنه خلال جميع مناقشاتي التي جرت بالمملكة.. فعندما كان يوجه سؤال لشخص حول أسباب شعوره بالفخر لكونه سعودياً، كانت الإجابات الشائعة آنذاك أن السبب في ذلك لكونه مسلماً أو عربياً مثلما أن المملكة هي موطن الحرمين الشريفين، ولكنني لم أتلقَّ إجابات حول القومية والروح الوطنية السعودية! ألا ترون ما في هذه الناحية من معنى؟

لقد ظللتم ولسنوات عديدة ماضية تعتذرون علانية عن بعض أعمال العنف التي وقعت بالمملكة.. تعتذرون عن الافتقار للإصلاح وبطء حركة التغيير، وسمعت مراراً وتكراراً عن الشعور باليأس الذي أعمى عيونكم عن رؤية ما يجري أمامكم من خطوات تغيير ونمو وإنشاء مؤسسات جديدة وجهود إصلاحية. إن لديكم أشياء كثيرة تجعلكم تشعرون بالفخر، ولكن أدبكم الجم ورقتكم قد سمحت للغرب بأن يطأكم بقدميه، وأن يصفكم بأنكم مصدر تهديد للديمقراطية وللعالم. يجب عليكم ألا تسمحوا بأن تستمر هذه النغمة. عليكم أن تسعوا للتقليل من المشاعر المعادية للسعوديين، والتوقف عن إعادة تأكيد نقاط ضعفكم.. إنكم أمة عزيزة، ولذلك فعليكم أن تترجموا مشاعر الاعتزاز والفخر ببلدكم من خلال العمل وليس فقط من خلال

المشاعر. عليكم أن تشرحوا للعالم كيف أنكم تحترمون النساء، وكيف أن بلدكم خالٍ نسبياً من الجريمة، وكيف أنه بلد آمن، وكيف أنكم تمنحون الأسرة الأولوية في الاهتمام. عليكم أن تخرجوا عن صمتكم وأن تتساءلوا: كيف أن الولايات المتحدة الدولة الرائدة في الجريمة وفي الاغتصاب وفي العنف المحلي، تجرؤ على اتهامكم بانتهاك حقوق الإنسان؟ عليكم أن تسألوا: كيف يدافع الأمريكيون عن تنفيذ أحكام الإعدام بقتل النساء والقاصرين والمتخلفين عقلياً بالكرسي الكهربائي؟ عليكم أن تبينوا كيف أن ديمقراطية الولايات المتحدة تسمح بتصدير أكبر صناعة للصور العارية في العالم. فلماذا تنتقد المملكة بسبب القيود التي تفرضها للحفاظ على الأخلاق؟ عليكم أن تبينوا لهم كيف أنه باستطاعة أي سعودي أن يترك محفظة نقوده أو الكاميرا الثمينة على المقعد الأمامي بالسيارة كما فعلت أنا، ويعود ويجدها في مكانها نفسه.. بينما ينهمك الأمريكيون في استخدام أجهزة الإنذار لإبعاد اللصوص! كما ينتشر المجرمون الذين يسيئون للأطفال في كل حي. عليكم أن تبينوا لهم أنكم تطبقون إجراءات أمنية صارمة وفريدة لمنع تكرار وقوع أعمال عنف حول بعض المجمعات السكنية، كالتي وقعت في السابق.. فهناك على سبيل المثال مجمع سكني بالخبر محاط بخمسة جدران أمنية وعربات مدرعة، وآخر محاط بثلاثة أنواع من التحصينات لضمان عدم عودة المجرمين مرة ثانية لمكان جريمتهم السابقة. فلماذا مثل هذا الشعور بالخوف من قبل الأمريكيين الذين يعملون الآن بالمملكة؟ عليكم أن تبينوا للأمريكيين أن العديد من الراهبات والقساوسة والمستوطنين اليهود والحاخامات والكاثوليكيين

يغطون رؤوسهم، فلماذا تعد تغطية المرأة السعودية لرأسها مظهراً من مظاهر الظلم؟ ولماذا يعتذر السعوديون عن بطء خطوات التقدم بينما استغرقت الولايات المتحدة مئتي عام لمنح المرأة حق الاقتراع، إذ لم يتم ذلك سوى في عام 1920؟ عليكم أن تبينوا للأمريكيين أنهم يميزون بين الرجل والمرأة في الدخل، بينما وظف الرسول محمد ﷺ للعمل في التجارة من قبل زوجه الأولى خديجة التي كانت امرأة ناجحة تماماً في أعمالها التجارية، كما حاربت زوج أخرى للرسول هي عائشة جنباً إلى جنب مع المقاتلين في إحدى الغزوات، ممّا يدل على أن الإسلام يمنع العنصرية والتمييز ضد المرأة. عليكم أن تبينوا للأمريكيين كيف أنه لم يتم إلغاء التفرقة العنصرية ضد السود سوى في عام 1963، بعد سلسلة من الاضطرابات وأعمال العنف! كما لا يزال التمييز شائعاً ضدهم، ولا يتم الاختلاط بهم من قبل الجنس الأبيض بحرية. لماذا تعطي الولايات المتحدة نفسها الحق في مهاجمة أي بلد عربي بينما لم يسبق أن وجهت أي دولة عربية تهديداً للولايات المتحدة؟ فهل هذا من الديمقراطية في شيء؟ الأهم من ذلك.. هل تأكدتم أن هذا هو الشيء الذي يريدونه؟ بالطبع هناك أشياء عديدة تحتاج لإصلاح داخل المملكة، وكل الدول تشهد صعوداً وهبوطاً، ولا يوجد فارق كبير بين الروتين في المملكة أو السويد أو فرنسا، وكذلك فإن الوزراء بتلك الدول كما هم بالمملكة يستقرون في مناصبهم ويقومون بأدوارهم في أجهزة الحكومة، وليس لديهم الرغبة في التغيير. إن لديكم أيها السعوديون مجموعة جاهزة من المتطوعين أو المتطوعات الذين يمكن استخدامهم لتحسين المستويات الأخلاقية

للناس، من خلال إبراز أن القيادة المتهورة محرمة في الدين لأنها قد تقود إلى إهدار أرواح الآخرين، وعليكم إبراز تحريم الدين لإلقاء أي شخص للأوساخ في الشوارع، وتلويثه البيئة بما يضر بصحة الناس.

وأخيراً فإذا ما أصبحت العولمة والتكنولوجيا سمة من سمات هذا العصر، فإن المصلح محمد بن عبد الوهاب قد دعا للإصلاح من أجل وحدة البلاد والعباد في القرن الثامن عشر الميلادي، ولذلك فمن الممكن استخدام الاجتهاد والنصوص الشرعية لتوحيد أبناء الأمة من أجل خدمة الإسلام والمملكة والكرامة القومية.

والحقيقة أن هناك لغزاً كامناً في المملكة، ربما يكون في طبيعة الناس أو ربما في طبيعة التاريخ أو ربما في طبيعة الأرض.. ولكن لو كانت قد أتيحت لي الفرصة في البقاء مدة أطول بالمملكة، لربما كنت قد واصلت البحث حتى أجد تفسيراً لهذا اللغز. أشعر بأن جزءاً من قلبي قد ظل ورائي في المملكة.. ولكنني آمل في أن أتمكن من العودة سريعاً للمملكة لمعرفة السبب في ذلك. انتهى المقال ولعل فيه ما قد يجيب أو يسكت تلك الأبواق التي فتحت أفواهها على هذا البلد وأهله.

ذر الرماد في العيون

خلال السنوات الثلاث الماضية عانت الجامعات الأمريكية من نقص توافد الطلبة من العالم الثالث ولا سيما من المسلمين والعرب، واشتكت إلى الكونغرس الأمريكي، ودارت رحى النقاشات حول

أوضاع الجامعات ومراكز اللغة فيها. فأغلقت مراكز، وسرح مدرسوها من جراء عدم إيفاد الطلاب، وإن وجد فيكون عادةً من بعض الدول التي لا يستطيع الطالب فيها دفع الرسوم بالمراكز والجامعة الأمريكية، أي: من الطلاب الموفدين من خلال المنح الدراسية التي تقدم من الجامعات الأمريكية. وبالتالي فقد قام وفد من الجامعات الأمريكية بزيارة بعض الدول العربية والإسلامية في بداية عام 2004، بهدف جذب واستقطاب طلاب جدد. ومع بداية عام 2006، أعيد فتح الباب للإيفاد بالمملكة، وتساهلت السفارة الأمريكية في منح التأشيرات بغرض الدراسة ولا سيما للإيفاد الجديد وللطلاب الجدد. وكانت معظم هذه الموافقات للطلاب من خريجي الثانوية العامة.. الأمر الذي يجعل هؤلاء الطلاب يتعرضون إلى تجارب وممارسات ليست لديهم خبرة أو دراية بها، لا سيما بعد جرح أحداث سبتمبر الذي لم يندمل بعد.

وقد حدثت مؤخراً حادثة تناقلتها وسائل الإعلام الأمريكية في أغلبها بشيء من السخرية. فقد قام شابان سعوديان من الموفدين بالبرنامج الجديد للبعثات 1426/ 1427، بالركوب في حافلة لنقل طلاب مدرسة ثانوية، بما يتعارض مع النظام بولاية فلوريدا التي تمنع ركوب أي غريب في الحافلات المدرسية لنقل الطلاب، تماماً مثلما هو سائر في بقية الولايات، وذلك لأن أغلب راكبيها دون سن الثامنة عشرة، وفقاً لنظام الولاية لصغار السن.

وفي أثناء ذهاب الحافلة إلى المدرسة، أقدم هذان الشابان على إزعاج بقية الركاب، بالتحدث باللغة العربية والضحك وإصدار أصوات مزعجة.. مما جعل سائق الحافلة يشك في أمرهما، فقام بإيقاف الحافلة، وتوجيه السؤال لهما عن سبب ما قاما به، كما استفسر عن جنسية كلٍ منهما، فذكرا أنهما مغربيان! مما زاد الطين بلة، فتم القبض عليهما، وحدد مبلغ الكفالة اللازمة لإخراجهما من السجن. فيا ترى من المسؤول عن ذلك؟ ومن سيدفع المبلغ عنهما؟

ولو تأملنا ذلك الأمر جلياً لوجدنا أن هناك أموراً عدة تنطوي تحت مظلة ذلك الفعل الذي أقدم عليه هذان الشابان. فنحن في تعليمنا وفي المراحل الأولى بالذات لم نحرص على تعليم الطالب النظام، ولم نحرص أيضاً على معاقبة الطالب عندما يخالف النظام.. فلم يتعلم الطالب احترام الممتلكات العامة، ولم يتعلم كذلك، أو لم يرَ حينما يخالف أو يسيء استخدام تلك الممتلكات العامة أن ذلك خطأ يستحق أن يعاقب عليه.. وبالتالي نشأ لدينا نوع من اللامبالاة بالنظام، وصل إلى حد الاستهتار ليس بالنظام فقط، ولكن أيضاً بمن يعمل به أو يقوم على تنفيذه. ولو قدر لأحدنا أن يطلع على ما يدور في مدارسنا الابتدائية لرأى العجب العجاب.

ففي الغرب، ومنذ مرحلة الحضانة، يتلقى الطفل الأساسيات التربوية في التعامل، والحرص على النظام والنظافة ومبدأ الاعتماد على النفس، والحفاظ على الممتلكات العامة.. والأجمل من ذلك الأدب

في التعامل وتعويده على كلمات جميلة مثل: لو سمحت.. شكراً.. آسف.. إلخ، بحيث تترسخ في الأذهان تلك المفاهيم والمبادئ الرائعة بل تكبر معه.

أما الحال في مدارسنا فهو على النقيض من ذلك تماماً، إلى درجة أننا نشعر أحياناً بأن أطفالنا يكونون بأمان حتى سن دخول المدرسة، فيبدأ بعدها التصادم الحقيقي عند الطفل بين ما ربي عليه من قيم وبين المدرسة وما تحفل به من اختلاف المفاهيم وقانون الغابة السائد حيث البقاء للأقوى.. فلا اهتمام ولا متابعة ولا إشراف، وأصبح يتملكنا إحساس عجيب بالإحباط من العملية التعليمية برمتها، المتمثلة في المعلم، لكونه القدوة من جهة ولكونه هو المنوط به تقديم المناهج من جهة أخرى. فنجد الطالب يخالف النظام ولا يجد من يقول له: إن ذلك خطأ، بل إن الطالب في الواقع لا يعلم أن ذلك خطأ، لأنه لم يتعلم النظام وقواعده من المدرسة أو المعلم على حدٍ سواء. فقانون الغابة الذي يتعامل به الطلاب في الصفوف الأولى وفي أوقات الراحة (الفسح) وبين الحصص الدراسية على سبيل المثال، يمر بلا رادع لهم ولا معلم يقف معهم، فتجد الجري والضرب والرفس ومبدأ اغتصاب ما في أيدي الآخرين. كل ذلك انعكس على تربية النشء وعلى تصرفاتهم داخل وخارج المدرسة. ومن انعكاسات ذلك على أولئك الطلاب، أنهم في نهاية المطاف عندما يخرجون إلى بلاد أو دول أخرى يحترم فيها النظام ويعاقب مخالفه، تجدهم يثيرون الشغب والفوضى لعدم انضباطهم وعدم احترامهم للأنظمة والقوانين السائدة في هذه البلدان، ويصبح كل شيء لديهم يشترى بالمال!

وفي الختام هناك موفد أرسل لي رسالة وعنونها بـ: «رسالة من موفد في أمريكا».. ومما جاء في هذه الرسالة: (بداية أود أن أخبرك بأنني أكتب لك هذه الرسالة الواقعية والمؤلمة من داخل (العمق) الأمريكي، ومن أواسط الحياة الاجتماعية والتعليمية الأمريكية... فأنا أحد الموفدين للولايات المتحدة لمرحلة (الماجستير) منذ سنة ونصف تقريباً، عن طريق إحدى الدوائر الحكومية بالمملكة. كان معي في مرحلة الدراسة (قلة) من الموفدين السعوديين الذين يمثلون أنموذجاً حضارياً ووجهاً مشرقاً للمسلمين أولاً، ولوطننا الغالي ثانياً، ومن ورائنا هدف آخر هو تحسين الصورة المشوهة عنا لدى الغرب الأمريكي، ولاسيما بعد الأحداث المعروفة لدى الجميع.

ولكي أدخل بك وبالقراء إلى صلب الموضوع مباشرة، أود أن أخبرك أنه ومع بداية السنة الدراسية، فوجئ الجميع عندنا بوصول عدد كبير، وسيل هادر من الطلبة السعوديين، للدراسة بالجامعات الأمريكية، بدرجة أذهلت الجميع. في البداية استبشرت أنا ومن معي بذلك، لتوقعنا ومعرفتنا بأن (الموفد) عادة ما يكون ذا عقلية ناضجة وتفكير عميق، لأنه يمر عادةً باختبارات تؤهله للانتقال إلى مرحلة (الإيفاد) بالخارج قبل سفره.

ولكن.. ومع مرور الأيام (القليلة) ظهر لنا ما لم يكن في الحسبان.. لقد فوجئ الجميع بأن هؤلاء الطلبة الموفدين غالبيتهم من حملة الشهادة (الثانوية) وأعمارهم صغيرة جداً، كما أن إجراءات إيفادهم كانت متيسرة جداً جداً، على عكس ما لاقيناه نحن من صعوبات للحصول على هذه البعثة! وزاد الأمر ذهولاً ودهشة أن الكثيرين من

هؤلاء الطلبة كانت مستوياتهم الدراسية متدنية جداً، لدرجة أن بعضهم قد تخرج بتقدير (مقبول)، أي: إن تقديره هذا لا يخوله الدخول في الجامعات السعودية، فما بالك بالدراسة في الخارج؟

ومع مرور الساعات وانقضاء الأيام، ظلت طوابير الطلبة تتوافد علينا باستمرار، وبدأنا نرى أموراً - والله - يندى لها الجبين، وتدمع لها الأعين. فبدأنا نراهم يتخلون بأسرع ما يكون عن دينهم من الصلوات والأخلاقيات.. عن قيمهم وعاداتهم، حتى رأيناهم وبسرعة مذهلة قد علقوا السلاسل في رقابهم، ووضعوا في الآذان (الحلقين) تلك التي تعرف بالإنجليزية بـ (Piercing)، ونرى وجوههم وكأنها أشباح خرجت لتوها من القبور.. التفاتاتهم.. نظراتهم.. سلوكياتهم.. أخلاقياتهم.. هيجانهم وتمردهم، كل ذلك كان يُبشر بخطر قادم على هؤلاء الفتية الصغار.

والله لن أبالغ إن قلت إننا نراهم يتزاحمون في شوارع المراقص والبارات، ويتفاوضون مع من هم أكبر منهم لشراء (الشراب) لهم لأن الأنظمة تمنعهم من ذلك لكون أعمارهم دون سن الحادية والعشرين.. لقد كانت عقولهم محصورة في الجنس واللهو! باختصار: الوضع ينذر بكارثة قادمة ما لم يكن هناك تحرك سريع وعاجل لتدارك الأمر، وإعادة دراسة هذا القرار.

وبالمناسبة فقد حدث في جامعتي التي أدرس بها ذات يوم أن قام اثنان من الطلاب بإحداث حالة من الشغب في إحدى المحال التجارية وهم تحت وطأة السكر الشديد! وقد تضخم موضوع الشغب، وخرج

عن إطار السيطرة حتى علمت السفارة السعودية هناك بهذه الحادثة، ووصل الأمر إلى (إف بي آي) الذي قام بدوره بإشعار مديرة الجامعة المسؤولة عن مراقبة الطلبة الأجانب بذلك، فما كان منها إلا أن تقدمت باستقالتها بسبب ما تعانيه باستمرار من مشكلاتهم الكثيرة).

و يواصل الموفد قائلاً: (أخي! أسألك بالله أن تقوم بنشر هذه الرسالة؛ لأننا نحن الموفدين (القدامى) أصبحنا متضررين جداً من تصرفات هؤلاء الطلبة، كما أن ذلك قد نال كثيراً من سمعة السعوديين هناك حتى إن الصورة تشوهت لأبعد مما تتصور.

فوالله إن هذا القرار سيتسبب في كارثة للوطن، لأن غالبية هؤلاء الموفدين قليلو الخبرة، وصغار في السن، لم يأتوا إلى هنا بهدف الدراسة بقدر ما كان همهم المرح والتسلية. لذا، آمل أن يصل صوتي هذا وهو أيضاً صوت كل موفد غيور على دينه ووطنه وإخوته الموفدين إلى المسؤولين لعلهم يعيدون دراسة هذا القرار من جديد ويضعون شروطاً صارمة له من اختبارات ودورات تأهيلية قبل إيفاد أي طالب إلى هناك).. انتهى كلام المرسل، وقد حققت رغبة المرسل في إدراج هذه الرسالة كما أرسلت، اللهم قد بلغت اللهم فاشهد.



الخاتمة

إخواني وأعزائي القراء.. لقد حاولت جد المحاولة أن أتجمل في الكتابة، ولكنني آثرتُ أن أتحرى المصداقية.. فالكاتب يجب أن يتحرى الصدق ويتخذه شعاراً ودثاراً في الحياة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ (الزمر: 33)، فيجب إذن أن يتتبع الكاتب كل معلومة وكل خبر يفيد ما يكتبه. ولقد اجتهدت كثيراً وتحريت الدقة في صدق المعلومة وصحة الخبر. وقد يرى القارئ أن هذا الكتاب طويل بعض الشيء، فأرجو المعذرة لأنني لم أكن أملك الوقت الكافي للكتابة.. وقد يستغرب بعضهم ويسأل: كيف لا تملك وقتاً وقد كتبت كل هذه الصفحات؟

أقول الحقيقة أن تلك الملاحظة غير صحيحة؛ لأن الذي لا يملك وقتاً ومتسعاً من الوقت للكتابة، فإن كتابته على العكس تأتي مسهبة ومطولة، لكونه يتحدث ويدون كل ما يدور في رأسه من معلومات.. موضوعات.. تساؤلات.. تعليقات.. قصص دون ترتيب، لكنه لو امتلك الوقت الكافي لفكر كثيراً، وتأمل وأعاد النظر مراراً وتكراراً، ولربما تردد في أن يكتب كل شيء.

ولكنني في الحقيقة بعد عودتي من أمريكا وتأخر حصولي على تأشيرة العودة، وبعد أن سمعت وعلمت بأخبار بعض الإخوة السعوديين الذين لم يتمكنوا من العودة لسبب أو لآخر، بدأت أفكر في تدوين

أحداث تلك الحقبة من حياتي. وقد احتاج الأمر مني إلى ذكر بعض التفاصيل بعد الاستئذان من الأبطال الحقيقيين لتلك القصص والمواقف. فبعضهم رحب بالفكرة وباركها، وبعضهم تحفّظ، وآخرون رفضوا الإشارة إليهم.. على الرغم من حدوث مواقف صعبة ومهمة لهم خلال مدة إيفادهم. ولقد احترمت وجهات نظر الجميع في ذلك، لمعرفتي بطبيعة حياتنا الاجتماعية، وعاداتنا.. فلم أتطرق لها ولو من باب التلميح.

ومن الجدير بالذكر أن كل وقائع هذا الكتاب حدثت على أرض الواقع وأغلبها موثقة.. سواء بمعايشتي لها، أو بتدوينها من وسائل الإعلام الأمريكية والعربية، المقروءة أو المرئية أو المسموعة.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والعرفان، لكل من منحني الحرية في ذكر جانب من حياته أو أسهم معي بقصة أو موقف معين؛ لأن الجميع تضرر من تلك الحقبة العصيبة، بل ما زال بعضهم يعاني منها. أسأل الله أن يفرج عنهم كل مكروب، وأن يعيد كل مغترب سالماً معافىً غانماً إلى وطنه.

سبحانَكَ اللهُمَّ وبحمدِك

أشهدُ أن لا إله إلا أنت

أستغفرُك وأتوبُ إليك.

